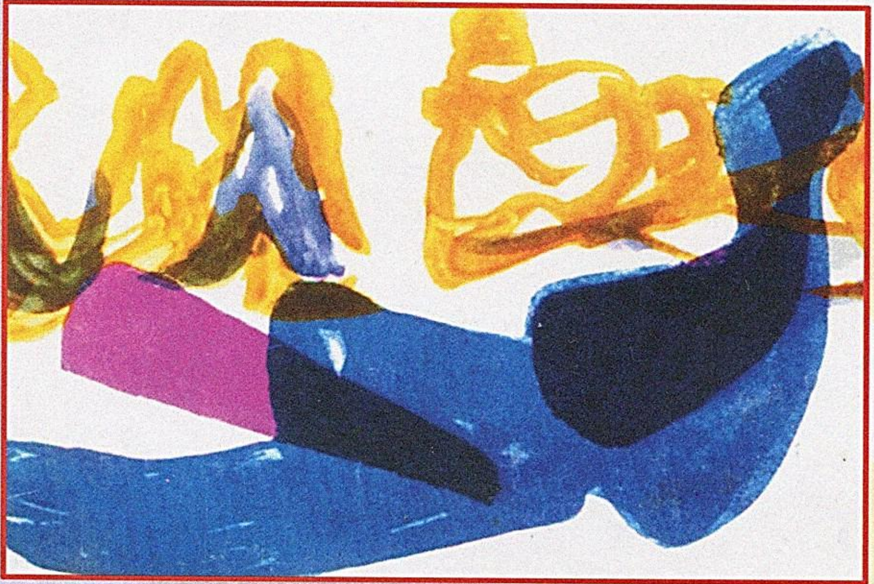
الحائز على جائزة نوبل للآداب

ويليام فوكنر

بينما أرقد محتضرة

رواية



ترجمة: توفيق الأسدي

دار الخيال

بينما أرقد محتضرة

As I Lay Dying

بينما أرقد محتضرة

تأليف: **ويليام فوكنر**

ترجمة: **توفيق الأسدي**

دار الخيال

للطباعة والنشر والتوزيع

بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 ـ شارع الكويت
المنارة ـ بيروت ـ 2036 6308
لبنان ـ تلفاكس : 009611-740110
E-mail: alkhayal@inco.com.lb

الاخراج والتنفيذ **دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى 1988

الطبعة العاشرة 2010

ويليام فوكنر

بينما أرقد محتضرة

رواية

ترجمة: **توفيق الأسدي**

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة المترجم

حين قرأت رواية «بينما أرقد محتضرة» للمرة الأولى منذ ستة عشر عاماً فتنتني حوادثها وشخصياتها والعمق الذي تناول به المؤلف الشخصيات؛ ولكني لم أكن أفكر في ترجمتها آنذاك.

وحين أعدت قراءتها منذ عامين وقد وضعت ترجمتها نصب عيني، لم أتصور أبداً خلال قراءتها أن ترجمتها ستكون في مثل هذه الصعوبة وأنها ستضع أمامي كل تلك العراقيلَ التي لم يسبق لي أن عرفتها خلال ترجمتي لأعمال أدبية أخرى. وليس هذا بالمستغرب طبعاً حين نعرف أن النقاد اعتبروها أصعب روايات فوكنر على الفهم.

وحين شرعتُ بترجمتها فعلاً، وكان ذلك في صيف (1983) كان ذلك أشبه بمن يصعد جبلاً وهو يحمل كيساً ثقيلاً من الحجارة وله ساق عرجاء. كانت ترجمة كل صفحة من صفحاتها أشبه بمخاض يفرض عليّ أن أرتاح أياماً بين الصفحة والأخرى. وبعد أن ظللت أترجم فيها مدة شهورٍ أربعة، تركتها دون أن أنجز منها أكثر من ثلاثين صفحة ثم عدت إليها بعد ستة أشهر فترجمت منها ثلاثين أخرى ثم تركتها سنة كاملة لأنجز ما تبقى منها خلال أربعة شهور من العمل المتواصل.

لدى قراءتك لهذة الترجمة سترى أيها القارىء العزيز أني وضعت لها الكثير من الحواشي والإضافات، وإن كنت تركت الكثير الكثير دون تفسير وإلاّ ضاعت لذة القراءة ومتعة البحث عن المجهول. وإن كنت ستجد أحياناً أن هناك جملة غير مكتملة المعنى أو مفردة وردت في غير محلها أو صورة شعرية ـ أجل شعرية فهذه الرواية عبارة عن قصيدة طويلة مكثّفة إلى أبعد الحدود ـ غريبة كأشد ما تكون الغرابة، فلا تظنّن أن في ذلك خطأ مطبعياً أو في النقل، فقد بذلت جهدي لتأتي الترجمة أمينة إلى أقصى حد، وحاولت أن أحافظ على الإيقاع الداخلي لأسلوب فوكنر ما وسعني ذلك، وكذلك طريقته في التنقيط، فلم أغيّر فيها إلاّ قليلاً وعند الحاجة الماسة وكما تقتضي اللغة العربية. كما ستلاحظ أيها القارىء العزيز أن هناك مفردات وجملاً وفقرات ترد مطبوعة بحرف مختلف عن بقية الكتاب، وكانت تلك أداة اتبعها المؤلف كي يشير إلى القارىء بأن الزمن مختلف هنا عن زمن الأحداث الجارية في فصل ما من الفصول.

أحداث الرواية

نظراً لصعوبة فهم هذه الرواية وتشابك حوادثها واستعمال المؤلف لطريقة تيار الوعي في سرد حوادثها، ارتأيت أن أقدم للقارىء ملخصاً لأهم أحداثها ثم نبذة عن شخصياتها الرئيسية دون الدخول في كثير من التفاصيل:

تبدأ الرواية وآدى بندرن، وهي أم لأربعة أبناء وبنت واحدة (كاش ودارل وجوويل وديووى ديل وفاردامان)، راقدة على فراش الموت تلفظ آخر أنفاسها، ويزورها بين الحين والآخر جيرانها: فرنون تل وزوجته كورا وبناتهما. وبما أن رغبتها الأخيرة هي أن تدفن في مقبرة ذويها في مدينة جيفرسون البعيدة عن بيت زوجها ومزرعته (آنس بندرن)، فلا بدّ من نقلها بالعربة إلى هناك بعد أن تموت. إلا أنّ دارل وجوويل يذهبان بالعربة الوحيدة التي تملكها العائلة لنقل حمولة إلى قرية مجاورة ليكسبا ثلاثة دولارات فحسب. ثم يسوء الطقس وتنقلب بهما العربة في طريق العودة مما يؤخر هذه العودة وبالتالي تموت أمهما دون أن يودعاها الوداع الأخير، ويؤخر بالتالي أكثر من ثلاثة أيام نقل جثمانها إلى مدينة جيفرسون. أخيراً وحين ينطلقون جميعاً في

رحتلهم لنقل الجثمان يكون النهر قد ارتفع منسوبه بسبب الأمطار الشديدة وانهارت الجسور، فيتكبدون الكثير من المشاق ويعانون من صعوبات جمة ولا يتمكنون من دفن الجثمان إلاّ بعد مرور حوالي عشرة أيام على وفاة الأم.

وخلال هذه الرحلة التي تروي الشخصيات حوادثها، كل من وجهة نظرها الخاصة، نتعرّف على الخلفية الإجتماعية لهذه الأسرة ومعاناة المزارعين الفقراء من البيض في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية، كما نتعرف على كل شخصية على حدة وما هي مشاكلها الفردية، آمالها ومطامحها.

(المترجم)

شخصيات الرواية

1ـ **آنس بندرن**: رب الأسرة وزوج المرأة المحتضرة. رجل كسول ذو شخصية مهزوزة وضعيفة أمام زوجته وأولاده وإن يكن ذا عناد وتصميم في أمور أخرى.

2 ـ **آدي بندرن**: الزوجة والأم المحتضرة: شخصية معقّدة، لا تحب زوجها وتتحيّز في معاملة أطفالها وأعتقد أن الفصل الوحيد الذي ترويه هو أجمل فصول الرواية.

3 ـ **كاش**: الابن الأكبر: يعمل نجاراً. شخصية متفانية في عملها واخلاصها للأسرة.

4 ـ **دارل**: الابن الثاني: كسول غريب الأطوار يروي معظم فصول الرواية (حوالي 30 من أصل 59). وإن كانت الأفكار الفلسفية التي يطرحها لا تتناسب مع شخص مثله.

5 ـ **جوويل**: الابن الثالث: لا نعرف الكثير عنه من الداخل إذ يروي فصلاً واحداً فقط من الرواية، ولكنه عنيف وذو إرادة وتصميم.

6 ـ **ديووي ديل**: الابنة الوحيدة للأسرة: فتاة تشعر بظلم كبير.

7ـ **فاردامان:** الابن الأصغر: وهو يروي كثيراً من فصول الكتاب بأسلوبه الطفولي ومن خلال وجهة نظره البريئة الساذجة المندهشة أمام الأحداث الكبيرة والفلسفية أكثر من اللازم أحياناً.

8ـ **فرنون تل:** أقرب جيران آل بندرن، شخص متدين يمد يد المساعدة إلى جيرانه وقت الحاجة.

9ـ **كوراتل:** زوجته المتدينة الضيقة الأفق.

01ـ **بيبودى:** الطبيب.

أما بقية الشخصيات فتروي فصلاً واحداً وتتدخل قليلاً في الأحداث وسيتعرف عليها القارىء خلال قراءته للرواية.

(المترجم)

ويليَام فوكنر

ولد ويليام فوكنر قرب مدينة «أوكسفورد» في ولاية الميسيسبي الأمريكية عام (1897). وقدكان الكولونيل «ويليام فوكنر»، أحد شخصيات الجنوب الأمريكي المتطرّفة الغريبة الأطوار، الأبية جداً.

لم يكن ويليام ناجحاً في المدرسة، كما أن الجيش الأمريكي رفض قبوله في سلاح الطيران نظراً لقصر قامته وذلك خلال الحرب العالمية الأولى، فتطوع في سلاح الطيران الكندي لكنه لم يشارك في الحرب. وبعد أن انتهت الحرب التحق بجامعة الميسيسبي لفترة من الزمن ومارس بعدها أعمالاً متنوعة. وبينما كان يعمل في «نيو أورليانز» قابل الروائي الأمريكي «شيروود أندرسون» الذي شجّعه على الكتابة، فكان أن ألّف روايته الأولى «راتب الجنود» (عام 1926). ثم كتب روايات أخرى وقصصاً قصيرة. وفي عام (1929)، وهو العام الذي تزوج فيه، عمل كحمّال للفحم في محطة توليد للقوى وكتب رواية «بينما أرقد محتضرة» (عام 1930) بين ساعات منتصف الليل والساعة الرابعة صباحاً، وذلك خلال فترة أسابيع ستة من الصيف. ثم كتب رواية «الملتجأ» التي أرادها أن تكون مثيرة وأن تحقّق مبيعات كبيرة، حيث أن رواياته الأولى لم تحقق ذلك. ثم عمل فيما بعد في كتابة بعض

السيناريوهات لهوليوود من أجل كسب المال فحسب. وقبل موته بقليل (عام 1962)، انتقل فوكنر ليسكن في ولاية فرجينيا، نال فوكنر جائزة نوبل للآداب عام (1949).

من أعمال ويليام فوكنر

1ـ راتب الجنود:1926.

2ـ البعوض: 1927 (مترجمة إلى العربية).

3ـ سار توريس: 1927 (مترجمة إلى العربية).

4ـ الصخب والعنف: 1929 (مترجمة إلى العربية).

5ـ بينما أرقد محتضرة: 1930

6ـ الملتجأ: 1931

7ـ نــــور في آب: 1932 (ترجمها إلى العربية توفيق الأسدي ونشرت عام 1994).

8ـ غير المنهزمين: 1934

9ـ بايلون: 1935

10ـ أبسالوم أبسالوم!: 1936

11ـ النخيل البري: 1939

12ـ القرية: 1940

13ـ اهبط يا موسى: 1942

14ـ متطفل في الرماد: 1984

15ـ قداس لراهبة: 1951 (مترجمة إلى العربية).

16ـ المدينة: 1957

17ـ المنزل القديم: 1959

18ـ الدب: (مترجمة إلى العربية).

إهـداء المؤلـف

إلى هَال سميث

دارل

نصعد، جوويل وأنا، من الحقل، نتقفّى آثار الممرّ، الواحد في أثر الآخر. ورغم أني أسبقه بخمس عشرة قدماً، فإن أي شخص يراقبنا من مخزن القطن سيرى قبعّة جوويل المصنوعة من القش، المهترئة والمهشمّة، تعلوني بمسافة تعادل رأساً كاملاً.

يجري الممرّ مستقيماً كأنه خيط الفادن، وقد ملس من كثرة ما مرّت عليه الأقدام وشوته شمس تموز حتى أصبح قاسياً كالآجر، وذلك بين الصفوف الخضراء من نباتات القطن المهملة، حتى يصل إلى مخزن القطن في منتصف الحقل، وهناك يستدير ويلتفّ من حول مخزن القطن مشكّلاً أربع زوايا قائمة غير حادة ثم يستمر عبر الحقل مرة أخرى، وقد أَبْلَتْه الأقدام في دقّة متضائلة.

مخزن القطن مبني من جذوع غير مصقولة، سقط من بينها ما كان يسدّ الشقوق منذ زمن طويل. هو مربع الشكل سقفه محطم ومنخدر، وها هو يتكّىء خراباً فارغاً ومُومِضاً تحت نور الشمس، له نافذتان عريضتان في جدارين متقابلين تشرفان على المجازات المؤدية إلى الممر. وحين نصل إليه أستدير وأتبع آثار الممر الذي يدور حول المخزن. وها هو جوويل، الذي

يتخلف عني مسافة خمسة عشر قدماً، ينظر نحو الأمام مباشرة، ويعبر من النافذة بخطوة واحدة. إنه لا يزال يحدق أمامه مباشرة وعيناه الباهتتان الأشبه بلون الخشب متوضعتان في وجهه المتخشب، ها هو يعبر أرض المخزن في أربع خطوات وبجدية تمثال هندي السيجار[1] مرتدياً «أوفرله» المرقّع ومترعاً بالحياة من الوركين وإلى الأسفل، ثم يخطو ثانية عبر النافذة المقابلة في خطوة واحدة ومن جديد يعود إلى الممر في اللحظة التي كنت ألتف فيها حول الزاوية. وفي رتل واحد لا تفصلنا سوى خمس خطوات، وجوويل في المقدمة الآن، نتابع سيرنا صاعدين في الممرّ باتجاه سفح الجرف.

تقف عربة «تَل» قرب النبع، مربوطة إلى السياج والعنان ملفوف حول دعامة المقعد. في حوض العربة كرسيان. يتوقف جوويل عند النبع، يأخذ اليقطينة من غصن الصفصافة ويشرب. أمر متجاوزاً إيّاه صاعداً الممرّ وقد بدأت أسمع صوت منشار «كاش».

حين أصل القمة أراه قد تخلّى عن النشر. وها هو يقف ضمن ركام من نشارة الخشب يلصق اثنين من الألواح واحدهما بالآخر. وبين المسافات الظليلة تبدو الألواح صفراء بلون الذهب، الذهب المصقول، تحمل على جوانبها في تموّجات ملساء آثار شفرة القدوم: يا له من نجار جيد، «كاش» ذلك!. ها هو يمسك باللوحين الموضوعين على «جحش» النجارة، وقد التصقا عند الحواف مشكلين ربع الصندوق المكتمل. يركع ويغمض عينيه نصف إغماضة وهو ينظر على امتداد الحواف ثم، ينزلهما ويتناول القدوم. يا له من نجار جيد! لا يمكن لآدي بندرن أن تتمنى صندوقاً أفضل منه لتتمدّد فيه. سيمنحها هذا الثقة والراحة، أتابع سيري نحو المنزل يتبعني صوت القدوم: تشاك تشاك تشاك.

1 ـ (تمثال بالحجم الكامل، يمثل هندياً أحمر يوضع في مداخل المخازن التي تبيع السيجار والتبغ) (المترجم).

كورا

وهكذا ادّخرت البيضات وخبزتُ البارحة. وقد نجح الكعك تماماً. نحن نعتمد كثيراً على دجاجاتنا. وهن دجاجات بيّاضات، تلك القلة التي تبقت بعد غارات «الأوبوسوم»[1] وما شابهه. والثعابين في الصيف كذلك. إن الثعابين أسرع الحيوانات في اختراق قن الدجاج. وهكذا وبعد أن تبيّن أنها ستكلف أكثر بكثير مما كان السيد تَلْ يظن، وبعد أن وعدتُ بأن الفرق في عدد البيض سيعوِّض عن الخسارة، كان عليّ أن أكون أكثر حرصاً فهو لم يقبل أن يشتريها في الأصل إلاّ بناءً على تعهدي. كان يمكننا شراء دجاج من النوع الأرخص ولكني منحت تعهدي بناء على نصيحة السيدة لووينغتون التي قالت أنه من الأفضل الحصول على سلالة جيدة، كما أن السيد تَلْ نفسه يقرّ بأن السلالة الجيدة من الأبقار أو الخنازير لها مردود أفضل مع مرور الزمن. وهكذا حين خسرنا الكثير من الدجاجات لم نعد نستطيع استهلاك البيض شخصياً لأني ما كنت أريد أن يؤنّبني السيد تلْ بعد أن تم شراؤها بناءً على تعهدي. إذن فحين نصحتني السيدة لووينغتون بخبز الكعك

---

1 ـ حيوان أمريكي.

فكرت أنه يمكنني أن أصنع الكعك وأكسب ما يكفي في مرة واحدة دجاجتين كاملتين تعويضاً عن الخسائر السابقة وهكذا فإنه عن طريق ادخار البيض ـ بيضة واحدة كل مرة ـ لم تكلفنا البيضات شيئاً، وفي ذلك الأسبوع باضت الدجاجات كثيراً إلى حد أنني لم أدخر من البيض ما هو زائد على ما التزمت ببيعه فحسب، بل ما يكفي لخبز «الكعك» به، لقد ادخرت ما يكفي بحيث أن الدقيق والسكر وحطب الموقد لم تكلفني شيئاً. وهكذا خبزت البارحة، وكنت حريصة على الخَبْز كما لم أكن طوال حياتي، وقد كان الكعك ناجحاً تماماً. ولكننا حين وصلنا إلى البلدة هذا الصباح أنبأتني السيدة لووينغتون بأن المرأة قد غيّرت رأيها وأنها لن تقيم الحفلة رغم كل شيء.

تقول كيت: «كان عليها أن تشتري ذلك الكعك على أية حال».

أقول: «حسناً، أعتقد أنها لم تعد في حاجة إليه الآن».

تقول كيت: «كان عليها أن تشتريه، ولكن سيدات المدينة الثريات أولئك يمكنهن العدول عن رأيهن. أما الفقيرات فلا يمكنهن ذلك».

الثراء لا شيء بالنسبة إلى الرب فهو يستطيع أن يرى ما في القلب.

أقول: «ربما أستطيع بيعه في السوق يوم السبت». لقد كان الكعك ناجحاً تماماً.

تقول كيت: «لا يمكنك الحصول على دولارين لكل قالب».

أقول: «حسناً، إن الكعك لم يكلفني شيئاً».

لقد أدّخرت البيضات ثم قايضت اثنتي عشرة بيضة مقابل السكر والدقيق. لم يكلفني الكعك شيئاً، كما أن السيد تلْ نفسه يدرك أن البيضات التي ادخرتها كانت زيادة عما التزمنا ببيعه، وهكذا فإن الأمر

يبدو وكأننا قد وجدنا البيضات أو أنها أهديت إلينا.

تقول كيت: «كان عليها أن تشتري ذلك الكعك طالما منحتك وعداً بذلك». يستطيع الرب أن يرى ما في القلب. وإن كانت إرادته أن يكون لبعض الناس آراء مختلفة عن غيرهم فيما يتعلق بالأمانة، فلست ممن يشكون في قضائه.

أقول: «أعتقد أنها لم تعد في حاجة إلى الكعك». كما أنه كان ناجحاً تماماً أيضاً.

اللحاف مشدود حتى ذقنها، رغم حرارة الجو، ولا يبدو منها سوى يديها ووجهها. إنها مسندة إلى الوسادة ورأسها مرفوعة بحيث تستطيع أن تنظر عبر النافذة، ونحن نستطيع أن نسمعه في كل مرة يتناول فيها القدوم أو المنشار. ولو كنا صمّاً لاستطعنا تقريباً أن نراقب وجهها وأن نسمعه[1] أن نراه. وجهها قد هزل إلى حد أن العظام تبرز من تحت البشرة في خطوط بيضاء، عيناها كشمعتين حين تراقبهما تذوبان نحو محجري شمعدانين حديديين. ولكن الخلاص والرحمة الأبديين والخالدين لا يبدوان عليها.

أقول: «لقد كان «الكيك » ناجحاً تماماً. ولكنه ليس كالذي اعتادت آدي أن تخبزه». يمكنك أن ترى غسيل وكيّ تلك الفتاة في غطاء الوسادة، هذا إن كان مكوياً على الإطلاق. وربما سيكشف لها هذا عن عماها، فها هي ذي ممددة هناك تحت رحمة وخدمة أربعة رجال وفتاة متشبهة بالصبيان. أقول: «لا توجد امرأة في هذا الإقليم يمكنها أن تخبز مثل أدي بندرن. ومن يدري فقد تنهض لتخبز ثانية وعندها لن نجد من يشتري ما نخبزه». تحت اللحاف لا يشكل

1 ـ أي كاش. (المترجم).

جسمها أي بروز أكبر من ذلك البروز الذي يمكن لقضيب سكة الحديد أن يشكّله، والأمر الوحيد الذي يجعلك تدرك أنها تتنفس هو صوت غطاء الفرشة. حتى الشعر الذي على خدها لا يتحرك، رغم تلك الفتاة الواقفة منحنية فوقها تروح بالمروحة. وبينما نراقب نحن تقوم هي بنقل المروحة إلى اليد الأخرى دون أن تتوقف عن الترويح.

تهمس كيت: «هل هي نائمة؟».

تقول الفتاة: «إنها لا تستطيع مراقبة كاش وهو هناك». نحن نستطيع سماع صوت المنشار ينشر اللوح. يبدو الصوت وكأنه شخير. تستدير «يولا» في جلستها فوق صندوق الثياب وتنظر عبر النافذة. تبدو قلادتها جميلة فعلاً مع قبعتها الحمراء تلك. لن تحسب أنها لم تكلّف سوى خمسة وعشرين سنتاً.

تقول كيت: «كان عليها أن تشتري ذلك الكعك.

كان يمكنني أن أستعمل ذلك المبلغ على نحو جيد. ولكن «الكيك» لم يكلفني شيئاً عدا خَبْزه. سأقول له إن أي شخص يمكن أن يرتكب خطأ ما، ولكن لا يستطيع الجميع الخلاص منه دون خسارة. يمكنني أن أقول له ذلك. لا يتاح للجميع أن يأكلوا أخطاءهم. يمكنني أن أقول له ذلك.

يدخل أحدهم عبر البهو. إنه «دارل». لا ينظر إلى الداخل لدى مروره عبر الباب. تراقبه يولا وهو يتابع السير ويبتعد عن الأنظار مرة أخرى نحو الخلف. ترتفع يدها وتلمس عقدها بخفة، ثم شعرها. وحين تراني أراقبها تصبح عيناها مشدوهتين دون معنى.

دارل

يجلس بابا و «فرنون» على الرواق الخلفي. بابا يخرج النشوق من حافة علبة نشوقه ويضعه على شفته السفلى ممسكاً بشفته ممطوطة بين إبهامه وسبابته. يلتفتان حين أعبر الرواق وأغمس اليقطينية في دلو الماء وأشرب.

يقول بابا: «أين جوويل؟» حين كنت صغيراً عرفت لأول مرة كيف أن الماء يكون ذا مذاق أفضل بكثير حين يُترك بعض الوقت في دلو مصنوع من خشب الأرز: يكون بارداً دافئاً بعض الشيء، وله مذاق خفيف أشبه برائحة ريح تموز (يوليو) الساخنة حين تهب بين أشجار الأرز. يجب تركه فترة ست ساعات على الأقل ثم يُشرب من يقطينة. لا يجب أن يشرب الماء من المعدن أبداً.

وفي الليل يكون الأمر أفضل حتى، لقد اعتدت أن أتمدد على حشية القش في القاعة، منتظراً حتى ينام الجميع ويعم الهدوء، فأنهض وأعود إلى الدلو. يكون الظلام مخيماً. والرف مظلماً، والسطح الساكن للماء فوهة مستديرة في العدم، حيث كنت أستطيع قبل تحريكه أن أرى نجمة

أو اثنتين في الماء، وربما نجمة أو نجمتين في الغرفة قبل أن أشرب. بعد ذلك أصبحت أكبر حجماً وسناً، وحينذاك كنت أنتظر حتى ينام الجميع حتى أستطيع أن أتمدد رافعاً ذيل قميصي إلى الأعلى، مصغياً إليهم نائمين، أحس بنفسي دون أن ألمسها، وأشعر بالصمت البارد يلفح أعضائي وأتساءل إن كان كاش القابع هناك في الظلام يفعل نفس ما أفعل، أو أنه كان يفعله طوال هذين العامين الأخيرين ربما، قبل أن أقدر على الرغبة بفعل ذلك أو أقدر عليه.

قدما بابا مفلطحتان بشدة، وأصابع قدميه متشابكة وملويّة ومشوّهة ولا وجود لأي ظفر على أصابع قدميه الصغيرة، وذاك من العمل المضني في الجو الماطر بحذاء من صنع البيت حين كان ما يزال صبياً . إلى جانب كرسيه يجلس مداسه، يبدو وكأنه قُدْ بفأس مثلومة من الحديد الخام. فرنون كان قد مضى إلى البلدة، لم يسبق لي أن رأيته يذهب إلى البلدة في الأفرول. إنها زوجته كما يقولون. كانت معلمة في المدرسة أيضاً.

أرمي بحثالة الماء المتبقية في المغرفة إلى الأرض وأمسح فمي بكمي. ستمطر قبل الصباح. ربما قبل الظلام، أقول: «هيا إلى الحظيرة. تطقيم الخيل».

هناك يعبث مع ذلك الحصان، سيخرج من الحظيرة إلى المرعى. لن يكون الحصان مرئياً: ها هو الآن بين شجيرات الصنوبر، في البرودة يصفّر جوويل، صفرة واحدة حادة. يصهل الحصان، فيراه جوويل يومض لبرهة مبهرجة بين الظلال الزرقاء. يصفر جوويل مرة أخرى، يتقدم الحصان هابطاً المنحدر بقوائم متيبسة، وأذناه تنتصبان وتنتفضان، وعيناه الزائغتان تتقلّبان، ويلحق به على بعد عشرين قدماً،

دفعة واحدة، ويراقب جوويل من فوق كتفه بمرح وحذر.

يقول جوويل: «تعال إليّ يا سيدي». يتحرك، يحرك جلده بذلك النزق، ينتفخ، الألسنة تدوّم كأنها ألسنة لهب عديدة. يندفع الحصان بطفرة أخرى قصيرة وعرفه وذيله يتماوجان وعيناه تتقلبان ثم يتوقف ثانية، قوائمه مضمومة وهو يراقب جوويل. يسير جوويل بثبات نحوه، ويداه إلى جانبيه. وباستثناء ساقي جوويل بدا هو والحصان كتمثالين منحوتين لأجل لوحة بدائية تحت الشمس.

وحين يقدر جوويل على لمسه تقريباً، يشبّ الحصان على قائمتيه الخلفيتين ثم ينقضّ على جوويل. ثم يصبح جوويل مطوَّقاً بشبكة لامعة من الحوافر. كأنما بوهم من أجنحة؛ وبينهما، وتحت الصدر المرتفع، كان جوويل يتحرك بالرشاقة البارقة التي للثعبان. ولبرهة، وقبل أن تصل النخعة إلى ذراعيه يرى جسده كله وقد تحرر من الأرض بوضع أفقي، ثم وهو يخفق بمرونة حتى يجد منخري الحصان ويلمس الأرض من جديد. ثم يجمدان، دون حراك، رائعين، والحصان قد اندفع بجسمه نحو الخلف وانتصب على قوائم متيبسة راجفة، ورأسه مدلاة. جوويل بعقبين مغروزين يصد تنفس الحصان بيد ويربت على عنقه بالأخرى ربتات قصيرة عديدة، يلاطفه ويشتمه بضراوة مقذعة.

يقفان في لقاء رائع صارم، الحصان يرتجف ويحمحم. ثم ها هو جوويل فوق ظهر الحصان. يتدفق نحو الأعلى في دوامة منحنية كضربة سوط، جسده في الهواء وقد اتخذ شكل الحصان. وللحظة أخرى يقف الحصان مفرشخاً ورأسه مطأطئة، قبل أن يندفع للحركة، يهبطان التل في سلسلة من القفزات اللاوية للعمود الفقري، جوويل

عالياً، كالعلقة فوق الحارك[1]، وحتى يصل الحاجز حيث يضم الحصان قوائمه من جديد فيتوقف في حركة أشبه بالعدو.

يقول جوويل: «حسناً، يمكنك أن تستريح الآن إن كنت تعبت».

داخل الحظيرة ينزلق جوويل نحو الأرض قبل أن يتوقف الحصان. يدخل الحصان إلى المربط وجوويل يلحق به. ودون أن ينظر إلى الخلف يرفسه الحصان، ضارباً حافراً واحداً على الجدار بصوت أشبه بطلقة مسدس. يرفسه جوويل في بطنه؛ يحني الحصان عنقه نحو الخلف، وقد أبرز أسنانه؛ يضربه جوويل على وجهه بقبضته ثم ينزلق نحو المعلف ويركبه. وبينما يتشبث بالمتبنة يخفض رأسه ويحدق عبر المربط وخلال الباب. الممر فارغ؛ من هناك لا يستطيع أن يسمع حتى صوت منشار كاش. يمد يديه وينزل التبن ملء ذراعيه بسرعة ويدفعه نحو المتبنة.

يقول: «كُلْ. لا تُبق شيئاً من هذا العَلَف طالما أتيحت لك الفرصة أيها النغل الجبان. يا ابن القحبة الجميل».

1 ـ الحارك: أعلى كاحل الفرس. (المترجم).

جوويل

ذلك لأنه يبقى هناك في الخارج، تحت النافذة تماماً، وهو يطرق وينشر ذلك الصندوق اللعين. هناك حيث تراه هي. هناك حيث كل نفس تتنشّقه مترع بطرقه ونشره حيث يمكنها أن تراه يقول هيا انظري، انظري كم هو جيد التابوت الذي أصنعه لك. لقد قلت له أن يذهب إلى مكان آخر. قلت له يا إلهي أتود أن تراها فيه؟ إن هذه لتشبه تلك الأيام حين كان صبيّاً صغيراً وقالت له إنه لو كان لديها بعض السماد لحاولت تربية بعض الأزهار، وأخذ هو مقلاة الخبز وأعادها من الحظيرة ملأى بالروث.

وها هم الآن أولئك الآخرون جالسون هناك كالجوارح. ينتظرون، يروّحون من الحر. نصحته ألا يستمر في النشر وطرق المسامير على التابوت بحيث لم نعد نستطيع النوم جيداً ويداها ممددتان على اللحاف كجذرين نبشا من الأرض وحاولْتَ غسلهما ولم تستطع أن تجعلهما نظيفين. أستطيع رؤية المروحة وذراع «ديووي ديل». نصحته أن يتركها بحالها. ها هو ينشر ويطرق وأنت تجعلين الهواء يتحرك باستمرار وبسرعة على وجهها بحيث أنك حين تتعبين لا

يمكنك أن تتنفسيه، وذلك القدوم اللعين تخف قوته مع كل ضربة، مع كل ضربة، مع كل ضربة حتى يضطر كل من يمر في تلك الطريق إلى التوقف ومشاهدة التابوت والتعليق على مهارته كنجار. لو كنت أنا من وقع من على تلك الكنيسة بدلاً عن كاش، ولو كنت أنا بدل بابا حين سقط عليه حمل الحطب، لما كان كل نغل في المقاطعة سيأتي ليحدق فيها (أي الأم[1]،) لأنه لو كان هناك رب فلماذا هو موجود؟ كان الأمر سيقتصر عليّ وعليها ونحن فوق تلة عالية وأنا أدحرج الصخور نحو وجوههم من أعلى الجبل ألتقط الحجارة وأرميها من أعلى الجبل، على وجوههم وأسنانهم وكل شيء بحق الله حتى تهدأ هي وليس ذلك القدوم اللعين الذي تخف قوته مع كل ضربة. مع كل ضربة ثم نستطيع أن ننعم بالهدوء.

1 ـ إضافة من المترجم (المترجم).

دارل

نراقبه يلتف من حول الزاوية ويصعد الدرج. لا ينظر إلينا. يقول: «أنتم جاهزون؟»

أقول: «إذا كنت جاهزاً» أقول: «انتظر». يتوقف، ناظراً إلى بابا. يبصق فرنون دون أن يتحرك . يبصق بدقة محتشمة ومتعمّدة في التراب المتبثّر تحت الرواق. يمسح بابا يديه ببطء على ركبتيه. إنه يحدق خارجاً إلى ما فوق قمة الجرف، خارجاً عبر الأرض. يراقبه جوويل للحظة، ثم يتابع سيره نحو الدلو ويشرب ثانية.

يقول بابا: «أكره التردد بقدر ما يكرهه أي رجل».

أقول: «هذا يعني ثلاثة دولارات». القميص فوق حدبة بابا أبهت لوناً من بقيتّه. لا بقع من العرق على قميصه. لم أرَ أبداً بقعة عرق على قميصه. مرض مرة من العمل تحت الشمس حين كان في الثانية والعشرين وهو يقول للناس أنه لو عرق مرة أخرى بعدها فسيموت. وأعتقد أنه يصدّق ذلك.

يقول: «ولكنها لو لم تبقَ حية حتى عودتكم فستشعر بالخيبة».

يبصق فرنون في التراب. ولكنها ستمطر قبل الصباح.

يقول بابا: «لقد اتكلت هي على ذلك. ستودّ أن تبدأ بالانطلاق فوراً. أعرفها. لقد وعدتها بإبقاء البغلين هنا وعلى استعداد. وهي تتّكل على ذلك».

أقول: «سنحتاج إلى تلك الدولارات الثلاثة بالتأكيد». يحدق خارجاً عبر الأرض ويمسح بيديه على ركبتيه. منذ أن فقد أسنانه أصبح فمه ينهار في تكرار بطيء حين يضع النشوق تحت لسانه. لحيته النامية تمنح نصف وجهه السفلي ذلك المظهر الذي للكلاب المسنّة.

أقول: «الأحرى بك أن تقرّر الآن حتى نستطيع الوصول إلى هناك ونحصل على حمل قبل الظلام».

يقول جوويل: «ليست ماما مريضة إلى ذلك الحد. اخرس يا دارل».

يقول فرنون: «هذا صحيح. تبدو اليوم وكأنها أفضل مما كانت عليه منذ أسبوع. وما أن تعود حتى تكون قد استعادت صحتها».

يقول جوويل: «لا بد أنكم تعرفون. لقد أمضيتم ما يكفي من الوقت هنا تنظرون إليها، سواء أنتم أو جماعتكم». ينظر إليه فرنون. تبدو عينا جوويل بلون الخشب الباهت. إنه أطول بمسافة تعادل رأساً كاملاً من أي منا، وكان دائماً كذلك. قلت لهم إن هذا هو السبب في أن ماما كانت تضربه دائماً وتدلله أكثر، لأنه كان يمكث في المنزل أكثر. ولذا أسمته «جوويل[1]». هكذا قلت لهم.

يقول بابا: «اخرس يا جوويل». ولكنه يبدو وكأنه لا

1 ـ jewel تعني بالانكليزية الجوهرة أو الدرة. (المترجم).

يصـغـي كثـيراً، يحـدق عـبر الأرض وهـو يمسـح علـى ركبـتيه.

أقول: «بامكانك أن تستعير بغليّ فرنون، وسنقدر على اللحاق بك إذا لم تنتظرنا هي».

يقول جوويل: «أغلق فمك اللعين».

يقول بابا: «إنها تريد الذهاب في عربتنا نحن». يمسح على ركبتيه ثم يقول: «لا يوجد رجل يكره هذا الأمر أكثر مني».

يقول جوويل: «إنها ترقد هناك تراقب كاش وهو ينجز ذلك... اللعين». يقول ذلك بقسوة، بوحشية، ولكنه لا يلفظ الكلمة. إنه أشبه بالصبي الصغير في الظلام الذي يحاول شحذ شجاعته ثم يفزع فجأة من ضجة صوته.

يقـول بـابـا: «لـقـد أرادتْ ذلك كـمـا أرادت الـذهـاب في عـربـتـنـا بالذات. ستشعر براحة أكبر إذا عرفت أنها عربة جيدة وخصوصية. كانت دائماً إمرأة تحب الخصوصيات، تعرفون ذلك جيداً».

يقول جوويل: «فلتكن خصوصية إذن. ولكن كيف تتوقع ذلك بحق الجحيم...» ينظر إلى مؤخرة رأس بابا وعيناه كعينين باهتتين خشبيتين.

يقول فرنون: «بالتأكيد، ستنتظر حتى ينتهي ذلك. ستنتظر حتى يجهز كل شيء. حتى يحين وقتها المناسب. ومع حالة الطرق الحالية فلن تستغرق الرحلة زمناً طويلاً إلى البلدة».

يقول بابا: «الغيوم تحتشد للمطر. أنا رجل قليل الحظ. وكنت كذلك دائماً». يمسح بيديه على ركبتيه. «إنه ذلك الطبيب اللعين، إذ أن من المحتمل قدومه في أية لحظة. لم أستطع إيصال الخبر إليه حتى

الآن. وإذا كان سيأتي غداً ويقول لها إن أجلها قد حان فلن تنتظر. أعرفها. بعربة أو بدون عربة، لن تنتظر. عندها ستشعر بالانزعاج وأنا غير مستعد لإزعاجها مقابل العالم كله. وبما أن مدفن العائلة في «جيفرسون» وأقرباؤها أولئك الذين ينتظرونها هناك، فستكون نافذة الصبر. لقد وعدتها وكذلك الأولاد بأن نوصلها إلى هناك بأقصى سرعة تستطيعها البغال، حتى تستطيع روحها أن تكون مطمئنة». يمسح بيديه على ركبتيه. «لا يوجد رجل يكره هذا الأمر أكثر مني».

يقول جوويل بذلك الصوت القاسي الجلف: «ما بال كل واحد منكم يتحرق لإيصالها إلى هناك!... وها هو كاش تحت النافذة تماماً يطرق وينشر طوال النهار ذلك...».

يقول بابا: «تلك كانت رغبتها. ليست لديك عاطفة أو رقّة تجاهها. لم يكن لديك مثل ذلك أبداً. لن نكون مدينين بالفضل لأي شخص. أنا وهي. ونحن لم نكن كذلك حتى الآن، وسترقد براحة أكبر لو عرفت هي ذلك وأن واحداً من أولادها ينشر ألواح الخشب تلك ويدق تلك المسامير. كانت من النوع الذي يحب العناية بنفسه».

أقول: «ذلك يعني ثلاثة دولارات. هل تريدنا أن نذهب أم لا؟» يمسح بابا ركبتيه. «سنعود غداً عند الغروب».

يقول بابا: «حسناً...» ينظر إلى الخارج عبر الأرض، شعره مموج، يمضغ النشوق بلثته ببطء.

يقول جوويل: «هيا». يهبط الدرج. يبصق فرنون بدقة في التراب.

يقول بابا: «عند الغروب. ولن أتركها تنتظر».

يحدق فيه جوويل كجواب، ثم يدور حول البيت. أدخل القاعة،

أسمع الأصوات قبل الوصول إلى الباب. منحدراً قليلاً مع انحدار التلة، وكما ينحدر منزلنا، يهبّ نسيم عبر القاعة في كل الأوقات، مائلاً نحو الأعلى. لو سقطت ريشة قرب الباب الأمامي لكانت ستصعد حتى تلامس السقف، ثم تنحدر نحو الخلف حتى تصل إلى التيار الملتفّ نازلاً عند الباب الخلفي: وهكذا الأصوات. وحين تدخل القاعة، تبدو الأصوات وكأنها تنطق من خلال الهواء المحيط برأسك.

كورا

كان ذلك أجمل ما رأيت. بدأ الأمر وكأنه يعرف أنه لن يراها مرة أخرى، وأن آنس بندرن كان يأخذه بعيداً عن فراش موت أمه، وأنه لن يراها مرة أخرى أبداً في هذا العالم. كنت أقول دائماً إن دارل مختلف عن الآخرين. ودائماً كنت أقول إنه الوحيد بينهم الذي ورث طباع أمه، ولا يتمتع بأية عاطفة طبيعية. ليس جوويل ذاك، وهو الابن الذي عانت الكثير في حمله والذي دلّلته وغنّجته إلى حد كبير، وها هو يصاب بنوبات غضب كثيرة أو نوبات كآبة، فكان يخترع أشياء شيطانية ليغيظها حتى أهدىء من حدة مزاجه مرات ومرات. ليس هو ذاك الذي سيأتي ليودعها. ليس هو ذاك الذي يضيّع فرصة لكسب ثلاثة دولارات إضافية لقاء ثمن هو قبلة وداع من أمه. إنه «بندرن» قلباً وقالباً، لا يحب أحداً ولا يهتم بأي شيء سوى كيفية الحصول على شيء ما بأقل جهد ممكن. يقول السيد «تل» إن دارل طلب منهم الانتظار. قال إن دارل كاد يرجوهم على ركبتيه ألا يجبروه على تركها وهي على تلك الحال. ولكن لا شيء كان يحول دون آنس وجوويل وبين تلك الدولارات الثلاثة. لا يمكن لمن يعرف آنس أن يتوقع أمراً مختلفاً منه، ولكن أن يفكر المرء في أمر

ذلك الفتى، جوويل ذاك، الذي باع كل تلك السنوات بثمن انكارها للذات ومحاباتها له: لا يمكنهم خداعي، فالسيد تل يقول إن السيدة بندرن كانت تحب جوويل أقل من جميع أولادها الآخرين، ولكني أعرف الحقيقة. أعرف أنها كانت تحابيه، تحابي تلك الصفة نفسها التي فيه والتي جعلتها تتحمل آنس بندرن حين قال السيد تل إنه كان عليها أن تسمّمه... ومقابل ثلاثة دولارات ينكر على أمه قبلة الوداع.

عجباً، ها أنذا طوال الأسابيع الثلاثة الأخيرة أحضر كل مرة أستطيع فيها ذلك، وأحضر أحياناً حين لا يتوجب عليّ ذلك، مهملة عائلتي وواجباتي حتى يكون شخص ما إلى جانبها في آخر لحظاتها وحتى لا تضطر إلى مواجهة «المجهول الأعظم» دون وجه مألوف يمنحها التشجيع. لا أعني أني أستحق منّة مقابل ما أفعله: فأنا أتوقّع أن أُعامل بالمثل لاحقاً. ولكني أحمد الله أنها ستكون وجوه أحبائي، أولادي من لحمي ودمي، فقد باركني الله في زوجي وأولادي على أفضل وجه، رغم أنه يمتحنني بهم أحياناً.

لقد عاشت كامرأة وحيدة، وحيدة مع كبريائها، تحاول أن تجعل الناس لا يعرفون ما يجري، وتخفي حقيقة أنهم كانوا يتحملونها، لأنها لم تكن قد بردت بعد في التابوت حتى حملوها مسافة أربعين ميلاً لدفنها، هازئين بإرادة الله، رافضين دفنها في التراب الذي يضم آل بندرن.

قال السيد تل: «ولكنها هي التي أرادت الرحيل. كانت رغبتها أن ترقد بين ذويها».

قلت: «لِمَ لَم تذهب إليهم وهي حية بعد؟ ما كان سيمنعها أحد منهم، ولا حتى ذلك الصغير الذي أصبح كبيراً الآن إلى حد يكون معه أنانياً ومتحجّر القلب أسوة ببقيتهم».

قال السيد تَلْ: «تلك كانت رغبتها هي. وقد سمعت «آنس» يقول إنها نطقت بذلك».

قلت: «وأنت تصدق «آنس» طبعاً. إن رجلاً مثلك يصدقه. لا تقل لي مثل ذلك».

قال السيد تَلْ: «أصدقه بأمر لا يستطيع كسب شيء مني لو لم يخبرني به».

قلت: «لست مقتنعة بهذا الكلام. إن مكان المرأة هو إلى جانب زوجها وأولادها، حية كانت أم ميتة. هل تتوقع مني أن أرغب بالعودة إلى «ألاباما» وأتركك أنت والبنات عندما يحين أواني، بعد أن جئت إلى هنا بإرادتي لأعيش معك على السرّاء والضرّاء حتى الموت وما بعده»؟

قال: «حسناً، الناس أجناس».

قلت: «آمل ذلك. لقد حاولت أن أعيش دون إغضاب الرب أو الناس، وذلك في سبيل شرف وراحة زوجي المسيحي وحب واحترام أولادي المسيحيين، حتى إذا ما رقدت أحتضر واعية بواجبي وجزائي، ستحيط بي وجوه محبّة وسأحمل قبلة الوداع من كل فرد من أحبائي وأضمّها إلى جزائي. ليس كآدي بندرن التي تموت وحيدة، كاتمة كبرياءها وقلبها المسحوق. إنها سعيدة بالرحيل. ها هي ترقد هناك ورأسها مسندة عالياً حتى تستطيع مراقبة كاش وهو يصنع النعش، ومضطرة لمراقبته حتى لا يتعجل فيه ربما، مع أولئك الرجال الآخرين الذين لا يشغلهم شيء عدا مسألة توفر الوقت الكافي لكسب ثلاثة دولارات أخرى قبل هطول المطر وارتفاع منسوب النهر بحيث يتعذر عبوره. وربما لو لم يقرروا تحميل ذلك الحمل الأخير، لكانوا قد حملوها في العربة على لحاف

وعبروا بها النهر أولاً ثم توقفوا ومنحوها الوقت لتموت ميتة مسيحية بقدر ما يسمحون به.

باستثناء دارل. لقد كان ذلك أجمل شيء رأيته. أفقد أحياناً الايمان بالطبيعة الإنسانية لفترة من الزمن، يهاجمني الشك. ولكن الرب يعيد إليّ إيماني دائماً ويكشف لي حبه الكبير لمخلوقاته. ليس جوويل، ذاك الذي أحبته دائماً، ليس هو. لقد راح هذا يطارد الدولارات الثلاثة الإضافية. كان ذاك هو دارل، الذي يقول عنه الناس إنه غريب الأطوار، كسول ومتسكع في أنحاء المكان، ليس أفضل من آنس، وكاش نجار جيد وينتج أكثر مما يستطيع بيعه، وجوويل يقوم بعمل ما يكسبه بعض المال أو يجعله موضوعاً للأحاديث، وتلك الفتاة العارية تقريباً الواقفة دائماً فوق آدي تروّح لها بالمروحة حتى إذا ما حاول أي شخص أن يتحدث إليها ويدخل بعض السلوان إلى قلبها كانت تجيب عنها فوراً وكأنها تريد إبعاد الجميع عنها.

كان ذلك هو دارل. لقد جاء إلى الباب ووقف هناك ناظراً إلى أمه المحتضرة. نظر إليها فحسب، وشعرت من جديد بالحب الكبير الذي للرب وشعرت برحمته. ورأيت أنها كانت تتظاهر فحسب مع جوويل، وأن التفاهم والحب الصادق كان بينها وبين دارل. نظر إليها فحسب، حتى دون أن يدخل إلى حيث يمكن أن تراه وتنزعج، عالمة بأن «آنس» كان سيقوده إلى مكان بعيد وأنه لن يراها ثانية. لم يقل شيئاً، كان ينظر إليها فحسب.

قالت ديووي ديل دون أن توقف المروحة وبصوت عالٍ لتدفعه حتى هو بعيداً عنها: «ماذا تريد يا دارل؟» لم يجب. بل وقف هناك ونظر إلى أمه المحتضرة، وقلبه متخم إلى حد لم يعد معه للكلمات مكان.

ديووي ديل

كانت المرة الأولى التي قطفنا فيها أنا و «ليف» على امتداد صفّ النباتات. بابا لا يعرق لأنه سيموت من ذلك المرض لذا يأتي الجميع لمساعدتنا. وجوويل لا يهتم بأي شيء حتى أنه لا يبدي الكثير من الاهتمام، ليس من النوع الذي يهتم بالأقرباء. وكاش يحب أن ينشر طوال الأيام الطويلة الحادة الحزينة الصفراء ألواحاً ثم يسمّرها محوّلاً إياها إلى شيء ما. وبابا يظن أن الجيران سيعامل واحدهم الآخر بتلك الطريقة دائماً لأنه كان دوماً مشغولاً إلى حد لا يترك معه للجيران الفرصة كي يفعلوا من أجله ما يجعله يكتشف حقيقتهم. وما كنت أظن أن دارل سيفعل ذلك، وهو ذاك الجالس إلى طاولة العشاء وعيناه قد رحلتا إلى ما هو أبعد من الطعام، مليئتان بالأرض المنبوشة من جمجمته والثقوب مليئة بمسافة أبعد من الأرض.

قطفنا على امتداد الصف، والغابة تصبح أقرب فأقرب وكذلك المأوى السري، نقطف في المأوى السري بكيسي وكيس «ليف». لأني قلت هل سأفعل أم لا حين كان الكيس نصف ممتلىء لأني قلت إن كان الكيس ممتلئاً حين نصل إلى الغابة لن تكون تلك أنا. قلت إن كنت لا

أود أن أفعلها لن يكون الكيس مليئاً وسأبدأ بالصف التالي ولكن إن كان الكيس مليئاً فلا أستطيع المقاومة. سيعني ذلك أني مضطرة لأن أفعل ذلك كل الوقت ولا أستطيع المقاومة... ثم قطفنا باتجاه المأوى السري وعيوننا تغرق معاً وتلامس يديه ويديّ ولم أقل شيئاً. قلت: «ما الذي تفعله؟» وقال: «أنا أقطف وأضع في كيسك». وهكذا كان ممتلئاً حين وصلنا إلى نهاية الصف ولم أستطع المقاومة.

وهكذا حدث ما حدث لأني لم أستطع المقاومة. حينها وحينها بالذات رأيت دارل وعرف هو . قال إنه يعرف دون أن يتلفّظ بكلام كما حدث حين قال لي أن ماما ستموت دون كلام. وأنا عرفت أنه كان يعرف لأنه لو قال إنه يعرف بالكلام لما كنت صدقت أنه كان هناك ورآنا. ولكنه قال إنه لا يعرف وقلت أنا: «هل ستقول لبابا، هل تريد أن تقتله؟» وبدون كلام قلت ذلك وقال: «لماذا؟» دون كلام. ولهذا أستطيع التحدث معه بمعرفة وحقد لأنه يعرف.

يقف عند الباب ناظراً إليها.

أقول: «ماذا تريد يا دارل؟».

يقول: «ستموت». و «تَل» النسر العجوز آت ليراقبها وهي تموت ولكني أستطيع خداعهم.

أقول: «متى ستموت؟».

يقول: «قبل أن نعود».

أقول: «لماذا تأخذ جوويل إذن؟».

يقول: «أريده أن يساعدني في التحميل».

تـــلْ

يظل آنس يفرك ركبتيه. «أوفروله» باهت اللون، على إحدى ركبتيه رقعة من النسيج الصوفي المتين مقصوصة من بنطال يوم الأحد اهترأ من كثرة الكي. يقول: «لا أحد يكره ذلك أكثر مني..».

أقول: «على المرء أن يتنبأ قدماً أحياناً، ولكن مهما تكن النتيجة لن يكون هناك من سوء في الحالين».

يقول: «تريد هي أن ننطلق بها فوراً. المسافة بعيدة إلى جيفرسون على أية حال».

أقول: «ولكن الطرق جيدة الآن». الجو ينذر بالمطر الليلة أيضاً. عائلته تدفن موتاها في «نيوهوب» أيضاً وهي لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال عن هنا. ولكن هذا هو دأبه، أي أن يتزوج من امرأة ولدت في مكان يبعد مسيرة يوم كامل عن هنا وأن يتركها تموت لديه.

ينظر إلى الخارج باتجاه الأرض فاركاً ركبتيه: «لا أحد يكره الأمر بقدر ما أكرهه».

أقول: «سيعودون في الوقت المناسب. لو كنتُ مكانك لما قلقت».

يقول: «يعني ذلك ثلاثة دولارات».

أقول: «ربما لا حاجة بهم إلى الاستعجال بالعودة على أية حال. آمل ذلك».

يقول: «إنها راحلة. لقد قررت ذلك». إنها لحياة صعبة على النساء وهذه حقيقة. نساء رائعات. أتذكر أمي التي عاشت حتى السبعين بل إلى ما بعد السبعين. كانت تعمل كل يوم، مطيراً كان أم مشمساً، لم تمرض أبداً منذ ولد آخر أولادها. إلى أن جاء يوم نظرت فيه من حولها ثم ذهبت وأخرجت من الخزانة قميص نومها المخرّم الأطراف والذي كان لديها منذ خمسة وأربعين عاماً ولم تلبسه قط، وارتدته ثم تمددت في الفراش وغطت نفسها بالأغطية وأغمضت عينيها وقالت: «عليكم جميعاً أن تفتّشوا عن بابا باذلين قصارى جهدكم. أنا متعبة».

يفرك آنس بيديه على ركبتيه. يقول: «الرب يمنح». نستطيع سماع كاش وهو يطرق بمطرقته وينشر خلف الزاوية.

صحيح. لم ينطق أحد بعبارة أصدق من ذلك. أقول: «الرب يمنح».

يصعد ذلك الشاب التل. يحمل سمكة طويلة تقارب طوله هو. يرمي بها إلى الأرض وينخر: «هاه» ويبصق من فوق كتفه كرجل. اللعنة إنها بطوله تقريباً.

أقول: «ما تلك؟ سمكة خنزير؟ من أين حصلت عليها؟».

يقول: «هناك عند الجسر». يقلبها. الجانب السفلي منها قد تعفر بالتراب حيث هي مبلولة، والعين مغطاة، محدبة تحت التراب.

يقول آنس: «هل تهدف إلى تركها مرمية هناك؟».

يقول فاردامان: «أريد أن أريها لماما». ينظر نحو الباب. نستطيع سماع الحديث خارجاً مع تيّار الهواء. وكذلك نسمع كاش الذي يطرق ويضرب الألواح.

يقول: «هناك صحبة في المنزل».

أقول: «عائلتي فحسب. سيستمتعون هم أيضاً برؤيتها». لا يقول شيئاً بينما يراقب الباب. ثم ينظر نحو السمكة المتمددة في التراب. يقلبها بقدمه وينخس نتوء العين بإصبع قدمه، يحاول قلعها، ينظر آنس خارجاً نحو الأرض. ينظر فاردامان إلى وجه آنس. ثم إلى الباب: يستدير ويتجه نحو زاوية المنزل بينما يناديه آنس دون أن يلتفت.

يقول آنس: «نظف تلك السمكة».

يقول فاردامان: «نعم يا بابا».

يقول آنس: «نظفها». لا يلتفت. يعود فاردامان ويرفع السمكة. تنزلق من بين يديه ملوثة إياه بالتراب، ثم تقع على الأرض ممرِّغة نفسها بالتراب من جديد، بفم مفتوح وعينين جاحظتين، تختبىء في التراب كأنها خجلى من الموت، كأنها في عجلة من أمرها للعودة والاختباء من جديد. يشتمها فاردامان. يشتمها كرجل ناضج وهو واقف مفرشخاً فوقها. لا يلتفت آنس. يرفعها فاردامان من جديد. ثم يدور حول المنزل حاملاً إياها بين ذراعيه كأنها حمل من الحطب وهي تتدلى من الجانبين، برأسها وبذيلها. اللعنة أنها بحجمه تقريباً.

تتدلى رسغا آنس من كميه: لم أره يرتدي قميصاً يبدو كأنه له طوال حياتي. كلها كانت تبدو وكأنها قمصان جوويل القديمة. ولا حتى جوويل مع ذلك. إنه طويل الذراعين وإن كان نحيلاً. إلا إذا كانت آثار

التعرق قليلة عندها تستطيع أن تعرف أنها ليست لأي شخص آخر سوى آنس نفسه دون أن تقع في الخطأ. تبدو عيناه كقطعتي جمر محترقتين مثبتتين في وجهه ناظرتين خارجاً عبر الأرض.

حين يلمس الظل الدرج يقول: «الساعة هي الخامسة».

حين أنهض تصل كورا إلى الباب وتقول إنه حان وقت الركوب. يمد آنس يده إلى حذائه. تقول كورا «الآن يا سيد بندرن. ألن تنهض الآن؟» يرتدي حذاءه وهو يدوس الأرض بقوة، كما يفعل كل شيء، كأنما هو يأمل طوال الوقت بأنه لا يستطيع بالفعل أن يؤدي ما عليه وأن يتوقف عن المحاولة. حين نسير في البهو نسمع صوت حذائه وهو يمشي بتثاقل فوق الأرضية كأنه يرتدي حذاءً حديدياً، يصل إلى باب غرفتها وهو يرمش بعينيه، كأنه يتنبأ بما سيرى قبل أن يراه، كأنه يأمل في أن يجدها وقد نهضت، جالسة في كرسي أو تمسح الأرض ربما، ثم ينظر من خلال الباب بتلك الطريقة التي تدل على الدهشة ويجد أنها ما تزال في الفراش كل مرة وأن ديووي ديل تزال تروّح لها بالمروحة. يقف هناك وكأنه لا ينوي أن يتحرك ثانية ولا أن يفعل أي شيء آخر.

تقول كورا: «حسناً، أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب فعلي أن أطعم الدجاجات». الجو ينذر بالمطر أيضاً. مثل تلك الغيمات لا تكذب والقطن ينمو مع كل يوم يرسل الرب فيه المطر. سيكون ذلك شيئاً مختلفاً بالنسبة إليه. لا زال كاش يعمل في الألواح صقلاً. تقول كورا: «أتمنى لو كان هناك أي شيء نستطيع أن نفعله».

أقول: «سيعلمنا آنس به في حينه».

لا ينظر آنس إلينا. إنه ينظر فيما حوله ويرمش بعينيه بتلك الطريقة التي تدل على الدهشة، وكأنه قد أنهك نفسه من الدهشة وكان مندهشاً حتى

من ذلك. لو أن كاش يعمل بكل ذلك الحرص عندما يأتي للعمل في حظيرتي.

أقول: «لقد قلت لآنس إنه لن يكون هناك داعٍ لذلك التابوت على الأرجح».

يقول: «لقد صممتْ على ذلك. أعتقد أنها قد عقدت عزمها على الرحيل».

تقول كورا: «هذا يحزننا جميعاً. فليكن الرب إلى جانبك يواسيك».

أقول: «بالنسبة للذرة». ثم أحكي له مرة أخرى أني سأساعده إذا ما أحس بضيق، حيث أنها مريضة وبقية الأمور على ما هي عليه. وكمعظم الناس هنا، لقد سبق وساعدته كثيراً إلى حد أني لا أستطيع التراجع الآن.

يقول: «لقد أردت الشروع بذلك هذا اليوم. ولا يبدو أني أستطيع التصميم على أي شيء».

أقول: «ربما ستصمد حتى تنتهي».

يقول: «انشاء الله».

تقول كورا: «ليكن الله في عونك».

لو أن كاش يعمل فحسب بكل تلك العناية عندما يأتي للعمل في حظيرتي. يرفع عينيه لينظر إلينا ونحن نمر به ويقول: «لا تحسبن أني سأعود إليك هذا الاسبوع».

أقول: «لا داع للعجلة. تعال حين تكون جاهزاً».

نصعد إلى العربة. تضع كورا علبة «الكيك » على حضنها. لا شك أنها ستمطر. بكل تأكيد.

تقول كورا: «لا أعرف ما الذي سيفعله. لا أعرف».

أقول: «يا لآنس المسكين. لقد جعلته يعمل ثلاثين عاماً. أعتقد أنها مُتْعَبَة».

تقول كيت: «وأعتقد أنها ستطارده ثلاثين عاماً أخرى. أو إن لم تكن هي فسيتزوج بأخرى قبل جني القطن».

تقول يولا: «أعتقد أن كاش ودارل يستطيعان الزواج الآن».

تقول كورا: «يا للولد المسكين. يا للطفل المسكين الصغير».

تقول كيت: «وماذا عن جوويل؟»

تقول يولا: «يستطيع هو أيضاً».

تقول كيت: «هه، أعتقد أنه سيفعل. أعتقد ذلك. أعتقد أن هناك أكثر من بنت واحدة في هذه الأنحاء لا تريد أن ترى جوويل وقد أصبح مرتبطاً بزواج. حسناً! ليس عليهن أن يقلقن».

تقول كورا: «عجباً يا كيت!».

تبدأ العربة بالجلجلة. تقول كورا: «ياللطفل المسكين الصغير».

الجو ينذر بالمطر الليلة. نعم يا سيدي. عربة مجلجلة تدل على طقس شديد الجفاف بالنسبة لشخص من آل «بيروسل». ولكن سيتم علاج ذلك. وهذه حقيقة.

تقول كيت: «كان عليها أن تشتري تلك الكعكات بعد أن تعهدت بذلك».

آنس

اللعنة على تلك الطريق. والجو ينذر بالمطر أيضاً. أستطيع أن أقف هنا وأرى الأمر بالبصيرة، أراه ينغلق خلفهم كجدار، ينغلق ما بينهم وبين وعدي الذي أعطيت. أبذل قصارى جهدي، بقدر ما يستطيع ذهني التركيز على أي شيء، ولكن اللعنة عليهم أولئك الأولاد.

إنها تمتد هناك، حتى بابي تماماً، حتى يكون على كل ذي حظ عاثر يأتي ويروح أن يجدها. لقد قلت لآدي إنه ليس من حسن الحظ أن نعيش على طريق تمر من هنا، وقالت كامرأة حقيقية فعلاً: «انهض وتحرك إذن». ولكني قلت لها إنه ليس من الحظ في شيء أن نعيش على الطريق حيث أن الرب جعل الطرق للسفر: عجباً لقد جعلها منبسطة على الأرض. حين يهدف الرب إلى شيء يكون ذا حركة دائمة، فإنه يجعله طويلاً، كالطريق أو الحصان أو العربة، ولكنه حين يهدف إلى شيء مستقر، يجعله على نحو له عال وسافل كالشجرة أو الرجل. وهكذا لم يهدف الرب أبداً إلى أن يجعل الناس تعيش على الطريق، لأنه من الذي يصل إلى هناك أولاً، الطريق أم المنزل؟ هل سبق لك وسمعت أنه يضع طريقاً قرب منزل؟ هكذا أقول. ثم أقول لا، لم

تسمعي بذلك أبداً لأن الرجال لا يستطيعون أن يرتاحوا حتى يبنوا المنزل حيث يستطيع كل من يمر في عربة أن يبصق على مدخله، جاعلاً أصحابه قلقين وراغبين في النهوض للذهاب إلى أماكن شتى أخرى في حين كان الرب يهدف إلى أن يبقيهم مستقرين كالشجرة أو مجموعة من نباتات الذرة. لأن لو كان يهدف إلى أن يكون الإنسان دائم الحركة والإنتقال والذهاب إلى أماكن شتى أخرى، أما كان سيخلقه على نحو متطاول يدبّ على بطنه كالحية؟ العقل يقول إنه كان سيفعل ذلك.

لقد وضعه حيث يستطيع كل ذي حظ عاثر متجول أن يجده ويأتي مباشرة إلى بابي ومطالباً إياي بالضريبة فوق ذلك كله. يجعلني أدفع لكاش حيث انتابته هواجس التجارة تلك. ولولا وجود الطريق لما كانت ستنتابه تلك؛ وها هو يسقط من فوق سقوف الكنائس ولا يستطيع أن يرفع يداً في ستة أشهر أنا وآدي نعمل ونكدح كالعبيد، رغم أن هناك الكثير من النشر في البيت كان يستطيع أن ينجزه لو كان مضطراً إلى النشر.

ودارل أيضاً. يحاولون أن يصالحوني معه اللعنة عليهم. ليس الأمر أني خائف من العمل، لقد أقمت أَوَد نفسي وعائلتي دوماً وكان لنا مأوى باستمرار: ولكن الأمر هو أنهم يريدون كفّ يدي لأنه يميل إلى عمله الخاص به، وذلك فحسب لأنه يضع الأرض نصب عينيه كل الوقت. أقول لهم إنه كان جيداً في البداية وقد وضع الأرض نصب عينيه لأن الأرض كانت تعطي يوماً وتبخل آخر آنذاك. ولم يحدث أن بدأوا يهددونني من خلاله محاولين كف يدي بواسطة القانون إلا بعد أن جاءت تلك الطريق وحوّلت الأرض طولياً وعيناه لا زالتا نصب الأرض.

يجعلونني أدفع لقاء ذلك. كانت صحيحة معافاة كما هي أيٌّ امرأة، لولا تلك الطريق. ها هي تتمدّد فحسب، ترتاح في فراشها، ولا تطلب شيئاً من أحد. قلت: «هل أنتِ مريضة يا آدي؟».

قالت: «لست مريضة».

قلت: «تمددي واستريحي. لقد عرفت أنك لست مريضة. أنتِ متعبة فحسب. تمددي واستريحي».

قالت: «لست مريضة. سأنهض».

قلت: «لا تتحركي وارتاحي. أنتِ متعبة فحسب. يمكنك النهوض غدا». وكانت تتمدد هناك، بصحة وعافية كما هي أي إمرأة، لولا تلك الطريق.

قلت: «لم أرسل خلفك. أريدك أن تشهد أني لم أرسل خلفك».

قال بيبودي: «أعرف ذلك. أنا ملتزم بذلك. أين هي؟».

قلت: «إنها تتمدد في فراشها. إنها متعبة قليلاً فحسب ولكنها سوف...».

قال: «اخرج من هنا يا آنس. اذهب واجلس في الرواق بعض الوقت».

والآن عليّ أن أدفع ثمن ذلك، أنا الذي ليس في فمي سن واحد، وآمل أن تتحسن الأحوال حتى أستطيع أن أجد حلاً لذلك وأقدر على تناول ما وهبه الرب من مأكولات كما هي حال الرجال، وهي في صحة وعافية مثلما هي أية إمرأة في البلد حتى جاء ذلك اليوم. عليّ أن أدفع الثمن لأني أرسلت الأولاد في تلك الرحلة البعيدة للحصول على

الدولارات. والآن أستطيع أن أرى وكأن لي بصراً ثانياً المطر وهو يفصل بيننا، صعوداً في ذلك الطريق كرجل ملعون، وكأنه ليس هناك منزل آخر يمكن للمطر أن ينزل عليه في كل الأراضي المسكونة..

لقد سمعت رجالاً يلعنون حظوظهم، وهم على حق، فقد كانوا آثمين ،ولكني لا أقول أنها لعنة حلّت عليّ، لأني لم أرتكب أي إثم ألعن عليه. لست متديناً على ما أظن. ولكن السلام قد حل في قلبي: أعرف ذلك. لقد ارتكبت أموراً ولكن لا أفضل ولا أسوأ من أولئك الذين يتظاهرون بأنهم لم يرتكبوا شيئاً، وأعرف أن الربّ سيعتني بي كما قد يعتني بأي سنونوة قد تسقط. ولكن يبدو صعباً أن رجلاً في ورطة يمكن أن تهزأ به طريق إلى هذا الحد.

يدور فاردامان حول المنزل دامياً كالخنزير حتى ركبتيه، وتلك السمكة قد قطعت الآن بالفأس ربما، أو ربما لم يعرف كيف يتدبّر أمرها وسيكذب قائلاً إن الكلاب أكلتها. حسناً، أعتقد أن عليّ ألا أتوقع منه أكثر مما أتوقع من إخوته الذين أصبحوا رجالاً. ها هو يأتي، ناظراً إلى المنزل بهدوء ويجلس على الدرج. يقول: «وي. أنا متعب جدا».

أقول: «اذهب واغسل يديك. ولكن ما كانت أية امرأة لتحاول أكثر من آدي أن تجعلهم يسيرون في الطريق الصحيح، الصغار منهم والكبار: أشهد على هذا في صالحها.

يقول: «لقد كانت مليئة بالدم والأحشاء كخنزير». ولكني لم أكن في المزاج المناسب لأي شيء، وهذا الطقس يوهنني أيضاً. يقول: «بابا، هل ماما مريضة أكثر؟».

أقول: «اذهب واغسل يديك هاتين». ولكني لم أستطع أن أقولها بقوة.

دارل

كان في المدينة هذا الأسبوع: مؤخرة عنقه مقصوص شعرها جيداً مع خط أبيض بين الشعر والرقبة التي لفعتها الشمس أشبه بمفصل من عظم أبيض. لم ينظر إلى الخلف ولا مرة واحدة.

أقول: «يا جوويل». يعدو نحو الخلف وقد انحصر بين مجموعتين من آذان البغال المهتزة، ها هي الطريق تختفي تحت العربة كأنها شريط والمحور الأمامي كالمكبّ «هل تعرف أنها ستموت يا جوويل؟».

لا بد من شخصين حتى يخلق المرء وشخص واحد حتى يموت. بهذه الطريقة سينتهي العالم.

أقول لديووي ديل: «تريدينها أن تموت حتى تذهبي إلى المدينة: أليس كذلك؟» ولكنها لن تقول ما كنا نعرفه كلانا. «السبب في أنك لن تقوليه هو أنك حين تقولينه، حتى لنفسك، فستعرفين أنه صحيح: أليس كذلك؟ ولكنك تعرفين الآن أنه صحيح. أستطيع حتى أن أخبرك عن اليوم الذي عرفت به تقريباً أن الأمر صحيح. لماذا لا تقولينه، حتى لنفسك؟» لن تقوله. ستستمر قائلة هل ستقول لبابا؟ هل

تريد قتله؟ «لا يمكنك أن تصدقي أنه صحيح لأنك لا تستطيعين أن تصدقي أن ديووي ديل، ديووي ديل بندرن يمكن أن تكون سيئة الحظ إلى تلك الدرجة: أليس كذلك؟».

كانت الشمس التي علت الأفق منذ ساعة قد توازنت كبيضة دموية فوق هلال من سحابة قزعية؛ استحال النور إلى نحاس: في العين هائل وفي الأنف كبريتي له رائحة البرق. حين يأتي بيبودي فسوف يضطرون إلى استعمال الحبل. لقد جعل نفسه بديناً من أكل الخضار الباردة. وبالحبل سيرفعونه فوق الممر مثل البالون عالياً في الجو الكبريتي.

أقول: «يا جوويل، هل تعرف أن آدي بندرن ستموت؟ آدي بندرن ستموت؟».

ببيودي

حين أرسل آنس في طلبي أخيراً، ومن تلقاء ذاته، قلت: «لقد أنهكها في النهاية»، ثم شتمت ورفضت الذهاب في البداية لأنه قد يكون هناك ما أستطيع فعله وسأضطر إلى ان أنقلها عائداً بالعربة، وحق الله. فكرت في أنهم في الجنة هناك قد يحملون ذلك النوع نفسه من المفاهيم الأخلاقية الحمقاء التي نجدها في «كلية الطب»، وربما كان «فرنون تل» هو الذي أرسل يطلبني من جديد، حتى أصل في اللحظة النهائية الحرجة، كما هو دأب فرنون، بحيث ينال أقصى ما يمكن الحصول عليه لقاء نقود آنس، كما هي الحال إن كان الأمر يتعلق بنقوده هو أيضاً. ولكن حين مضى من النهار ما كفاني لأعرف ماهية الطقس أدركت أن من أرسل يطلبني لم يكن سوى آنس بالتحديد. عرفت أنه لا يمكن سوى لشخص قليل الحظ أن يحتاج إلى طبيب في مواجهة الإعصار. وعرفت أنه لو خطر لآنس أخيراً أن الحاجة تدعو إلى طبيب، فلا شك أن ذلك سيأتي متأخراً جداً على أية حال.

حين وصلت إلى النبع ونزلت وربطت البغلين، كانت الشمس قد غربت خلف غيمة سوداء أشبه بسلسلة جبلية ثقيلة الرأس، كحمل من

الجمر ألقي هناك، ولا ريح هناك. استطعت أن أسمع كاش وهو ينشر الخشب وذلك قبل ميل من وصولي إلى هناك. آنس واقف فوق قمة الجرف المطل على المجاز.

أقول: «أين الحصان؟».

يقول: «لقد أخذه جوويل ورحل به. لا يستطيع أي شخص آخر أن يلمسه. سيكون عليك أن تتسلق على ما أظن».

أقول: «أنا أتسلق؟ بكل المئتين والخمسة والعشرين باونداً التي أحملها؟»

يقول: «اصعد إلى ذلك الجدار المحروق». يقف هناك قرب شجرة. من سوء الحظ أن يرتكب الله خطأ منح الأشجار جذوراً ومنح أمثال آنس بندرن، ممن يخلقهم، أقداماً وسيقاناً. لو أنه يقضي عليهم لما كان هناك أبداً داعٍ للقلق من أن هذه البلاد ستتجرد من غاباتها ذات يوم. أو أية بلاد أخرى.

أقول: «ما الذي تنوي أن تجعلني أفعله؟ هل تريد منّي البقاء هنا حتى أطير بعيداً عن كل هذه المقاطعة حين تهبّ تلك العاصفة؟» حتى مع الحصان كان الأمر سيتطلب خمس عشرة دقيقة للصعود عبر ذلك المرعى إلى أعلى السلسلة والوصول إلى البيت. يبدو المجاز كعضو ملتو رمي فوق الجرف. لم يأتِ آنس إلى المدينة منذ اثنتي عشرة سنة. وكيف استطاعت أمه يا ترى الصعود إلى هناك لتحمل به، إنه ابن أمه بالتأكيد.

يقول: «فاردامان يقوم باحضار الحبل».

يظهر فاردامان بعد قليل مع حبل المحراث. يعطي طرفه إلى آنس ويهبط المجاز وهو يحلّه.

أقول: «أمسك به جيداً. لقد سبق لي وسجلت هذه العيادة في

سجلاتي، لذلك سأطالبك بأجرتها سواء وصلت إلى هناك أم لم أصل».

يقول آنس: «أنا ممسك به جيداً. بإمكانك الصعود الآن».

فلأُلْعَنْ إن كنت أدرك السبب في عدم تقاعدي حتى الآن. رجل في السبعين من عمره ويزن مئتين ونيفاً من الباوندات. يُعَلَّق من حبل على جبل لعين. أعتقد أن السبب هو أن عليّ الوصول إلى علامة الخمسين ألف دولار من الحسابات الكاسدة قبل أن أتقاعد.

أقول: «ما الذي تعنيه زوجتك بحق الجحيم بوقوعها فريسة المرض فوق قمة جبل لعين؟».

يقول: «آسف جدا». يترك الحبل، يدعه يسقط ثم يستدير متجهاً نحو المنزل. لا زال هناك بقية من ضوء النهار، بلون أعواد الكبريت. تبدو الألواح الخشبية كأنها قطع طويلة من الكبريت. لا يبادلنا كاش النظر. يقول فرنون تلْ إنه يحضر كل لوح إلى القرب من النافذة حتى تراه هي وتعطيه موافقتها. يلحق الصبي بنا. يلتفت إليه آنس ويقول: «أين الحبل؟».

أقول: «حيث تركته، ولكن لا عليك من ذاك الحبل. عليّ أن أعود لأهبط ذلك الجرف. لا أنوي أن تدركني تلك العاصفة وأنا هنا في الأعالي. ستطيّرني بعيداً إذا ما حدث وأدركتني».

الفتاة واقفة عند السرير تروِّح لها. حين ندخل.تلتفت برأسها وتنظر إلينا. إنها ميتة منذ عشرة أيام. أعتقد أن السبب في عدم تمكنها حتى من صنع التغيير هو كونها أصبحت جزءاً من آنس هذه المدة الطويلة. إن كان ذلك تغييراً على أية حال. أتذكر أني كنت في شبابي

أعتقد بأن الموت ظاهرة تتعلق بالجسد. والآن أعرف أنه مجرد وظيفة من وظائف الدماغ، أدمغة المفجوعين بالميت. يقول العدميّون إنه النهاية، أما أتباع مذهب العصمة الحرفية للكتاب المقدس فيقولون إنه البداية، بينما هو في الواقع أمر لا يزيد عن انتقال ساكن واحد أو عائلة من منزل أو مدينة.

تنظر إلينا. لا يبدو أن فيها ما يتحرك سوى عينيها. تبدوان وكأنهما تلمساننا، ليس بالبصر أو الحس، بل كما قد يلمسك تيار متدفق من خرطوم، تيار في لحظة الصدمة ومنقطع عن فوهة الخرطوم كأنما لم يكن هناك أبداً. لا تنظر هي إلى آنس إطلاقاً. تنظر إليّ، ثم إلى الصبي. تحت اللحاف لا تبدو أكثر من مجرد حزمة من القضبان العفنة.

أقول: «حسناً يا سيدة آدي». لا توقف الفتاة الترويح.

أقول: «كيف أنتِ يا أختي؟» رأسها هزيل فوق الوسادة، ينظر إلى الصبي.

أقول: «لقد اخترت وقتاً مناسباً لإحضاري إلى هنا وإحضار عاصفة بعد ذلك». ثم أطلب من آنس والصبي الخروج. تراقب هي الصبي وهو يغادر الغرفة. لم تحرك شيئاً سوى عينيها.

حين أخرج أراه مع آنس على الرواق، الصبي جالس على الدرج، وآنس يقف بالقرب من عمود، دون أن يستند عليه حتى، وذراعاه مدلاّتان، وشعره مضغوط وممهَّد فوق رأسه كأنه ديك غطس في الماء. يدير رأسه وهو يرمش باتجاهي.

أقول: «لماذا لم ترسل في طلبي قبل الآن؟».

يقول: «بدأ الأمر على نحو ما ثم تحوّل باتجاه آخر. وهذا ممّا جعلني

أتردّد كما أن الأولاد كانوا يزمعون إنهاء عملهم بسرعة، كما وأن ديووي ديل تعتني بها جيداً، ويأتي بعض الناس لتقديم المساعدة وغيره، إلى حين أن ظننت أنه...».

أقول: «اللعنة على النقود. هل سبق لك وسمعت أني طالبت شخصاً قبل أن يكون مستعداً للدفع؟».

يقول: «لست ضنيناً بالمال، بل كنت أتأمل وباستمرار... ستموت أليس كذلك؟» الشخص اللعين الصغير الحجم الغريب الأطوار يجلس فوق الدرجة العليا، ويبدو أصغر حجماً من أي وقت مضى في النور ذي اللون الكبريتي. هذه هي مشكلة هذا البلد: كل شيء فيه، الطقس، كل شيء، يستمر لفترة طويلة. كأنهارنا، كأرضنا: كمْداء، بطيئة، عنيفة، مشكلة وخالقة حياة الإنسان في صورتها العنيدة الكئيبة.

يقول آنس: «لقد عرفت ذلك. لقد عرفت ذلك طوال الوقت. عقلها مصمّم على ذلك».

أقول: «وهو شيء لعين جداً أيضاً. مع بعض...» يجلس فوق الدرجة العليا، ضئيلاً، ساكناً، في أوفرول باهت اللون. حين خرجت نظر إليّ وهو جالس، ثم إلى آنس. ولكنه لم يعد ينظر إلينا الآن. إنه يجلس هناك فحسب.

يقول آنس: «هل أخبرتها أم ليس بعد؟».

أقول: «ولماذا؟ لماذا بحق الشيطان؟».

يقول: «ستعرفه. عرفت أنها حين تراك ستعرف ذلك، كأنما تقرأ شيئاً مكتوباً. لا حاجة إلى أن تخبرها. عقلها...»

تنادي الفتاة من خلفنا: «بابا». أنظر إليها، إلى وجهها.

أقول: «من الأفضل أن تذهب بسرعة».

حين ندخل الغرفة نراها ترقب الباب. تنظر إليّ. تبدو عيناها كمصباحين يبرقان فجأة قبل نفاد الزيت. تقول الفتاة: «تريدك أن تخرج».

يقول آنس: «ماذا يا آدي؟ بعد أن قطع المسافة كلها من جيفرسون إلى هنا ليداويك؟» تراقبني: أستطيع أن أشعر بعينيها. كانت أشبه بمن يدفعني بهما بالقوة. لقد رأيت مثل ذلك في النساء من قبل. رأيتهن يطردن خارجاً أولئك الذين جاؤوا بالحنان وبالشفقة، والعون الحقيقي، ليتشبّثن بحيوان تافه لم يكنّ في نظره أكثر من مجرد أحصنة للتحميل. هذا ما يعنينه بالحب الذي يفوق الفهم: تلك الكبرياء، تلك الرغبة المجنونة في إخفاء ذلك العري الخسيس الذي نجلبه معنا إلى هذه الحياة، نحمله معنا إلى غرف العمليات، ثم نحمله بعناد وجنون إلى التراب مرة أخرى. أغادر الغرفة. إلى ما وراء الرواق يشخر منشار كاش في الألواح بثبات. بعد دقيقة تنادي اسمه، صوتها قاس وقوي.

تقول: «كاش، أنت يا كاش!».

دارل

يقف بابا إلى جانب السرير. يحدّق فاردامان من خلف ساقه، برأسه المدورة وعينيه المدورتين وفمه الذي يوشك على فغره. تنظر هي إلى بابا. تبدو كل حياتها الذاوية وكأنها تصب في عينيها، لجوجاً لا سبيل إلى شفائها. تقول ديووي ديل: «إنها تريد جوويل».

يقول بابا: «حسناً يا آدي، لقد ذهب هو ودارل للقيام بتحميلة أخرى. لقد ظنّا أن هناك ما يكفي من الوقت لذلك. حسبا أنك ستنتظرينهما، وأنها ثلاثة دولارات أخرى وكفاها الله...» ينحني، وهو يضع يده فوق يدها. ومع ذلك تنظر إليه لفترة، دون تأنيب، دون أي شيء على الإطلاق، وكأنما كانت عيناها وحدهما تصغيان إلى الإنقطاع النهائي في صوته. ثم ترفع نفسها، وهي التي لم تتحرك منذ عشرة أيام. تنحني ديووي ديل وهي تحاول أن تجعلها ترجع إلى وضعها السابق.

تقول: «ماما، ماما».

تنظر الآن عبر النافذة، إلى كاش منحنياً باستمرار فوق اللوح في

النور المتلاشي، جاهداً نحو الظلام وإليه وكأنما كان ضرب المنشار ينير حركته بالذات، فيولد اللوح والمنشار.

تصيح بصوت قاس. قوي وغير منهك: «أنت يا كاش، أنت يا كاش!».

ينظر إلى الأعلى إلى الوجه النحيل الكالح المؤطر بالنافذة في نور الغسق. إنها الصورة المركبة الخالدة منذ أن كان طفلاً. يرمي بالمنشار ويرفع اللوح حتى تراه، ويراقب النافذة التي لم يتحرك الوجه عنها. يجرّ لوحاً آخر إلى مكانه الصحيح ثم يميلهما كليهما في وضعهما النهائي جنباً إلى جنب، يشير إلى الألواح الأخرى التي ما زالت على الأرض، وهو يشكل بيده الفارغة إيمائياً التابوت المكتمل. لبرهة أخرى ما زالت تنظر إليه هناك في الأسفل من الصورة المركبة، دون استهجان ولا قبول ثم يختفي الوجه.

تستلقي وتدير رأسها دون أن توجه نحو بابا ولو نظرة خاطفة. تنظر إلى فارداman، وعيناها، الحياة التي فيهما، تندفع فجأة إليهما، تتوهّج الشعلتان لبرهة راسخة. ثم تنطفئان وكأن شخصاً ما قد انحنى ونفخ عليهما.

تقول ديووي ديل: «ماما، ماما» ثم تنحني فوق السرير ويداها مرفوعتان قليلاً، والمروحة لا زالت تتحرك كما كانت منذ عشرة أيام، وتبدأ بالعويل. صوتها قوي، شاب، مرتعش وواضح، مستغرق في مادته وجهارته، والمروحة لا زالت تتحرك بثبات صاعدة هابطة، تهمس الهواء عديم الجدوى. ثم ترمي بنفسها فوق ركبتي آدي بندرن، تتشبث بها، تهزها بقوة الشباب الجنونية قبل أن تنبطح فجأة فوق حفنة العظام العفنة التي خلفتها آدي بندرن، جاعلة السرير كله يصرّ

على شكل فرشة مصفَّرة مصطكَّة، وقد مدت ذراعيها إلى آخر حد بينما المروحة في إحدى يديها لا تزال تضرب بلهاث محتضر في اللحاف.

من خلف ساق بابا كان فاردامان يحدّق، وفمه مفتوح حتى آخره وقد راح اللون يغادر وجهه ليصب في فمه، وكأنما استطاع بوسيلة ما أن يغمد أسنانه في نفسه، وراح يمتصّ. يبدأ بالتحرك ببطء نحو الخلف، مبتعداً عن السرير، عيناه مستديرتان، ووجهه الشاحب يتلاشى في الغسق كورقة مُلْصَقَة على جدار متساقط، وهكذا حتى يخرج من الباب.

ينحني بابا فوق السرير في الغسق، وصورته الظلية المحدودبة تشترك في تلك الصفة اليومية لذوات الريش الموروب، الغضب الساخط في الداخل والذي يواري حكمة أعمق أو أهمد من أن تقوم بالتفكير حتى.

يقول: «اللعنة عليهم أولئك الأولاد».

«أقول يا جوويل. في الأعلى يمتد النهار مستوياً ورمادياً، وهو يخبىء الشمس بسرب من الرماح الرمادية. في المطر يخرج من البغلين قليل من الدخان، وقد ترشرشت باللون الأصفر من الطين، البعيد منها يتشبث في اندفاعات متزحلقة إلى جانب الطريق فوق المسال. ألواح الخشب المائلة تبرق بلون أصفر باهت، وقد تشبَّعت بالماء وثقلت كالرصاص، الألواح مائلة بزاوية حادة في المسال فوق الدولاب المكسور؛ حول البرامق المحطمة وكاحلي جوويل يدوم جدول أصفر ليس بالماء ولا بالتراب، ثم يلتف مع الطريق الصفراء، ليس من التراب ولا من الماء نازلاً التلة ومنحلاً في كومة متدفقة من أخضر قاتم ليس أرضاً ولا سماء. يا جوويل أقول».

يحضر كاش إلى الباب حاملاً المنشار. يقف بابا عند السرير، محدودب الظهر، مدلّى الذراعين. يدير رأسه، صورته الجانبية الرثة، وذقنه تتهاوى ببطء وهو يعضّ النشوق بلثته.

يقول كاش: «لقد رحلت».

يقول بابا: «لقد رحلت وتركتنا». لا ينظر كاش إليه.

يقول بابا: «كم تبقى لك حتى تنجز عملك؟» لا يجيب كاش. يدخل حاملاً المنشار.

يقول بابا: «الأفضل أن تعود إلى عملك، سيكون عليك بذل قُصارى جهدك، خاصة وأن الأولاد قد رحلوا». ينظر كاش إلى وجهها. إنه لا يصغي إلى بابا إطلاقاً. لا يقترب من السرير. يتوقف في منتصف الغرفة، المنشار على ساقه، ذراعاه المبللتان بالعرق تغطيهما طبقة خفيفة من نشارة الخشب، ووجهه هادىء.

يقول بابا: «إذا ضاق بك الوقت، ربما سيصل أحدهم غداً فيساعدك. يستطيع فرنون ذلك». كاش لا يصغي. إنه ينظر إلى وجهها الهادىء القاسي وهو يتلاشى مع الغسق وكأن الظلمة نذير بالأرض النهائية، حتى يبدو الوجه أخيراً وكأنه يطفو منفصلاً فوقها، بخفة كأنه انعكاس لورقة ميتة.

يقول بابا: «هناك من هم مسيحيون حقيقيون بحيث يساعدونك». كاش لا يصغي. بعد برهة يلتفت دون أن ينظر إلى بابا ويغادر الغرفة. ثم يعود المنشار ليشخر مرة أخرى.

يقول بابا: «سيساعدوننا في محنتنا».

صوت المنشار مثابر، كفوء، غير عجول، ويحرك النور الميت بحيث

أن وجهها، مع كل ضربة، يبدو وكأنه يستيقظ قليلاً ليعبر عن الإصغاء والانتظار، وكأنها كانت تعدّ الضربات. ينظر بابا إلى الوجه، إلى الانتشار الأسود لشعر ديووي ديل، والذراعين الممدودتين والمروحة المقبوض عليها والساكنة الآن فوق اللحاف الباهت اللون.

ديووي ديل لا تتحرّك.

يقول بابا: «انهضي وجهّزي لنا العشاء. علينا الاحتفاظ بقوانا. أعتقد أن الدكتور بيبودي جائع تماماً بعد كل هذه الرحلة الطويلة. كما أن كاش سيكون في حاجة إلى أن يأكل بسرعة ويعود إلى عمله حتى ينهيه في الوقت الملائم».

تنهض ديووي ديل وتقف بصعوبة. تنظر إلى الوجه. إنه أشبه بنحت من البرونز الباهت على الوسادة، اليدان وحدهما لا زال فيهما شبه بالحياة: سكونية مجعّدة كثيرة العقد، خاصية مستهلكة إنما يقظة لم يغادرها بعد التعب والإرهاق والضنى، كأنما كانت كلها لا تزال تشكّك بعد بحقيقة أن الراحة أضحت واقعاً، فراحت تحرس بيقظة مطعونة وبخيلة التوقّف الذي تعرف أنه لن يدوم.

تنحني ديووي ديل وترفع اللحاف من تحتهما ثم تسحبه فوقهما حتى الذقن، ثم تمسّده بيدها فتجعلها ممهداً. ثم ودون أن تنظر إلى بابا تدور من حول السرير وتغادر الغرفة.

«ستذهب إلى حيث بيبودي، حيث تستطيع أن تقف في الشفق وتنظر إلى ظهره بذلك التعبير الذي من شأنه أن يشعره بعينيها على ظهره فيلتفت ليقول: لن أدع الأمر يحزنني الآن. كانت عجوزاً ومريضة أيضاً. كانت تعاني أكثر مما نعرف. ما كان ممكناً أن تشفى. فارداماان يكبر الآن وأنت ستعتنين بهم جميعاً.

سأحاول ألا أترك هذا الأمر يحزنني. أعتقد أن عليك أن تذهبي وتحضري لهم العشاء. لا يجب أن يكون عشاءً فاخراً، ولكنهم سيحتاجون إلى الطعام، وهي تنظر إليه وتقول كنت تستطيع أن تفعل الكثير من أجلي لو أنك كنت تريد ذلك فحسب. لو أنك تدري: فأنا هي أنا وأنت هو أنت وأعرف ذلك وأنت لا تعرفه وكنت تستطيع أن تفعل الكثير من أجلي لو أردت فحسب ولو أنك أردت فحسب لكنت استطعت أن أقول لك وما كان على أي شخص أن يدري به عدا أنت وأنا ودارل».

يقف بابا عند السرير، ذراعاه، مدلاّتان، ظهره محدودب وبلا حراك. يرفع يده إلى رأسه، يمسح على شعره ويصغي إلى المنشار. يقترب ويفرك يده، باطنها وظاهرها، على فخذه، ثم يضعها على وجهها ثم على المكان المتحدّب من اللحاف حيث يداها. يلمس اللحاف كما رأى ديووي ديل تلمسه، ويحاول أن يمسّده حتى ذقنها ولكنه يفسد ترتيبه بدلاً عن ذلك. يحاول مرة أخرى أن يمسّده. باضطراب، يده خرقاء كأنها مخلب، يحاول تسوية التجعيدات التي سببّها والتي تستمر في الظهور تحت يده بعناد غريب في كل مكان حتى يتراجع أخيراً ويده تسقط إلى جنبه وتربت على نفسها مرة أخرى، باطناً وظاهراً على فخذه. صوت المنشار يشخر بثبات في الغرفة. يتنفّس بابا بصوت هادىء مثير للأعصاب، وهو يحرك النشوق ويضغط به على لثته.

يقول: «ستتم مشيئة الله. أستطيع الآن الحصول عليها تلك الأسنان».

«تترهل قبعة جوويل متدلية حول عنقه جاعلة الماء ينزل في قنوات نحو

كيس الكتان المربوط حول كتفيه، بينما يرفع المحور وقد غطس حتى كاحليه في الخندق الموحل، بواسطة قطعة خشب سماكتها بوصتان وعرضها أربع بوصات، وقد جعل جذعاً متعفناً مرتكزاً له. أقول يا جوويل، لقد ماتت. آدي بندرن قد ماتت».

فاردامان

ثم أبدأ بالعدو. أعدو نحو الخلف وأصل إلى نهاية الرواق وأتوقف ثم أبدأ بالبكاء. أشعر أين كانت السمكة في التراب. لقد أصبحت قطعاً من اللاسمك الآن، واللادماء على يدي وعلى أوفرولي. ثم لم يكن الأمر كذلك. لم يكن قد حدث ما حدث آنئذ. وها هي الآن قد ابتعدت كثيراً إلى حد أني لا أستطيع اللحاق بها.

تبدو الأشجار كالدجاج حين تلامس التراب البارد في الأيام الحارة. لو قفزت على الرواق سأكون حيث السمكة، وهي كلها مقطَّعة إلى لا سمك الآن. أستطيع سماع السرير ووجهها وهم وأستطيع الإحساس بالأرضية تهتزّ لدى سيره عليها ذاك الذي جاء وفعلها. ذاك الذي جاء وفعلها حين كانت بخير ولكنه جاء وفعلها.

«ابن القحبة السمين».

أقفز من على الرواق راكضاً. أعلى المخزن يأتي منقضاً من الشفق. لو قفزت لاخترقته كتلك السيدة القرنفلية في السيرك، نحو الرائحة الدافئة، دون الإضطرار إلى الإنتظار. تمسك بالشجيرات

يداي. تحت قدمي الحجارة والتراب تتدحرج نحو الأسفل.

ثم أستطيع أن أتنفس مرة أخرى، في الرائحة الدافئة. أدخل إلى الإسطبل، أحاول أن ألمسه، ثم أستطيع أن أبكي أن أتقيأ البكاء. وما أن ينتهي من الرفس أستطيع وثم أستطيع أن أبكي، البكاء أستطيع.

«لقد قتلها. لقد قتلها».

تسير الحياة فيه تحت الجلد، تحت يدي، تسير خلال البقع وتصل رائحتها إلى أنفي حيث يبدأ الغثيان بالبكاء، يتقيأ البكاء، وثم أستطيع أن أتنفس، متقيئاً إياه. وذلك يسبب في الكثير من الضجيج. أستطيع أن أشم الحياة تصعد من تحت يديّ نحو ذراعي ثم أستطيع مغادرة الاسطبل.

لا أستطيع أن أجدها. في الظلام، على امتداد التراب والجدران لا أستطيع أن أجدها. البكاء يسبّب الكثير من الضجيج. أتمنى لو أنه لا يسبّب في كل هذا الضجيج. ثم أجدها في مكان مبيت العربات، في التراب، وأعدو عبر الفسحة ثم إلى الطريق والعصا تتراقص على كتفي.

يراقبانني وأنا أعدو إلى الأمام، ثم وأنا أبدأ بالانطلاق نحو الخلف، عيونهما تتقلّب في محاجرها، وهما ينخران ويشدّان على الأعنّة. أضرب. أستطيع سماع العصا وهي تضرب، أستطيع أن أراها تضرب الرأس ونير الصدر، وتخطىء أحياناً تماماً بينما هما يتراجعان ويتقدمان، ولكني سعيد.

«لقد قتلتما أميّ!».

تنكسر العصا، وهما يتراجعان وينخران وحوافرهما تقرع الأرض بشدة، عالياً لأن الجو ينذر بالمطر والجو قد خلا للمطر. ولكن ما زال

هناك وقت. أركض في هذا الإتجاه وذاك بينما يتراجعان ويلويان عنقيهما باتجاه العنان، وأضرب.

«لقد قتلتماها».

أضربهما، أضرب، وهما يدوران مندفعين اندفاعة طويلة، والعربة تدور على عجلتين ودون حراك كأنها مثبتة إلى الأرض بالمسامير والحصانان دون حراك كأنهما مثبتان بالمسامير من قوائمهما الخلفية بصحن الدوران.

أعدو في التراب. لا أستطيع أن أرى. أعدو في التراب الماص حيث تختفي العربة مائلة على عجلتين. أضرب، العصا تضرب الأرض، ترتد، تضرب التراب ثم تقفز في الهواء ثانية والغبار يمتص الطريق أسرع مما كانت سيارة تسير عليها. وثم أستطيع أن أبكي، ناظراً إلى العصا. إنها مكسورة في يدي، لم تعد أكثر من حطبة مدفأة كانت عاصا من قبل. أرمي بها بعيداً وأستطيع أن أبكي. لم يعد يصدر كل تلك الضجة الآن.

البقرة واقفة عند باب الحظيرة، تجترّ. حين تراني أدخل إلى الحظيرة تخور، فمها مليء بالأخضر المتحرك، لسانها يتخبّط.

«لن أحلبك. لن أفعل أي شيء من أجلهم».

أسمعها تستدير لدى مروري. حين ألتفت ها هي خلفي تماماً بنَفَسِها العذب الساخن القوي.

«ألم أقل لك أني لن أحلبك؟».

تدفعني برفق وهي تتشمّم. تئنّ عميقاً في داخلها، وفمها مغلق. أهزّ يدي وأنا أسبّها كما يفعل جوويل.

«هيا الآن».

أنزل بيدي إلى الأرض وأهجم عليها. تقفز نحو الخلف وتنعطف مبتعدة ثم تتوقف وهي تراقبني. تئنّ. تستمر في السير نحو الممرّ وتقف هناك وهي تنظر على امتداد الممرّ.

في الحظيرة ظلام، دفء وروائح وصمت. أستطيع أن أبكي بهدوء، مراقباً قمة الجبل.

يصعد كاش الجبل، وهو يعرج من أثر سقوطه من على سطح الكنيسة ينظر إلى الأسفل حيث النبع ثم إلى الأعلى نحو الطريق ونحو الخلف باتجاه الحظيرة. يهبط سالكاً الممر دون مرونة وينظر إلى العنان المقطوع وإلى الغبار الذي على الطريق ثم نحو نهاية الطريق حيث ذهب الغبار.

«آمل أن يكونا قد تجاوزا «تَل» الآن. آمل ذلك إلى حد كبير».

يلتفت كاش ويعرج صاعداً الممر.

«اللعنة عليه. لقد رأيته. اللعنة عليه».

لم أعد أبكي الآن. لم أعد أي شيء. تأتي ديووي ديل إلى الجبل وتنادي عليّ: «فاردامان». لم أعد أي شيء. أنا هادىء. «أنت يا فاردامان». أستطيع البكاء بهدوء الآن، وأنا أستشعر دموعي وأسمعها.

«إذن فهي تريد. لم يحدث ذلك إذن. كانت قابعة هناك على الأرض. والآن ها هي تحضّر نفسها لطبخها».

ظلام. أستطيع سماع الغابة، صمت: أعرفها. ولكن لا أصوات

حيّة، ولا حتى هو. يبدو الأمر وكأن الظلام كان يفتّت تكامل وجوده محّولاً إياه إلى عناصر متناثرة غير ذات علاقة ببعضها بعضاً: تشمّمات ودوسات؛ روائح اللحم المتبرّد والشعر الذي له رائحة النشادر؛ وَهْمُ كلّ متناسق من جلد مبقّع وعظام قوية في داخله، منفصل وسريٌّ وأليف؛ أو مختلف عني تماماً بكل تأكيد. أراه يتفتّت: الساقان، عين متقلّبة؛ تبقّعٌ مبهرج كأنه اللهب البارد ـ يطفو فوق العتمة في محلول متلاش؛ الكل واحد وليس كذلك؛ الكل ليس كذلك ولكنه واحد. أستطيع أن أرى أسمع جلبة باتجاهه، تربيتاً، تشكيلاً لشكله القاسي ـ النتوء الذي يحمل الشعر في مؤخرة القائمة، الكفل، الكتف والرأس، الرائحة والصوت. لست خائفاً.

«أطبخْ وكُلْ. اطبخْ وكُل».

ديووي ديل

كان بإمكانه أن يفعل الكثير من أجلي لو شاء. كان يستطيع أن يفعل كل شيء من أجلي. يبدو وكأن كل ما في هذا العالم بالنسبة إليّ موجود في حوض مليء بالأحشاء، لذا فإنك تتساءل كيف يمكن أن يكون فيه مكان لأي شيء آخر هام إطلاقاً. هو حوض كبير من الأحشاء وأنا حوض صغير من الأحشاء وإن لم يكن هناك مكان لأي شيء آخر هام في حوض كبير من الأحشاء فكيف سيكون مثل هذا المكان في حوض صغير من الأحشاء. ولكني أعلم أنه هناك لأن الله يعطي النساء علامة حين يحدث شيء كريه.

لأني وحيدة. لو أني أستطيع الإحساس بذلك فحسب، لاختلف الأمر، لأني لن أكون وحيدة. ولكن لو لم أكن وحيدة، لعرف كل شخص ذلك. ولقد كان بإمكانه أن يفعل الكثير من أجلي، وعندها ما كنت لأبقى وحيدة. عندها كنت أستطيع أن أكون وحيدة وعلى ما يرام.

كنت سأدعه يأتي بيني وبين «ليف»، كما أتى دارل بيني وبين

«ليف»، وهكذا فإن ليف وحيد أيضاً. هو ليف وأنا ديووي ديل، وحين ماتت أمي كان عليّ أن أتجاوز نفسي وأخرج منها وكان على ليف ودارل أن يحزنا لأنه كان يستطيع أن يفعل الكثير من أجلي وهو لا يعرف ذلك. إنه لا يعرف ذلك حتى.

من الرواق الخلفي لا أستطيع رؤية الحظيرة. ثم يأتي صوت النشر الذي يقوم به كاش من الطريق. الأمر أشبه بوجود كلب خارج البيت، وهو يدور حول البيت جيئةً وذهاباً ويأتي إلى أي باب تقترب منه، ينتظر الدخول. قال أني أقلق أكثر منك وقلت «إنك» لا تعرف ما هو القلق لذلك لا أستطيع القلق. أحاول ولكني لا أستطيع الإستمرار إلى حد أقلق معه.

أشعل مصباح المطبخ. السمكة المقطعة إلى أجزاء مثلمة، تنزف بهدوء في المقلاة. أضعها في الخزانة بسرعة، ثم أتنصّت باتجاه الردهة مصغية. لن تموت إلاّ بعد مرور عشرة أيام؛ ربما لا تعرف هي ذلك بعد. ربما لن تموت بل تنتظر كاش. أو ربما جوويل. أخرج طبق الخضار من الخزانة ومقلاة الخبز من الفرن البارد، وأتوقّف مراقبة الباب.

يقول كاش: «أين فاردامان؟» في ضوء المصباح تبدو ذراعاه المغطاتان بالنشارة كالرمل.

«لا أعرف لم أره».

«لقد هرب بغلا بيبودي. ابحثي عن فاردامان، فالحصان سيسمح له أن يمسك به».

«حسناً. قل لهم أن يأتوا إلى العشاء».

لا أستطيع مشاهدة الحظيرة. قلت إني لا أعرف كيف أقلق. لا

أعرف كيف أبكي. حاولت، ولكني لا أستطيع. بعد برهة يأتي صوت النشر على نحو غير مباشر، يأتي سراً على امتداد الأرض في ظلمة التراب. عندها أستطيع أن أراه، وهو يصعد وينزل فوق لوح الخشب.

أقول: «ادخل لتتعشى. قل له». إنه قادر على أن يفعل كل شيء من أجلي. وهو لا يعرف ذلك. هو أحشاؤه وأنا أحشائي. وأنا أحشاء ليف. هذه هي القضية. لا أفهم سبب بقائه في المدينة. نحن أناس ريفيون ولسنا في مستوى أناس المدينة. لا أعرف لماذا لم يبقَ. ثم أستطيع رؤية أعلى الحظيرة. البقرة تقف أسفل الممر، تخور. وحين ألتفت يكون كاش قد رحل.

أحمل مخيض اللبن إلى الداخل. بابا وكاش وهو جالسون إلى المائدة.

يقول: «أين هي تلك السمكة الكبيرة التي اصطادها «بود»؟».

أضع الحليب على المائدة. «لم أجد الوقت الكافي لأطبخها».

يقول: «الأجزاء الخضراء من اللفت طعام غير كاف بالنسبة إلى رجل في حجمي». كاش يأكل. حول رأسه تركت قبّعته أثراً متعرقاً. قميصه مبقّع بالعرق. لم يغسل يديه وذراعيه.

يقول بابا: «كان عليكَ أن تجدي الوقت. أين فاردامان؟».

أتجه نحو الباب. «لا أستطيع أن أجده».

يقول هو: «تعالي يا أختي. لا تكترثي بالسمكة. سنوفّرها على ما أعتقد. تعالي واجلسي».

أقول: «لا يهمني. سأذهب لحلب البقرة قبل أن تمطر».

يصب بابا بعض الطعام لنفسه ويدفع بالطبق. ولكنه لا يبدأ بالأكل. يداه نصف مغلقتين على جانبي طبقه، ورأسه مطأطئة قليلاً، وشعره المائل واقف تحت ضوء المصباح. يبدو كما الثور الصغير بعد أن تضربه المدقة وهو لم يعد حياً ولا يعرف بعد أنه ميت.

ولكن كاش يأكل، هو أيضاً. يقول: «الأفضل أن تأكل». إنه ينظر إلى بابا. «كما كاش وأنا. ستكون في حاجة إلى الطعام».

يقول بابا: «أجل». يستفيق كما يفعل الثور الصغير الذي كان راكعاً في بركة وعدوت نحوه. «لن تضنّ عليّ بالطعام».

حين أبتعد عن البيت وأصبح بمنأى عن الأنظار، أسرع في سيري. تخور البقرة عند أسفل الجرف. تمرغ أنفها فيّ، تتشممني، تنفخ بأنفاسها الحلوة الحارة عبر ثوبي، على عربي الحار وتئنّ. «عليك أن تنتظري قليلاً بعد. وبعد ذلك سأعتني بأمرك». تلحق بي إلى الحظيرة حيث أضع الدلو على الأرض. تتنفس في الدلو، وتئن. «لقد قلت لك. عليك أن تنتظري فحسب. الآن لديّ من الأعمال أكثر مما أستطيع إنجازه». الحظيرة معتمة. حين أمرّ يرفس الجدار فيكسره بضربة واحدة. أتابع. اللوح الخشبي المكسور أشبه بوتد خشبي منتصب. ثم أستطيع رؤية المنحدر، أشعر بالهواء يتحرك فوق وجهي مجدّداً، بطيئاً، شاحباً، بظلمة أقل، وبرؤية فارغة، مجموعات شجر الصنوبر تترك بقعاً على المنحدرات الحادة، سرية وقيد الانتظار.

البقرة تصنع صورة ظلية على الباب وهي تتشمم الصورة الظلية للدلو، وتئنّ.

ثم أمرّ عبر المربط. لقد عبرته تقريباً. أسمعها تقول لفترة طويلة قبل

أن تقدر على أن تقول الكلمة والعضو المصغي يخشى ألا يكون هناك وقت كاف لقولها. أشعر بجسدي وعظامي ولحمي كأنما بدأت تنفلق وتنفتح على الوحدة، وعملية التحول إلى اللاوحدة رهيبة. ليف، ليف. «ليف». ليف. ليف. أنحني قليلاً نحو الأمام، وإحدى قدّمي تتقدم بمشي ميّت. أشعر بالظلمة تندفع عبر صدري، عبر البقرة؛ أبدأ بالإندفاع نحو الظلمة ولكن البقرة توقفني وتندفع الظلمة على النفحة العذبة لنَفَسِها الآخذ بالأنين، الممتلىء برائحة الحطب وبالصمت.

«يا فاردامان. أنت يا فاردامان».

يخرج من الحظيرة. «أيها المتسلّل الصغير اللعين. أيها المتسلّل الصغير اللعين!».

لا يقاوم؛ يتلاشى آخر خيوط الظلمة المندفع وهو يصفرّ« مبتعداً. «ماذا؟ لم أفعل شيئاً».

«أيها المتسلّل الصغير اللعين!» تهزّه يداي بشدّة. ربما لم أستطع إيقافهما. لم أكن أعلم أنهما تستطيعان الهزّ بكل تلك الشدّة. تهزان كلينا، تهزّاننا.

يقول: «لم أفعل ذلك. لم ألمسها إطلاقاً».

تتوقف يداي عن هزّه ولكني لا زلت أمسك به. «ما الذي تفعله هنا؟ لماذا لم تردّ حين ناديتك؟».

«لم أكن أفعل شيئاً».

«اذهب إلى البيت وتناول عشاءك».

يتراجع. أمسك به: «اتركيني. دعيني وشأني».

«ما الذي كنت تفعله هنا؟ لم تنزل إلى هنا لتتسلّل من ورائي؟».

«أبداً، أبداً، اتركيني الآن. لم أكن أعرف حتى أنك هنا. دعيني وشأني».

أمسك به، وأنا أنحني لأرى وجهه، وأتحسسه بعينيّ. يكاد يبكي. «هيا اذهب الآن. لقد جهزت طعام العشاء وسأعود إلى هناك حالما أنهي حلب البقرة. الأفضل لك أن تذهب قبل أن يأكل كل شيء. آمل أن يعدو ذلك الحصان عائداً إلى جيفرسون فوراً».

يقول: «لقد قتلها». ثم يبدأ بالبكاء.

«صه!»

«لم تسيء إليه أبداً ولكنه يأتي ليقتلها».

«صه». يناضل. أمسك به. «صه».

«لقد قتلها». تأتي البقرة إلى ورائنا، وهي تئنّ. أهزّه مرة أخرى.

«توقف عن ذلك. هذه الدقيقة. أنت تحاول أن تمرض نفسك حتى لا تذهب إلى المدينة. اذهب إلى البيت وتناول عشاءك».

«لا أريد أي عشاء. لا أريد الذهاب إلى المدينة».

«سنتركك هنا إذن. ما لم تتصرف على نحو لائق سنتركك هنا. إذهب الآن قبل أن يلتهم حوضُ الأحشاء آكلُ الخضار ذاك كل الطعام فلا يُبقي لك شيئاً». يذهب ويختفي في التل. يقف الهلال والأشجار وسطح البيت قبالة السماء. تمرغ البقرة أنفها فيّ، وهي تئنّ.

«عليك أن تنتظري فحسب. ما لديك في داخلك لا شيء بالمقارنة مع ما في داخلي، حتى لو كنت أنت امرأة أيضاً». تتبعني وهي تئنّ. ثم

يتنفس على وجهي الهواء الميت الساخن الباهت مرة أخرى. كان يمكنه أن يصلح الأمور جيداً لو شاء فحسب. وهو لا يعرف ذلك حتى. كان بإمكانه أن يفعل كل شيء لأجلي لو عرف ذلك فحسب. تتنفس البقرة على وركيّ وظهري، نفسها دافىء، عذب، شخيريّ، أنينيّ. تتمدد السماء منبسطة هابطة المنحدر، فوق مجموعات الأشجار السرية. خلف التلّ يتوهج البرق الصفيحي نحو الأعلى ثم يتلاشى. الهواء الميت يشكل الأرض الميتة في الظلام الميت، وإلى ما وراء مدى الرؤية، يشكل الأرض الميتة. إنها تقبع ميتة ودافئة فوقي، تتلمسني عارية عبر ملابسي. أقول «أنت»[1] لا تعرف ما هو القلق. أنا لا أعرف ما هو. لا أعرف إن كنت أشعر بالقلق أم لا. إن كنت أستطيع أم لا. لا أعرف إن كنت أستطيع البكاء أم لا. لا أعرف إن كنت قد حاولت أم لا. أشعر أني كبذرة رطبة برية في الأرض الساخنة العمياء.

---

1 ـ تقصد الرب. (المترجم).

فاردامان

حين ينهونه سيضعونها فيه وثم لن أستطيع أن أتلفظ بذلك. لقد رأيت العتمة تنهض وتبتعد مدوّمة وقلت: «هل ستغلقه عليها ثم تسمره بالمسامير يا كاش؟ يا كاش؟ يا كاش؟» لقد أُغلق الباب عليّ مرة في الزريبة وكان الباب ثقيلاً عليّ فانغلق ولم أعد أستطيع أن أتنفس لأن الجرذ كان يلتهم الهواء كله. قلت: «هل ستثبّته بالمسامير عليها يا كاش؟ تسمّره؟ تسمره؟ «تسمره»؟».

يتجول بابا في أرجاء المكان. يتجوّل ظلّه في أرجاء المكان، هناك يصعد كاش وينزلق فوق المنشار، عند لوح الخشب النازف.

قالت ديووي ديل سنحصل على بعض الموز. القطار خلف الواجهة الزجاجية، أحمر فوق سكة. حين يجري تلتمع السكة مبتعدة. يقول بابا إن الدقيق والسكّر والبنّ أصبحت كلها باهظة الثمن. ولأني ولد ريفي بسبب الأولاد في المدينة. الدراجات. لماذا يكون ثمن الدقيق والسكّر باهظاً إلى هذا الحد حين يكون هو ولداً ريفياً. «ألا تفضل بعض الموز بدلاً عن ذلك؟» الموز. انتهى. أُكِلَ. انتهى. حين يجري

فوق السكة يلتمع مرة أخرى «لماذا لا أكون ولد مدينة يا بابا؟» قلتُ إن الله خلقني. لم أقل لله أن يخلقني في الريف. وإذا كان «هو» قادراً على خلق القطار، فلماذا لا يقدر «هو» على خلقهم كلهم في المدينة بسبب الدقيق والسكر والبن. «ألا تفضل الموز؟».

يتجول في أرجاء المكان. يتجول ظله في أرجاء المكان.

لم تكن هي. كنت هناك أنظر. فكرت أنها كانت هي، ولكن لم تكن هي. لم تكن أمي. لقد رحلت حين نامت الأخرى في سريرها ورفعت اللحاف فوقها. رحلت. «هل وصلت حتى المدينة؟» «ذهبت إلى ما وراء المدينة؟» «هل ذهبت كل تلك الأرانب والأبوسومات إلى ما وراء المدينة؟» الله خلق الأرانب والأبوسومات. لقد خلق القطار. لماذا يجعل لهم مكاناً مختلفاً يذهبون إليه إن كانت أمي كالأرنب.

يتجول بابا في أرجاء المكان. وكذلك ظله. يبدو من صوت المنشار أنه نائم.

إذن لو ثبّت كاش الصندوق بالمسامير، فهي ليست أرنباً. إذن فإن لم تكن أرنباً لما استطعت أن أتنفس في الزريبة وكاش سيقوم بتثبيته بالمسامير. وإذا ما تركته يفعل ذلك فهي ليست هي. أعرف. كنت هناك. رأيتها حين لم تكن هي هي. هم يظنون أنها كذلك وكاش سيثبته بالمسامير.

لم تكن هي لأنها كانت ملقاة هناك في التراب. وهي الآن قطعة، لقد قطعتها. ها هي مرمية في المطبخ في المقلاة النازفة، تنتظر أن تطبخ وتؤكل. عندها لم تكن هي وكانت هي، والآن هي وليست هي. وغداً

ستُطبخ وتُؤكل وستكون: هو وبابا وكاش وديووي ديل ولن يكون أي شيء في الصندوق ولذا لن تستطيع هي أن تتنفس. كانت ملقاة هناك على الأرض. أستطيع أن أحضر فرنون. كان هناك ورآها، وبوجودنا نحو الإثنين ستكون وثم لن تكون.

تـَـلْ

كان الوقت أقرب إلى منتصف الليل وكان المطر قد بدأ بالهطول حين أيقظنا. كانت تلك ليلة مترعة بالشك، والعاصفة في طور التشكّل، ليلة ينتظر فيها الشخص أن يحدث أي شيء قبل أن يطعم المواشي ويصل إلى البيت ويتناول عشاءه والمطر قد أخذ بالهطول، وحين وصل بغلا بيبودي وهما مزبدان، وطقمهما مكسور يتجرجر ونير العنق بين ساقي المخلوق الأيمن فيهما، تقول كورا: «إنها آدي بندرن. لقد رحلت أخيرا».

أقول: «قد يكون بيبودي جاء لزيارة أي بيت ضمن إثني عشر بيتاً في هذه الأنحاء. وعلى كل، كيف تعرفين بغلي بيبودي؟».

تقول: «حسناً، أليسا هما؟ عليك أن تشد البغلين إلى العربة الآن».

أقول: «لماذا؟ إن كانت قد رحلت، فلا يمكننا أن نفعل شيئاً حتى الصباح كما أن العاصفة توشك على الهبوب».

تقول: «إنه واجبي. هيّا شد البغلين إلى العربة».

ولكني رفضت ذلك. «المنطق يقول إنهم كانوا سيرسلون في طلبنا لو احتاجوا إلينا. أنتِ لا تعرفين حتى إن كانت قد رحلت بعد أم لا».

«عجباً! ألا تعرف أنهما بغلا بيبودي؟ هل تدعي أنهما ليسا كذلك؟ حسناً إذن». ولكني رفضت الذهاب. حين يريد الناس شخصاً ما، فالأفضل الانتظار حتى يرسلوا في طلبه، هذا ما توصلت إليه. تقول كورا: «هذا واجبي كمسيحية. هل ستحول بيني وبين واجبي كمسيحية؟».

أقول: «يمكنك أن تبقي هناك يوم الغد بأكمله لو شئت». وهكذا حدث أنه حين أيقظتني كورا كان المطر قد بدأ بالهطول . وحتى خلال ذهابي إلى الباب حاملاً المصباح، وهذا يلتمع على الزجاج حتى يرى أني قادم، فقد ظل يقرع على الباب. ليس عالياً بل بثبات، وكأنما هو قد أغفى وهو يضرب على الباب، ولكني لم ألحظ كم كان مستوى القرع على الباب منخفضاً حتى فتحته فلم أرَ أي شيء. رفعت المصباح عالياً والمطر يلتمع عبره وكورا في البهو خلفي تقول: «منْ القادم يا فرنون؟» ولكني لم أرَ أي شخص إطلاقاً في البداية حتى نظرت إلى الأسفل وحول الباب وأنا أخفض المصباح.

كان يبدو كالجرو الغارق في ذلك الأوفرول، دون قبعة، كما كان الطين متناثراً حتى ركبتيه حيث مشى أربعة أميال في الطين. أقول: «حسناً فلتصبني اللعنة».

تقول كورا: «من هناك يا فرنون؟»

ينظر إليّ بعينيه المدوّرتين السوداوين في المنتصف كما يحدث حين يتسلّط الضوء في وجه البوم. يقول: «احذر تلك السمكة».

أقول: «إدخل إلى البيت. ما الأمر؟ هل أمك...؟».

تقول كورا: «يا فرنون».

وقف متوارياً خلف الباب في الظلمة. كان المطر يضرب المصباح، ويهسهس فوقه بحيث كنت أخشى من أنه قد ينكسر في أية لحظة. يقول: «كنت هناك. رأيتها».

ثم تأتي كورا إلى الباب. تقول: «تأتي تحت المطر هكذا». ثم تشدّه إلى الداخل وهو يراقبني. كان يبدو كالجرو الغارق. تقول كورا: «لقد قلت لك، قلت لك أنها تموت. إذهب وشد البغلين إلى العربة».

أقول: «ولكنه لم يقل ذلك...».

نظر إليّ، وماء المطر يقطر منه على الأرض. تقول كورا: «إنه يفسد السجادة. إذهب وجهز البغلين بينما آخذه أنا إلى المطبخ».

ولكنه تردّد والماء يقطر منه وهو يراقبني بتينك العينين. «كنتَ هناك، رأيتها متمددة هناك. كاش مصمم على تثبيته بالمسامير وهي في داخله، وكان الصندوق على الأرض هناك. لقد رأيتَه. رأيتَ العلامة على التراب. لم يبدأ المطر بالهطول إلاّ بعد أنْ أصبحت في طريقي إلى هنا. إذن، نستطيع العودة في الوقت المناسب».

أكون ملعوناً إن لم أشعر بالخوف، حتى قبل أن أعرف ذلك. ولكن كورا عرفت. تقول: «جهّز البغلين بأقصى سرعة. لقد جُنَّ من الحزن والقلق».

أكون ملعوناً إن لم أشعر بالخوف. بين الحين والآخر يبدأ المرء بالتفكير بكل ما في هذا العالم من حزن، وكيف أنه ممكن للحزن أن يضرب في أي مكان، كالبرق. أعتقد أنه لا بد من ثقة قوية في الرب

حتى يمكن حماية المرء، رغم أني أظن أحياناً أن كورا شديدة الحرص وتبالغ فيه، كأنما كانت تحاول أن تبعد الناس الآخرين لتقترب هي أكثر من غيرها. ولكن حين يحدث شيء كهذا، أعتقد أنها على حق وعليك أن تحافظ عليه وأعتقد أني مبارك لأني لي زوجة تناضل أبداً في سبيل القداسة وفعل الخير وتقول أني كذلك.

بين الحين والآخر يبدأ المرء بالتفكير في الموضوع. ليس غالباً على أية حال. وهو أمر جيّد. فالرب قد كتب له أن يفعل ذلك وألاّ ينفق الكثير من وقته في التفكير، لأن عقله أشبه بآلة: والآلة لا تتحمل الكثير من الإجهاد. وتكون الأمور في أفضل حال حين يسير كل شيء على المنوال المعتاد: تقوم بالعمل اليومي دون أن يقوم أي عضو بأكثر ممّا تدعو إليه الحاجة. لقد قلت وأقول مرة أخرى إنها دائماً مسألة حياة بالنسبة إلى دارل: إنه يفكر كثيراً بينه وبين نفسه. كورا على حق حين تقول إن كل ما هو في حاجة إليه هو زوجة تقوّم له أموره. وحين أفكر بذلك أعتقد أنه حين يكون الزواج هو الشيء الوحيد النافع لرجل ما، فلا شك أن حالته ميؤوس منها تقريباً، ولكني أعتقد أن كورا على حق حين تقول إن السبب في أن الله قد خلق النساء هو أن الرجل لا يعرف صالحه حين يراه بعينيه.

حين أعود إلى المنزل مع البغلين أجدهما في المطبخ. كانت قد ارتدت ملابسها فوق قميص نومها وقد وضعت شالاً فوق رأسها وحملت ممطرتها وكتابها المقدس ملفوفاً في قماش غير قابل للبلل، وهو جالس على دلو مقلوب على زنك المدفأة حيث وضعته، ولا زال ماء المطر يقطر منه على الأرض. تقول: «لم أستطع أن أخرج منه شيئاً باستثناء كلامه عن سمكة. إنه حكم إلهي بمعاقبتهم. إني لأرى

يد الرب فوق هذا الصبي وذلك ليعاقب وينذر آنس بندرن».

يقول: «لم يبدأ المطر بالهطول إلا بعد أن غادرت، بعد أن غادرت وانتهيت. كنت في طريقي. ولذلك كانت تلك في التراب. أنت رأيتها. كاش مصمم على تثبيتها بالمسامير، ولكنك رأيتها».

حين وصلنا إلى هنا كان المطر يهطل بشدة وهو جالس على المقعد بيننا ملفوف بشال كورا. لم يكن قد تلفّظ بأي شيء آخر، بل كان جالساً هناك وكورا تحمل الممطرة من فوقه. بين الحين والآخر كانت كورا تتوقف عن الغناء فترة طويلة كافية لتقول: «إنه الحكم الإلهي على آنس بندرن، وذلك حتى يتبيّن طريق الخطيئة التي يسير فيها». ثم تعود إلى الغناء، وهو جالس هناك بيننا، وقد انحنى قليلاً نحو الأمام وكأن البغلين ما كانا يسيران بالسرعة المطلوبة.

يقول: «كان ملقى هناك، ولكن المطر هطل بعد أن انطلقت وغادرت. لذا أستطيع أن أذهب وأفتح النوافذ، لأن كاش لم يسمّره عليها بعد».

كان قد مضى الكثير على منتصف الليل حين ضربنا آخر مسمار وكان الفجر قد لاحت تباشيره حين عدت إلى البيت وأخرجت البغلين وأويت إلى فراشي، وقبعة نوم كورا ملقاة على الوسادة الأخرى. لأكن ملعوناً إن لم أستطع حتى في ذلك الحين سماع صوت كورا وهي تغنّي وأشعر بذلك الغلام منحنياً إلى الأمام وهو جالس بيننا وكأنه يسبق البغلين، وإن لم أستطع رؤية كاش وهو يصعد وينزل مع ذلك المنشار، وآنس واقف هناك كفزّاعة العصافير أو كثور صغير غاطس حتى ركبتيه في بركة، وها هو أحدهم يصل فيقلب البركة عاليها سافلها وهو غير منتبه بعد.

كان الفجر قريباً حين ضربنا آخر مسمار وحملناه إلى داخل البيت حيث كانت متمددة على الفراش والشباك مفتوح والريح تعصف بالمطر عليها مرة أخرى. فعلها مرتين رغم أنه وسنان جداً وإلى حد أن كورا قالت إن وجهه يبدو كواحد من أقنعة «عيد الميلاد» التي دُفنت لفترة ثم أخرجت، حتى وضعوها أخيراً فيه وسمُروه حتى لا يفتحوا النافذة عليها مرة أخرى. وفي الصباح اليوم التالي وجدوه في قميصه ممدداً وهو نائم على الأرض كثور قتيل، وغطاء الصندوق مليء بالثقوب بينما مثقب كاش الجديد مكسور في آخر ثقب. وحين رفعوا الغطاء وجدوا أن ثقبين من تلك الثقوب قد اخترقا وجهها.

إن كان ذلك حكماً إلهياً فهو ليس بالحكم الصائب. فليس لدى الرب وقت لمثل ذلك. لا شك في ذلك. لأن الحمل الوحيد الذي كان على آنس بندرن أن يحمله كان نفسه فقط. وحين يتحدث عنه الناس بالسوء أفكر بيني وبين نفسي بأنه ليس سيئاً إلى ذلك الحد وإلاّ لما كان سيحتمل نفسه كل تلك المدة من الزمن.

ليس صواباً. فلتصبني اللعنة إن كان الأمر كذلك. لأنه قال: «دع الأطفال يأتوا إلي» ولكن هذا لا يجعل الأمر صواباً أيضاً. قالت كورا: «لقد حملت لك ما أرسله الله إليّ. لقد واجهت الأمر دون خوف أو رعب لأن إيماني بالرب كان قوياً، إنه يدعمني ويقويني. إن لم يكن لك ابن ذكر فقد قضى الله بذلك بحكمته. وحياتي كانت ولا تزال كتاباً مفتوحاً ككل رجل أو امرأة ممن خلق لأني أثق بالله وبجزائي».

وأعتقد أنها على حق. وأعتقد أنه لو كان هناك رجل أو امرأة في أي مكان يستطيع هو[1] أن يسلمه أو يسلمها الأمور كلها وهو مرتاح

1 ـ يعني الرب. (المترجم).

الذهن، لكانت تلك المرأة هي كورا. وأعتقد أنها لن تقوم إلاّ بتغييرات طفيفة مهما كانت الطريقة التي يدير هو[1] بها الأمور. وأعتقد أن تلك التغييرات ستكون لصالح الإنسان. على الأقل، سيكون علينا أن نحبها. على الأقل، كنا سنستمر أيضاً في فعل ما فعلناه.

1 ـ يعني الرب. (المترجم).

- دارل -

القنديل جاثم على قطعة خشبية. كان صدئاً دهنياً ذا زجاجة متشققة ملطخاً من أحد جوانبه بسخام ضبابي متصاعد، وقد راح يلقي بوهج ضعيف متقد على جحوش النجارة والألواح والأرض المجاورة. على الأرض المعتمة بدت رقاقات الخشب كلطخ عشوائية من الدهان الباهت اللون على قماش لوحة سوداء. بدت الألواح كمزق طويلة ناعمة انتزعت من الظلمة وقُلِب عاليها سافلها.

ها هو كاش يكدح على جحوش النجارة، يتحرك جيئة وذهاباً، يرفع الألواح ويضعها في مكانها وتذبذبات طويلة رنانة تطنّ في الهواء الميت كأنه كان يرفعها ويسقطها في مقر بئر لا مرئي، والأصوات تنتهي دون أن ترحل، وكأن أي حركة قد تزيحها من الهواء المباشر في تكرار متذبذب. ها هو ينشر مرة أخرى ومرفقه يلتمع ببطء، خيط رفيع من النار يجري على امتداد حافة المنشار، يضيع ويستعاد عند أعلى وأسفل كل ضربة في تمديد غير متقطع، ولذا يبدو المنشار وكأن طوله ستة أمتار، وذلك داخلاً وخارجاً من الصورة الظليلية المشعثة التي بلا هدف. يقول كاش: «ناولني ذلك اللوح. لا، الآخر». يضع

المنشار أرضاً ثم يرفع اللوح الذي يريده وهو يبعد بابا بالوهج الطويل المتأرجح للوح المتوازن. للهواء رائحة الكبريت. فوق سطحه غير المحسوس تتشكل ظلالهما كما لو فوق جدار، وكأنهما كالصوت لم يتعدا كثيراً خلال السقوط بل اندمجا للحظة فحسب، على نحو مباشر وبتأمل. كاش يستمر في العمل وقد التفت نصف التفاتة نحو الضوء الضعيف، إحدى فخذيه وإحدى ذراعيه النحيلتين كعمودين متوترين، ووجهة متحدّر في الضوء مع سكون مستغرق حيوي فوق مرفقه الذي لا يكل. تحت السماء تنام ألواح البرق بخفة، والشجر يبدو قبالتها دون حراك، وقد انتفش حتى آخر غصين، وتورم وانتفخ كأنه عدد من النساء الحوامل.

يبدأ المطر بالهطول. تندفع الحبات الأولى القاسية المتناثرة السريعة عبر الأوراق وعبر الأرض في تنهيدة طويلة، كأنما هي قد ارتاحت بعد ترقب قلق صعب احتماله. إنها كبيرة كخردق الأيائل، دافئة كأنما أطلقت من مسدس؛ وهي تمرّ بالمصباح مهسهسة على نحو شرير. يرفع بابا وجهه، فمه مرتخ، والحلقة السوداء الرطبة التي شكلها النشوق ملتصقة عند قاعدة لثته. ومن خلف دهشته ذات الوجه المرتخي يفكر، كأنما من وراء الزمن، في انتهاك الحرمات المطلق. ينظر كاش مرة واحدة إلى السماء، ثم إلى القنديل. لم يكن المنشار قد تردّد، ولا الوهج الجاري إلى حافته الصاعدة النازلة قد انقطع. يقول: «اجلب شيئاً حتى تغطي به القنديل».

يذهب بابا إلى المنزل. يهطل المطر مندفعاً فجأة، دون رعد، دون أي إنذار من أي نوع؛ يدفع به نحو الرواق الأمامي عند الحافة، وفي لحظة واحدة ها هو كاش وقد ابتل تماماً. ومع ذلك فإن حركة المنشار

لم تتردد، وكأنه والذراعين يؤدي عمله بقناعة هادئة بأن المطر وهم ذهني. ثم يضع منشاره أرضاً ويذهب ليقرفص فوق القنديل، وهو يحميه بجسده، وقد تشكل ظهره النحيل والأعجف تحت قميصه المبلّل وكأنما هو قد قُلِب خطأ ظهراً لبطن، هكذا على نحو مفاجيء، بقميصه وكل شيء.

يعود بابا. إنه يرتدي معطف جوويل الواقي من المطر ويحمل معطف ديووي ديل. وبينما يقرفص كاش فوق القنديل يمد يده نحو الخلف ويلتقط أربعة عيدان ثم يغرزها في الأرض ويأخذ معطف ديووي ديل من بابا ويفرشه فوق العيدان، مشكلاً سقفاً فوق القنديل. يراقبه بابا. يقول: «لا أعرف ما ستفعله. لقد أخذ دارل معطفه معه».

يقول كاش: «سأصاب بالبلل». ثم يتناول المنشار مرة أخرى. ومن جديد ها هو يصعد وينزل ويدخل ويخرج من تلك الكتامة المتمهلّة كما يتحرك المكبس في الزيت، مبلّلاً، أعجف، لا يشعر بالتعب، بجسد ناحل خفيف، جسد غلام أو عجوز. يراقبه بابا وهو يرمش بعينيه، ووجهه يتصبب منه ماء المطر. ينظر من جديد إلى السماء بذلك التعبير الذي يدل على الغضب الأبكم المفكّر وعلى التبرير كذلك، وكأنه ما كان يتوقع ما هو أقل من ذلك؛ وها هو يتحرك وينتقل بين الحين والآخر نحيلاً والماء يتصبب منه، ثم يلتقط لوحاً أو أداة أو يضع أحدهما أرضاً. فرنون تل هناك الآن، وكاش يرتدي معطف السيدة تل الواقي من المطر، وهو وفرنون يبحثان عن المنشار بعد فترة يجدانه في يد بابا.

يقول كاش: «لَمَ لا تذهب إلى البيت وتبتعد عن المطر؟» ينظر بابا إليه ووجهه يتصبب ماء. بدا الأمر وكأن وجهاً نحته فنان كاريكاتيري

متوحش راحت تتدفق منه سخرية شديدة القباحة تعبر عن الحرمان كله. يقول كاش: «اذهب إلى البيت. يمكننا أنا وفرنون أن ننهيه». ينظر بابا إليهما. كمّا معطف جوويل قصيران جداً عليه. فوق وجهه كان المطر يتصبّب، بطيئاً كالغليسيرين البارد. يقول: «لا أحسدها على البلل». يتحرك ثانية ويبدأ بنقل الألواح، يلتقطها ثم يضعها على الأرض ثانية بعناية، وكأنها مصنوعة من الزجاج. يذهب إلى المصباح ويجذب المعطف المثبت على العيدان حتى يوقعه فيذهب كاش ويثبّته مرة أخرى.

يقول كاش: «اذهب إلى البيت». يقود بابا إلى المنزل ويعود مع المعطف ويفرده ويضعه تحت المخبأ حيث وضع القنديل. لم يتوقف فرنون عن النشر بل راح ينظر إلى الأعلى وهو لا يزال ينشر.

يقول: «كان يتوجب عليك أن تفعل ذلك أولاً. كنت تعرف أن المطر سيهطل».

يقول كاش: «إنها حُمّاه» ثم ينظر إلى اللوح.

يقول فرنون: «أجل. كان سيأتي على أية حال».

ينظر كاش شزراً إلى اللوح. على الحافة الطويلة للوح يحدث المطر ضجيجاً ثابتاً وافراً، متموّجاً. يقول «سأسحجه».

يقول فرنون: «سيحتاج إلى المزيد من الوقت». يضع كاش اللوح على الحافة. بعد لحظة يراقبه فرنون، ثم يسلّمه المسحاج.

يثبت فرنون اللوح بينما يسحج كاش حافته بالعناية الدقيقة المضجرة التي يتمتع بها الجوهري. تأتي السيدة تل إلى آخر الرواق وتنادي على فرنون: «هل بقي الكثير؟».

لا يتطلع فرنون إلى الأعلى. «لم يبقَ الكثير، القليل فحسب».

تراقب كاش وهو ينحني فوق اللوح، الوهج المتورم المتوحش للقنديل ينزلق على المعطف وكاش يتحرك. تقول: «انزل وأحضر بعض الألواح من الحظيرة وانْهِ هذا (التابوت)»[1] ثم أدخل لتحتمي من المطر. ستصابان كلاكما بالبرد وتموتان». لا يتحرك فرنون. تقول «يا فرنون».

يقول: «لن يطول الأمر، سننتهي بعد فترة». تراقبهما السيدة «تل» لفترة. ثم تعود لتدخل إلى المنزل.

يقول فرنون: «إذا أُحرجنا نستطيع أن نأخذ بعض الألواح. سأساعدك على إعادتها».

يتوقف كاش عن السحج وينظر إلى اللوح على امتداده وهو يمسحه بكفه، يقول: «أعطني اللوح التالي».

مع اقتراب الفجر يتوقف المطر. ولكن النهار لم يكن قد حل بعد حين يضرب كاش آخر مسمار ثم ينهض بتصلّب وينظر إلى التابوت المنتهي، والآخرون يراقبون معه. في ضوء القنديل يبدو وجهه هادئاً مفكراً. يربت بيديه ببطء على فخذيه المستورين بالمعطف الواقي من المطر بحركة متأنية، نهائية وهادئة. ثم يقوم أربعتهم: كاش وبابا وفرنون وبيبودي برفع التابوت على أكتافهم ويستديرون نحو المنزل. إنه خفيف، ومع ذلك فإنهم يتحركون ببطء. إنه فارغ، ومع ذلك يحملونه بعناية، إنه بلا حياة ومع ذلك يتحركون وهم يتهامسون

1 ـ إضافة من المترجم.

بحذر، ويتحدثون عنه كأنه بعد أن اكتمل صنعه، ينام الآن حيّاً بخفة، منتظراً الإستيقاظ، على الأرضية المعتمة للمنزل يمشون بتثاقل واضطراب وكأنما لم يمشوا على أرضية منزل منذ أمد بعيد. يضعونه قرب السرير. يقول بيبودي بهدوء: «فلنتناول وجبة خفيفة. لقد حل النهار تقريباً. أين كاش؟».

لقد عاد إلى جحوش النجارة وها هو ينحني مرة أخرى تحت وهج القنديل الضعيف وهو يجمع أدواته ويمسحها على قطعة قماش بعناية، ثم يضعها في الصندوق ذي الحمالة التي توضع على الكتف لحمله. ثم يحمل الصندوق والقنديل والمعطف ويعود إلى البيت وهو يصعد الدرجات وقد ارتسمت صورته الظليلة الباهتة على الشرق الآخذ بالشحوب.

في غرفة غريبة عليك أن تفرغ نفسك لتنام. وقبل أن تفرغ للنوم ما أنت، لم تكن قط؟ وحين تفرغ لللنوم. وحين تكون ممتلئاً بالنوم لم تكن أبداً. لا أعرف ما أنا. لا أعرف أن أكون أو لا أكون. جوويل يعرف أنه يكون، لأنه لا يعرف أنه يكون أو لا يكون. لا يستطيع هو أن يفرغ نفسه للنوم لأنه يكون ما يكونه وهو ما ليس يكون. وراء الجدار غير المضاء بالمصباح أستطيع سماع المطر وهو يشكّل عربتنا، والحمل الذي لم يعد لأولئك الذين قطعوا الشجر ونشروه، ولا هو لمن اشتروه ولا هو لنا أيضاً، ها هو الحمل قابع على عربتنا وها هما الريح والمطر يشعراننا بوجوده، أنا وجوويل، لأننا لسنا نائمين. وبما أن النوم يكون ليس كائناً والمطر والريح يكونان «كان» فهو ليس كائناً. ومع ذلك فالعربة «تكون»، لأنه

حين تكون العربة «كانت»، لن تكون آدي بندرن، وجوويل «يكون»، لذا يجب على آدي بندرن أن تكون، ويجب أن أكون أنا، أو أني لن أستطيع أن أفرغ نفسي للنوم في غرفة غريبة. ولذا إن لم أكن مفرَّغاً بعد فأنا أكون «يكون»، كم تمددت تحت المطر فوق سقف غريب مفكراً بالبيت.

كاش

لقد صنعته على كوس الزوايا.

1 = هناك المزيد من السطح لدق المسامير.

2 = هناك المزيد من مساحة الدق لكل شقّ.

3 = الماء سينز إلى داخله على نحو مائل. الماء يتحرك بسهولة قصوى نازلاً وصاعداً أو باستقامة.

4 = في المنزل الناس يكونون منتصبين معظم الوقت. لذا فإن الشقوق والمفاصل تصنع عمودية. فالضغط عمودي.

5 = في السرير حيث يتمدد الناس طوال الوقت تصنع الشقوق والمفاصل جانبية لأن الضغط جانبي.

6 = باستثناء.

7 = الجسد ليس مربعاً كالدعامة العرضانية.

8 = المغناطيسية الحيوانية.

9 = المغناطيسية الحيوانية للجسد الميت تجعل «الاجهاد» مائلاً لذا فإن الشقوق والمفاصل في التابوت تصنع على كوس الزوايا.

10 = يمكنك أن ترى في قبر عتيق أن الأرض تغرق عند الحافة.

11 = بينما في الحفرة الطبيعية تغرق عند المركز، فالاجهاد عمودي.

12 = لذلك صنعته على كوس الزوايا.

13 = هذا يجعل عملي أكثر اتقاناً.

فاردامان

أمي سمكة

تَـلْ

كانت الساعة هي العاشرة حين عدت مع بغلي بيبودي المربوطين إلى مؤخرة العربة. كان قد سبق لهم وسحبوا العربة ذات العجلات الأربع من حيث وجدها «كويك» وقد انقلبت عاليها سافلها وفرشخت فوق الحفرة على مسيرة ميل تقريباً من النبع. لقد تم سحبها بعيداً عن الطريق عند النبع، وقد سبق وتجمعت هناك حوال اثنتي عشرة عربة. كان كويك هو من وجدها. قال إن النهر كان قد سبق له وغطى أعلى علامة خلفها الماء على دعائم الجسر فلم يره بهذا الارتفاع من قبل أبداً، قلت: «لن يتحمل الجسر الكثير من الماء. هل سبق لآنس وعلم بذلك؟».

قال كويك: «لقد أخبرته. يقول أنه يعتقد أن الأولاد سمعوا بذلك وأفرغوا الحمولة وها هم في طريق العودة الآن. يقول إنهم يستطيعون أن يحمّلوا ويعبروا».

قال آرمستيد: «الأفضل له أن يدفنها في «نيوهوب». ذلك الجسر عتيق. ما كنت لأخاطر لو كنت في مكانه».

قال كويك: «إنه مصمّم على أخذها إلى «جيفرسون»».

قال آرمستيد: «إذن الأحرى به أن ينطلق بأسرع ما يستطيع».

يقابلنا آنس عند الباب. كان قد حلق لحيته ولكنه لم يتقن عمله إذ أن هناك جرحاً طويلاً على فكّه، وهو يرتدي بنطال يوم الأحد وقميصاً أبيض وقد زرّر طوق الرقة. القميص مشدود فوق حدبته مما جعلها تبدو أكبر من السابق، كما هو شأن القمصان البيضاء، كما يبدو وجهه مختلفاً أيضاً. إنه ينظر إلى الناس في أعينهم الآن، جليلاً، وجهه مأساوي وهادىء، يصافحنا بينما نصعد درجات الرواق ونمسح أحذيتنا، ونحن نشعر بأننا مقيدون بسبب ملابس الأحد التي ارتديناها، فقد كانت تحدث حفيفاً، ونحن لا ننظر إليه صراحة حين يقابلنا.

نقول: «الرب يعطي».

«الرب يعطي».

الولد ليس هناك. لقد حكى لنا بيبودي كيف أنه دخل إلى المطبخ وهو يصرخ ويتوعد ويرفع قبضته مهدّداً حين وجدها تطبخ تلك السمكة، وكيف أخذته ديووي ديل إلى الحظيرة. يقول بيبودي: «هل بغلاي على ما يرام؟».

أقول له: «على ما يرام. لقد علفتهما هذا الصباح. عربتك تبدو في حالة جيدة أيضاً. لم تتضرر».

يقول: «لم تكن تلك غلطة أي شخص. مستعد أن أعطي خمسة سنتات لأعرف أين كان ذلك الصبي حين أفلت البغلان».

أقول: «إذا كان هناك كسر فسأصلحه لك».

تدخل النساء إلى المنزل. نستطيع سماعهن وهن يتحدثن ويروحن بالمراوح. تصدر المراوح الهفيف الهفيف الهفيف وهن يتحدثن، ويبدو حديثهن أشبه بطنين النحل في دلو الماء. يتوقف الرجال عند الرواق وهم يتحدثون قليلاً دون أن ينظر واحدهم إلى الآخر.

يقولون: «كيف حالك يا فرنون؟ كيف حالك يا تلْ؟».

«يبدو أنه سيهطل المزيد من المطر».

«هذه حقيقة».

«نعم يا سيدي. سيهطل المزيد من المطر».

«إنه يهطل بسرعة».

«ويتوقف ببطء. ولكنها تمطر».

أدور نحو الخلف. كاش يملأ الثقوب التي أحدثها في أعلاه. إنه يقلّم سدادات لها، كل واحدة على حدة، والخشب رطب ويصعب التعامل معه. كان بإمكانه أن يقص تنكة ويخفي تلك الثقوب وما كان هناك من سينتبه إلى الفرق. ما كان هناك من يهتم على أية حال. لقد رأيته ينفق ساعة كاملة وهو يقلّم وتداً واحداً كأنما كان يتعامل مع الزجاج، بينما كان يستطيع أن يتجول في أرجاء المكان فيلتقط عشران العيدان ويدفعها في المفصل وهكذا ينتهي الأمر.

حين ننتهي أعود إلى المقدمة. كان الرجال قد ابتعدوا قليلاً عن المنزل وجلسوا على نهايات الألواح الخشبية وجحوش النشر حيث صنعناه الليلة الماضية، كان البعض جالساً والبعض يقعي. لم يكن وايتفيلد قد حضر بعد.

يتطلعون إليّ وعيونهم تسأل.

أقول: «كاد ينتهي. إنه يستعد للتثبيت بالمسامير».

وبينما راحوا ينهضون يصل آنس إلى الباب وينظر إلينا ونعود إلى الرواق، نمسح أحذيتنا مرة أخرى، بعناية، وينتظر واحدنا الآخر ليدخل أوّلاً، ونحن نتحرك عند الباب من غير نظام، يقف آنس داخل الباب، جليلاً، هادئاً، يلّوح لنا أن ندخل ويقودنا إلى داخل الغرفة.

كانوا قد وضعوها فيه في وضع معكوس. كان كاش قد جعل له شكلاً أشبه بساعة الحائط وكل مفصل وشق مسحوج ومحكوك بالمسحاج كان محكماً كالبرميل ونظيفاً كسلة حياكة، وكانوا قد وضعوها فيه على نحو معكوس حتى لا يتكسّر ثوبها. كان ذاك هو ثوب زفافها وكانت له مؤخرة متماوجة، وكانوا قد وضعوها على نحو معكوس حتى يمكن نشر ثوبها، وكانوا قد صنعوا لها وشاحاً من قماش الناموسية حتى لا تظهر الثقوب التي أحدثها المثقاب في وجهها.

وبينما نحن نخرج يدخل وايتفيلد. إنه مبلل وقد غطّاه الوحل حتى خصره. يقول: «فليمنح الرب السلوان لهذا البيت. لقد تأخرت لأن الجسر قد انهار. لقد مضيت حتى المخاضة القديمة وسبحت بحصاني عبرها، والرب قد حماني، فلتنزل رحمته على هذا البيت».

نعود إلى الطاولات المنصبية ونهايات الألواح ونجلس أو نقعي.

يقول آرمستيد: «كنت أعرف أنه سينهار».

يقول كويك: «لقد كان هناك منذ زمن طويل، ذلك الجسر».

يقول العم بيلي: «تعني أن الله حفظه. لا أعرف أن هناك

رجلاً ضرب فيه مسماراً منذ خمسة وعشرين عاماً».

يقول كويك: «منذ متى وهو هناك يا عم بيلي؟»

يقول العم بيلي: «لقد بني عام... دعني أتذكر... لقد بني عام 1888، وأنا أتذكر ذلك لأن أول رجل عبره كان بيبودي الذي جاء إلى بيتي لدى ولادة جودي».

يقول بيبودي: «لو أني عبرته في كل مرة ولدت فيه زوجتك منذ ذلك الحين لكان قد تداعى قبل الآن بزمن طويل يا بيلي».

نضحك، بصوت مرتفع فجأة، ثم نصمت فجأة، ينظر واحدنا إلى الآخر جانبياً.

يقول هيوستون: «لقد عبره كثيرون من الناس ممن لن يعبروا أية جسور أخرى بعد الآن».

يقول ليتلجون: «هذه حقيقة، الأمر كذلك»

يقول آرمستيد: «هناك شخص آخر لن يعبر مرة أخرى على أية حال. سيحتاجون إلى يومين أو ثلاثة حتى يوصلوها بتلك العربة إلى المدينة. سيكون عليهم أن يغيبوا أسبوعاً كاملاً قبل أن يصلوا بها إلى جيفرسون ثم يعودوا».

يقول هيوستون: «ولماذ يلح آنس إلى هذا الحد على أخذها إلى جيفرسون على أية حال؟».

أقول: «لقد وعدها. لقد أرادت ذلك. إنها من هناك أصلاً، كانت مصممة على ذلك».

يقول العم بيلي: «نعم. هذا أشبه برجل ترك كل شيء يسير كما

يشاء خلال حياته ثم ها هو يصمم على شيء سيسبب الإزعاج لكل من يعرفه».

يقول بيبودي: «حسناً، الرب وحده يستطيع جعلها تعبر ذلك النهر الآن. لا يستطيع آنس ذلك».

يقول كويك: «وأعتقد أن الرب سيفعل فهو يعتني بآنس منذ زمن طويل».

يقول ليتلجون: «هذا صحيح».

يقول آرمستيد: «لم يعد ممكناً أن يتخلى عنه الآن بعد كل هذا الزمن».

يقول العم بيلي: «أعتقد أن الرب يشبه كل من هم من حولنا هنا. لقد مارس هذا فترة طويلة بحيث لن يتخلى الآن عنه».

يخرج كاش. يرتدي الآن قميصاً نظيفاً، شعره المبلل ممشط الآن وقد تهدل فوق جبينه، ناعماً وأسود كأنه قد طلاه كالدهان فوق رأسه. يقعي بتصلّب بيننا، ونحن نراقبه.

يقول آرمستيد: «أنت تشعر بهذا الطقس، أليس كذلك؟»

لا يقول كاش شيئاً.

يقول ليتلجون: «من له عظمة سبق أن كسرت يشعر بهذا الطقس. الشخص ذو العظمة المكسورة يستطيع أن يتنبأ به».

يقول آرمستيد: «من حسن حظ كاش أن خرج بعظمة مكسورة لا غير. كان محتملاً أن يبقى قعيد الفراش. كم كان الارتفاع الذي سقطعت منه يا كاش؟».

يقول كاش: «ثمانية وعشرون قدماً وأربع بوصات ونصف تقريبا»، أقترب أنا منه.

يقول كويك: «لا شك أن قدم المرء قد تزلّ بسرعة فوق الألواح الرطبة».

أقول: «هذا سيئ جداً، ولكن ما كان بإمكانك أن تفعل شيئاً حيال ذلك».

يقول: «السبب هو أولئك النساء اللعينات. لقد صنعته بحيث يناسبها لقد صنعته وفق مقاسها ووزنها».

«إذا كان يلزم لسقوط الناس وجود ألواح مبللة، فلا شك أن الكثير من السقوط سيحدث قبل انقضاء هذه الفترة».

أقول: «ما كان يمكنك أن تفعل أي شيء حيال ذلك؟».

«لا يهمني سقوط الناس. إن ما يهمني هو القطن والذرة».

ولا يهتم بيبودي أيضاً بسقوط الناس. ما رأيك أيها الدكتور؟

إنها حقيقة. ستنجرف من على وجه الأرض. يبدو وكأن شيئاً ما يحدث لها باستمرار. طبعاً. ولذا فإنها تساوي أي شيء. وإذا لم يحدث شيء وجمع كل واحد محصولاً كبيراً فهل تعتقد أن الأمر يستحق الزراعة؟

حسناً، فلتنزل عليّ اللعنة لو كنت أحب أن أرى عملي وقد انجرف من على وجه الأرض، العمل الذي كدحت فيه.

إنها حقيقة. لن يكترث المرء برؤيتها تنجرف لو كان بمقدوره أن يتحكم بالمطر بنفسه.

ومن هو ذاك الذي يستطيع أن يفعل ذلك؟ أين هو لون عينيه؟

أجل. الرب جعله ينمو. وهو سيجرفه لو رأى ذلك مناسباً».

أقول: «ما كان يمكنك شيئاً حيال ما حدث».

يقول: «إنهن أولئك النسوة اللعينات».

في المنزل تبدأ النسوة بالغناء. نسمع أول بيت[1] ثم يتعاظم الغناء وقد استحوذ عليهن، وننهض نحن ونتحرك باتجاه الباب، وقد خلعنا قبعاتنا ورحنا نبصق مضغاتنا. لا ندخل. نتوقف عند الدرج، متثاقلين وممسكين بقبعاتنا بين أيدينا المسترخية أمامنا أو خلفنا، نقف بقدم متقدمة نحو الأمام ورؤوسنا مطأطأة، ننظر جانبياً، نحو قبعاتنا التي بين أيدينا وإلى الأرض أو إلى السماء بين الفينة والأخرى أو إلى وجوه بعضنا البعض، الوجوه الوقورة الهادئة.

تنتهي الأغنية، تتهدج الأصوات وهي تتوقف تدريجياً وقفة قوية ختامية. يبدأ الآن وايتفيلد. صوته أكبر منه. يبدو صوته وكأنه ليس له الأمر أشبه بمن له كينونة مستقلة ولصوته كينونة أخرى، وهما يسبحان على حصانين الواحد إلى جانب الآخر عبر المخاضة وهما يدخلان المنزل، ذاك الذي لطخه الوحل والآخر الذي لم يصب بالبلل إطلاقاً، منتصرين وحزينين. تبدأ إحداهن بالبكاء في داخل المنزل. يبدو وكأن قد انقلب عيناها وصوتها إلى داخلها، وراحت تصغي؛ نتحرك نحن، ننقل ثقلنا من قدم إلى أخرى، ويقابل كل منا الآخر بعينيه ونتظاهر بأنها لم تتلامس.

يتوقف وايتفيلد أخيراً. تغني النساء مرة أخرى. ضمن الهواء الثقيل تبدو أصواتهن وكأنها تخرج من الهواء وتتدفق معاً ثم تفيض بالألحان الحزينة المؤاسية. وحين تتوقف الأصوات تظلّ عالقة كأنها

1ـ يقصد من أبيات الترنمية. (المترجم).

لم ترحل. تبدو كأنها قد اختف في الهواء وحين نتحرك سنفقدها ثانية في الهواء المحيط بنا، حزينة ومؤاسية. ثم ينتهين ونرتدي قبعاتنا، حركاتنا متصلبة، كأنما لم يسبق لنا أن ارتدينا قبعات من قبل.

في الطريق إلى البيت لا تزال كورا تغني قائلة: «أقصد ربي وجزائي» وهي جالسة فوق العربة والشال حول كتفيها والممطرة مرفوعة فوقها، رغم أن المطر ما كان يهطل.

أقول: «جزاؤها معها، أنّي ذهبت فإن جزاءها يتجلى في تحررها من آنس بندرن».

«تمددت هناك ثلاثة أيام في ذلك الصندوق، تنتظر حتى يعود دارل وجوويل إلى البيت ويحصلان على عجلة جديدة ثم يعودان إلى حيث العربة في الحفرة. قلت: خذ بغلي يا آنس. قال سننتظر حتى يصل بغلاي. ما كانت لترضى بغير ذلك. كانت دائماً امرأة خصوصية.

في اليوم الثالث عادا ثم حملاها في العربة وانطلقوا وإن كانوا متأخرين. عليكم الآن أن تدوروا من حول «جسر سامسون». ستطلب ذلك إنفاق يوم كامل حتى تصلوا إلى هناك. ثم سيكون أمامكم أربعون ميلاً حتى تصلوا جيفرسون. خذ بغلي يا آنس.

سننتظر حتى يصل بغلاي. ما كانت لترضى بغير ذلك».

كنا على مسافة ميل واحد من البيت حين رأيناه جالساً على طرف المستنقع. لم يسبق لي أن عرفت أن فيه سمكة واحدة. التفت نحونا، عيناه مستديرتان وهادئتان، ووجهه قذر، والقصبة بين ركبتيه. كانت كورا لا تزال تغني.

أقول: «ليس هذا يوماً جيداً للصيد. تعال معنا إلى البيت ثم

ستذهب إلى النهر في الصباح الباكر وتصطاد بعض السمك».

قال: «إنها هنا. رأتها ديووي ديل».

«تعال معنا. النهر أفضل مكان».

قال: «إنها هنا. رأتها ديووي ديل».

كانت كورا تغني: «أقصد ربي وجزائي».

دارل

أقول: «ليس حصانك هو الميت». يجلس منتصباً على المقعد، وقد انحنى قليلاً نحو الأمام، متخشب الظهر. كانت حافة قبعته قد اهترأت حتى قمتها في مكانين، وها هي تتهدّل فوق وجهه المتخشب بحيث كان يستطيع، ورأسه مطأطئة، أن ينظر عبرهما كأنما هو ينظر من خلال مقدّم خوذة، وها هو يتطلع طويلاً عبر الوادي إلى حيث تستند الحظيرة على الجرف العالي مشكّلة الحصان اللامرئي. أقول: «هل تراها إذاً؟» عالياً فوق المنزل، مقابل السماء السميكة الرشيقة، ها هي معلّقة في دوائر آخذة بالضيق. من هنا تبدو مجرد نقاط، تبدو عنيدة، صبورة، رائعة. «ولكنه ليس حصانك ذاك الذي مات».

يقول: «ليلعنك الله».

لا أستطيع أن أحب أمي لأنه ليس لي أم. أم جوويل حصان. دون حراك، ها هي الصقور الحوّامة العالية معلّقة في دوائر محلّقة، والغيوم تمنحها وهم التراجع. دون حراك، بظهر متخشّب، ووجه متخشّب، ها هو يوجه الحصان وقد انحنى متصلباً كأنه باز ذو جناحين لهما

شكل الخطاف. إنها في انتظارنا، مستعدة لعملية نقلها، في انتظاره. يدخل الحظيرة وينتظر حتى يرفسه وذلك حتى يستطيع أن ينزلق ماراً به ثم يصعد إلى الجرن ويتوقف، محدقاً عبر أعالي الحظيرة المتداخلة نحو الممر الفارغ، وذلك قبل أن يمد يده إلى العلّية.

«فليلعنه الله. فليلعنه الله».

كاش

«لن يكون متوازناً. إذا أردته أن يحمل وأن يركب متوازناً سيكون علينا أن...»

«ارفع. لعنك الله، ارفع».

«أقول لك أنه لن يحمل ولن يركب متوازناً ما لم...»

«ارفع! ارفع، لعن الله روحك الغليظة حتى جهنم، ارفع!» إنه لا يتوازن. إذا أرادوه أن يحمل وأن يركب متوازناً سيكون عليهم أن...

دارل

ينحني بيننا فوقه[1] يدان بين ثماني أيدي. في وجهه يتحرك الدم على موجات. وبينها يبدو لحمه أميل إلى اللون الأخضر، الأشبه بخضرة جِرّة[2] البقرة، تلك الخضرة اللطيفة السميكة الفاتحة: وجهه مختنق، غاضب، شفته مرفوعة تكشف عن أسنانه يقول: «ارفعوا! ارفعوا، فليلعن الله روحكم الغليظة!».

يرفع، حاملاً جانباً كاملاً لوحده على نحو فجائي إلى حد أننا قفزنا جميعاً لنرفع معه ونوازنه[3] قبل أن يقلبه تماماً. للحظة قَاوَمنا وكأنما إرادياً، وكأنما كان جسدها النحيل في داخله قد راح يتشبث بعناد، رغم موتها، بنوع من الحشمة، كأنما حاولت أن تخفي ثوباً متسخاً لم تستطع أن تمنع جسدها من توسيخه. ثم تحرّر، ارتفع فجأة وكأن هزال جسدها قد أضاف إلى الألواح الخشبية صفة الطّفَويّة أو كأنما اندفعت فجأة خلف ثوبها إذ رأت أنه يكاد يقتلع عنها في انعكاس متقد يهزأ من رغبته وحاجته. يصبح وجه جوويل

1 ـ يقصد التابوت. (المترجم).
2 ـ الجرة: جزء من الطعام المجتر يعيده الحيوان المجتر من معدته الأولى إلى فمه ليمضغه ثانية. (المترجم).
3 ـ يقصد التابوت. (المترجم).

أخضر تماماً وأستطيع أن أسمع صرير أسنانه مع أنفاسه.

نحمله إلى البهو، أقدامنا قاسية ومضطربة على الأرض، نتحرك بخطوات متثاقلة ثم نعبر الباب.

يقول بابا وهو يحرّر يديه: «إنتظروا قليلاً». يلتفت ليغلق الباب ويوصده بالمفتاح، ولكن جوويل لا يريد الانتظار.

يقول بذلك الصوت المختنق: «هيا، هيا».

نخفضه بعناية ونحن ننزل الدرجات. نتحرك ونحن نوازنه وكأنه شيء ذو قيمة لا متناهية، وقد أشحنا وجوهنا بعيداً ونحن نتنفس عبر أسناننا حتى نبقي مناخرنا مغلقة. نسير على امتداد الممر نحو المنحدر.

يقول كاش: «أفضل أن ننتظر. أقول لكم إنه ليس متوازناً الآن، نحتاج إلى يد أخرى حين نصعد تلك التلة».

يقول جوويل: «إذن، ارفع يديك عنه». إنه لا يريد أن يتوقف. يبدأ كاش بالتخلف عنا، يعرج محاولاً أن يجارينا وهو يتنفّس بصعوبة؛ ثم يبتعد وها هو جوويل يحمل المقدمة كلها وحده، وبذلك، فإنه إذ أخذ يميل مع انحدار الممر، يبدأ أحياناً بالاندفاع مبتعداً عني وها هو ينزلق فوق الهواء كأنه مزلقة فوق ثلج غير مرئي تقوم بهدوء بإفراغ الجو الذي لا زال الإحساس به متشكّلاً.

أقول: «انتظر يا جوويل». ولكنه لا يريد أن ينتظر. إنه يكاد يعدو الآن وكاش وراءنا لا يستطيع اللحاق بنا. يبدو لي أن الطرف الذي أحمله الآن لا وزن له، وكأنه يهبط بفعل الجاذبية كقشة مندفعة فوق تيار اليأس الغاضب الخاص بجوويل. أنا لا ألمسه الآن حتّى بينما يقوم هو بالالتفات ثم يرمي به متأرجحاً، يوقفه ثم يطرحه في حوض العربة بالحركة نفسها ويلتفت إليّ ووجهه مخضّب بحمرة الغضب واليأس.

«ليلعنكم الله. ليلعنكم الله».

فاردامان

نحن ذاهبون إلى البلدة. تقول ديووي ديل إنه لن يباع لأنه من أملاك «سانتا كلوز» (بابا نويل) وأنه قد احتفظ به معه حتى عيد الميلاد القادم. عندها سيكون خلف الواجهة مرة أخرى، يلتمع من الانتظار.

بابا وكاش ينزلان التلة، ولكن جوويل ذاهب إلى الحظيرة. يقول بابا: «يا جوويل». ولكن جوويل لا يتوقف. يقول بابا: «إلى أين تذهب؟» ولكن جوويل لا يتوقف. يقول بابا: «دع ذلك الحصان هنا». يتوقف جوويل وينظر إلى بابا. تبدو عينا جوويل كأنهما بليتان من بلى الأطفال. يقول بابا: «دع ذلك الحصان هنا. سنذهب جميعنا بالعربة مع ماما، كما أرادت هي».

ولكن أمي سمكة. لقد رآها فرنون. كان هناك.

قال دارل: «أم جوويل حصان».

قلت: «إذن يمكن لأمي أن تكون سمكة، أليس كذلك يا دارل؟».

جوويل أخي.

قلت: «إذن أمي يجب أن تكون حصاناً أيضاً».

قال دارل: «لماذا؟ إذا كان بابا هو أبوك، فلماذا تكون أمك حصاناً لأن أم جوويل حصان؟».

قلت: «لماذا؟ لماذا يا دارل؟».

دارل أخي.

قلت: «إذن ما هي أمك يا دارل؟»

قال دارل: «لم تكن لي أم أبداً. لأنه لو كانت لي أم فهي تكون «كانت» وإن تكن كانت، فلا يمكنها أن تكون تكون. هل يمكن ذلك؟».

قلت: «لا».

قال دارل: «إذن أنا لست أكون. هل أكون؟».

قلت: «لا».

أنا كذلك. دارل أخي.

قلت: «ولكنك تكون يا دارل».

قال دارل: «أعرف ذلك. ولذلك فأنا لست «يكون». يصعب على امرأة واحدة أن تلد كل هذه «اليكونات»».

كاش يحمل صندوق عدته. ينظر بابا إليه. يقول كاش: «سأتوقف عند بيت «تَل» في طريق العودة. سأتابع إصلاح سقف حظيرته».

يقول بابا: «ليس هذا لائقاً. إنها إهانة لها ولي».

يقول دارل: «هل تريده أن يقطع كل ذلك الطريق إلى هنا ثم يحمل صندوق العدة على قدميه حتى بيت «تَل»؟». ينظر بابا إلى

دارل وفمه يمضغ. بابا يحلق وجهه كل يوم الآن لأن أمي سمكة.

يقول بابا: «هذا غير لائق».

تحمل ديووي ديل الصرة بيدها. كما تحمل السلة وفيها غداؤنا.

يقول بابا: «ما هذا؟»

تقول ديووي ديل وهي تصعد إلى العربة: «كعكات السيدة تل: سآخذها إلى البلدة لأبيعها لأجلها».

يقول بابا: «هذا غير لائق. إنه إهانة للميتة».

سيكون هناك. تقول إنه سيكون هناك حين يأتي عيد الميلاد؛ ملتمعاً فوق السكة. تقول إنه لن يبيعه لأي من صبية المدينة.

دارل

يستمر بالذهاب إلى الحظيرة، ويدخل إلى فسحة الأرض متخشب الظهر.

تحمل ديووي ديل السلة بذراع واحدة وفي الأخرى شيئاً ما ملفوفاً على شكل مربّع في جريدة. وجهها هادىء وكئيب، عيناها متأملتان يقظتان؛ داخلهما أستطيع أن أرى ظهر بيبودي كحبّتي بازلاء في كشتبانين: ربما في ظهر بيبودي دودتان من تلك الديدان التي تعمل خفية إنما بثبات فتخترقك وتخرج من الطرف الآخر وأنت تستيقظ فجأة من النوم أو من اليقظة، وعلى وجهك تعبير مفاجىء، مصمّم ومهتم. تضع السلّة في العربة وتصعد إليها، وساقها تبدو طويلة من تحت ثوبها الضيق: تلك العتلة التي تحرك العالم، أحد طرفيّ ذلك المِسْماك[1] الذي يقيس طول وعرض العالم. تجلس فوق المقعد إلى القرب من فارداماان وتضع الصرّة على حضنها.

ثم يدخل هو إلى الحظيرة. لم ينظر إلى الخلف.

يقول بابا: «ليس هذا لائقاً. هذا شيء قليل من واجبه تجاهها».

---

1 ـ أداة لقياس سماكة أو ثخانة الشيء. (المترجم).

يقول كاش: «هيا، اتركه هنا إن أراد ذلك، سيكون على ما يرام هنا، ربما سيذهب إلى بيت «تَل» ويبقى عنده».

أقول: «سيلحق بنا، سيأخذ الطريق المختصر ويلاقينا عند ممر «تَل»».

يقول بابا: «ربما كان سيحرّر ذلك الحصان أيضاً، لولا أني أوقفته. مخلوق مرقط لعين أكثر بريّة من القطط. هذه إهانة متعمّدة لها ولي».

تتحرك العربة، تبدأ آذان البغال بالاهتزاز خلفنا، فوق المنزل، ها هي في دوائر ساكنة وعالية ومحلقة، تتضاءل وتتلاشى.

آنس

قلت له ألاّ يخرج الحصان احتراماً لأمه المتوفاة، لأن ذلك لن يبدو لائقاً، أي أن يتبختر على حصان سيرك لعين وهي التي تريدنا أن نكون جميعاً في العربة معها، نحن الذين من لحمها ودمها، ولكننا ما أن مررنا بممر «تل» حتى بدأ دارل يضحك. ها هو يجلس هناك على المقعد المصنوع من لوح خشبي مع كاش، وأمه الميتة ممّددة في تابوتها عند قدميه، وهو يضحك. كم مرة قلت له إن ارتكاب مثل هذه الأمور هي التي تجعل الناس يتحدثون عنه، لا أعرف كم مرة. أقول إني أهتم بعض الشيء بما يقوله الناس عن لحمي ودمي حتى لو لم تكن أنت تهتم بذلك، وحتى لو كنت أنا من ربّى مثل هذه المجموعة اللعينة من الأولاد، وحين تتصرف بحيث تجعل الناس يقولون مثل ذلك الكلام عنك، فهذا ينعكس على أمك، أقول، وليس عليّ أنا: فأنا رجل وأستطيع تحمّل ذلك، ولكن ذلك ينعكس على النساء: على أمك وأختك اللتين يجب أن تهتم بهما. ثم التفت ونظرتُ إلى الخلف باتجاهه وهو جالس هناك يضحك.

أقول: «لا أتوقع منك أن تحترمني. ولكن أن تحترم أمك التي لم تبرد في التابوت بعد».

يقول كاش: «هناك»، وذلك وهو يشير برأسه إلى الممر. لا زال الحصان بعيداً عنا، ولكنه يأتي مسرعاً، ولكنني لا أحتاج إلى أن يقال لي من هو. لقد نظرت إلى الخلف فحسب. نحو دارل، الجالس هناك وهو يضحك.

أقول: «لقد بذلت ما بوسعي. لقد حاولت أن أفعل ما كانت تريده هي، سيسامحني الرب ويعذرني على سلوك أولئك الذين وهبني إياهم». وها هو دارل يجلس على المقعد الخشبي فوقها تماماً حيث هي ممّددة ويضحك.

دارل

يجتاز الممر بسرعة، ولكننا كنا لا نزال بعيدين عن مدخله مسافة ثلاثمئة ياردة حين التفّ نحو الطريق، والطين يتطاير تحت الاندفاع المضطرب للحوافر. ثم يبطئ قليلاً، خفيفاً ومنتصباً في جلسته على السرج، والحصان يتبختر في الطين.

تَلْ في الفسحة أمام المنزل. ينظر إلينا، يرفع يده. نتابع السير والعربة تصرّ، والطين يهمس في العجلات. لا زال فرنون واقفاً هناك. يرقب جوويل وهو يمرّ، الحصان يتحرك بمشية رشيقة رافعاً ركبتيه عالياً ومندفعاً، إلى الخلف بمسافة ثلاثمئة ياردة. نتابع بحركة منوّمة جداً، حالمة جداً بحيث لا توحي بأي تقدم، وكأن الزمان وليس المكان هو الذي يتناقص بيننا وبينها.

تلتفّ بزوايا قائمة، وقد اندملت الآن الندوب التي خلفتها عجلات الأحد الماضي: جفاء ناعم أحمر ينحني حتى يختفي ضمن أشجار الصنوبر؛ لافتة بيضاء عليها أحرف باهتة: «كنيسة نيوهوب، ثلاثة أميال»ي تنعطف (اللافتة) منتصبة كيدٍ لا تتحرك رفعت فوق

القفر المحيطي العميق، ووراءها تتمدد الطريق الحمراء كشعاع دولاب تشكّل آدي بندرن إطاره. تبتعد فارغة غير ذات ندوب، وتلكِ اللافتة البيضاء بثقتها الهادئة الآخذة بالشحوب. ينظر كاش إلى ما تقدم من الطريق بهدوء، ورأسه تلتفت خلال مرورنا بها كَأنها رأس بومة، ووجهه هادىء. ينظر بابا باستقامة نحو الأمام وقد احدودب ظهره. تنظر ديووي ديل إلى الطريق أيضاً، ثم تعود لتنظر إلى الخلف نحوي، عيناها يقظتان وجاحدتان، ليس كذلك السؤال الذي كان في عيني كاش، وذلك لوهلة ذات غضب مكبوت. تمر اللافتة وتستمر الطريق غير ذات الندوب. ثم تلتفت ديووي ديل برأسها. العربة تستمر في سيرها وهي تصرّ وتصرف.

يبصق كاش على الدولاب. يقول «خلال يومين ستنبعث منه الرائحة النتنة».

أقول: «يمكنك أن تقول ذلك لجوويل».

هو بلا حراك الآن، وها هو جالس على الحصان عند ملتقى الطرق، ها هو منتصب، يراقبنا، ليس أقل ثباتاً من اللافتة التي ترفع علم استسلامها الباهت على الطرف المقابل له.

يقول كاش: «ليس متوازناً على نحو مناسب لرحلة طويلة».

أقول: «قل له ذلك أيضاً». العربة تستمر في السير وهي تصرّ.

على مسافة ميل آخر يمر بنا، الحصان، مقوّس العنق، وقد لجم بحيث راح يخب خبباً، يجلس بخفة، منتصب الظهر، ووجهه متخشّب، وذلك فوق السرج، والقبعة المحطمة ممالة بزاوية تدل على التبجّح. يمر بسرعة دون أن ينظر إلينا، والحصان يسير وقد راحت

حوافره تهسهس في الطين، لطخة من الطين، تُرمى إلى الخلف، فتسقط على التابوت. ينحني كاش إلى الأمام ثم يتناول أداة من صندوق عدته ويزيلها بعناية. وحين يمر الطريق بـ «وايتليف»، والصفصاف يميل قريباً منا إلى حد كاف. يقتلع غصناً وينظف البقعة بالأوراق الرطبة.

آنس

إنها لبلد تقسو على الإنسان، إنها لقاسية. ثمانية أميال من كدح جسده اكتسحت من على وجه أرض الرب، من حيث أمره الرب نفسه أن يبذله. لا مكان في هذا العالم المترع بالخطيئة يستطيع فيه رجل شريف كادح أن يكسب. الأمر في يد أولئك الذين يديرون المخازن في المدينة، الذين لا يكدحون أبداً، ويعيشون على حساب الكادحين. ليس الأمر في يد الرجل الكادح، المزارع. أحياناً أتساءل: لماذا نستمر في عملنا. نفعل ذلك لأن لنا ثواباً على ذلك هناك في الأعالي، حيث لا يستطيعون أن يصطحبوا سياراتهم وما شابه. سيكون الجميع متساوين هناك وسوف يأخذ الرب ممّن يملكون ويعطي لي من لا يملكون.

ولكنه انتظار طويل، هكذا يبدو. وإنه لأمر طالح أن يضطر المرء إلى كسب جزاء عمله الطيب عن طريق إهانة نفسه وموتاه. سرنا بقية النهار كله ووصلنا إلى بيت سامسون وعندها كان ذلك الجسر قد تداعى أيضاً. لم يسبق لأحد أن رأى النهر عالياً إلى هذا الحد، والمطر لم يتوقف بعد حتى. كان هناك رجال مسنون لم يسبق لهم أن رأوا أو

سمعوا عن مثل هذا الفيضان في ذاكرة الناس. أنا المختار من الرب، الذي يحبه الرب، ويعاقبه بالتالي. ولكن فلتنزل عليّ اللعنة إن لم تكن له أساليبه العجيبة في إظهار ذلك، هكذا يبدو لي.

ولكني أستطيع الحصول عليه، طقم الأسنان ذاك. سيكون في ذلك راحة لي. لا شك.

سامسون

كان الوقت قبيل الغروب. كنا جالسين على الرواق حين صعدت العربة الطريق وخمستهم فيها وذاك الآخر على الحصان في الخلف. رفع أحدهم يده، ولكنهم كانوا يمرون بالمخزن دون توقف.

يقول ماك كالوم، وأنا لا أستطيع أن أتذكر إسمه الأول، إذ هو الأخ التوأم لـ «رايف»: «من هؤلاء؟».

يقول كويك: «إنهم عائلة بندرن، من ما وراء «نيوهوب». ها هو جوويل يركب أحد أحصنة «سنوبس»».

يقول ماك كالوم: «ليس في علمي أن أياً من تلك الأحصنة قد بقي هنا، فقد اعتقدت أنكم قد نجحتم أخيراً في التخلص منها».

يقول كويك: «حاول فحسب أن تمسك بهذا». والعربة تابعت مسيرها.

أقول: «أراهن على أن «لون» العجوز لم يعطه إياه أبدا».

يقول كويك: «لا، لقد اشتراه من بابا». تابعت العربة

المسير. «يبدو أنهم لم يسمعوا بما حدث للجسر».

يقول ماك كالوم: «ما الذي يفعلونه هنا على أية حال؟».

يقول كويك: «ربما يتمتع بالعطلة بعد أن دفن زوجته كما أعتقد. إنهم يتجهون إلى المدينة كما أرى مع أن «جسر تَل» قد انهار أيضاً. هل عرفوا يا تُرى بأمر الجسر؟».

أقول: «سيضطرون إلى الطيران إذن، فلا أعتقد بوجود جسر بين هنا ومصب ايشاتاوا».

كان معهم شيء ما في العربة، ولكن كويك كان في الجنازة منذ ثلاثة أيام ولذا لم يخطر لنا أبداً شيء حول الموضوع باستثناء أنهم كانوا يبتعدون عن البيت في وقت متأخر من النهار وأنهم لم يسمعوا بأمر الجسر.

يقول ماك كالوم: «الأفضل أن تصرخ بهم». اللعنة، الاسم على رأس لساني بالضبط. لذا يصرخ كويك فيتوقفون ويذهب هو إلى العربة فيخبرهم.

يعود معهم. يقول «إنهم متجهون إلى جيفرسون. الجسر عند بيت تَلْ قد انهار أيضا». لكأننا لم نكن نعرف ذلك! وقد بدا وجهه مضحكاً، عند المنخرين، ولكنهم كانوا جالسين هناك، بندرن والفتاة والغلام على المقعد، وكاش وذاك الآخر، ذاك الذي يتحدث الناس عنه، على لوح خشبي عبر الباب الخلفي للعربة، وذاك الآخر على ذلك الحصان المرقط. ولكني أعتقد أنهم قد اعتادوا الأمر الآن لأني حين قلت لكاش إن عليهم أن يمروا بنيوهوب مرة أخرى وشرحت ما الذي يجدر بهم أن يفعلوه، قال:

«أعتقد أننا نستطيع الوصول إلىَ هناك».

لا أحب التطفّل كثيراً. فليهتم كل شخص بشأنه كما يبغي، هذا ما أقوله. ولكنني بعد أن تحدثت إلى راتشيل عنهم وكيف أنه ليس لديهم رجل أخصائي يحنّطها وأن الشهر هو تموز (يوليو) وكل ما يتعلق بذلك، عدت إلى الحظيرة وحاولت التحدث إلى بندرن حول الموضوع.

يقول: «لقد وعدتها. كانت مصممة على ذلك».

ألاحظ كيف أن الرجل الكسول، الذي يكره الحركة، ما أن يبدأ التحرك حتى يكون مصمماً على الحركة، وبالتصميم نفسه الذي كان يجعله يمارس الكسل، وكأنه لا يكره الحركة بالذات إلى هذا الحد مثلما يكره البدء ثم التوقف. وكأنما هو فخور نوعاً ما بما حصل فجعل الحركة أو التوقف يَبْدُوان كأمر صعب. كان جالساً هناك على العربة، محدودب الظهر، يرمش بعينيه، ويصغي إلينا نحكي له كيف انهار الجسر بكل تلك السرعة وكم كان ارتفاع الماء، ولأُلْعَنْ إن لم يتصرف كأنه فخور بذلك، لكأنه هو الذي جعل منسوب النهر يرتفع.

يقول: «تقول إنك لم تره أبداً بمثل هذا الإرتفاع من قبل؟ حسناً إنها إرادة الله ولا مردّ لإرادته. أعتقد أنه لن ينخفض كثيراً قبل حلول الصباح».

أقول: «الأجدر بكم أن تبقوا هنا الليلة، ثم تنطلقون في الصباح الباكر غداً باتجاه نيوهوب». كنت أشعر بالحزن على البغلين النحيلين بارزي العظام. قلت لراتشيل «حسناً، هل كنت تريدنني أن أصدّهم في الظلام، وهم على بعد ثمانية أميال من بيتهم؟ ما الذي كنت

أستطيع فعله عدا ذلك؟ ستكون ليلة واحدة فحسب، وسوف يضعونه (التابوت)[1] في الحظيرة، وسوف يغادرون بكل تأكيد مع بزوغ الفجر». وهكذا قلت لهم: «امكثوا هنا الليلة ثم تنطلقون في الصباح الباكر باتجاه نيوهوب.

لدي ما يكفي من الوسائل ويستطيع الشبان أن يذهبوا بعد العشاء مباشرة فيحفرونه ويجهزونه إذا أرادوا». ثم اكتشفت أن الفتاة كانت تراقبني. لو كانت عيناها مسدّسين لما كنت معكم أتكلّم الآن. فَلْتُصِبْني اللعنة إن لم تلهباني بالنار. وهكذا حين ذهبت إلى الحظيرة ثم عدت كانت تتكلم ولم تلحظ وجودي وكانت تقول:

«لقد وعدتَها، رفضت الرحيل حتى وعدتَها. كانت تظن أنها تستطيع الاعتماد عليك. وإن لم تفعل ما يتوجب عليك فسوف تحلّ عليك اللعنة».

قال بندرن: «لا يمكن لأي امرىء أن يقول إني لا أريد الوفاء بعهدي. قلبي مفتوح لأي امرىء ويستطيع أن يرى ما فيه».

قالت: «لا يهمني ما في قلبك». كانت تهمس تقريباً وتتكلم بسرعة. «لقد وعدتها. عليك تنفيذ ذلك. أنت...» ثم رأتْني فصمتتْ، وهي واقفة هناك. لو كانتا مسدّسين لما كنت أتكلم الآن. لذا حين ذكرت الموضوع قال:

«لقد وعدتها. كانت مصممة على ذلك».

«ولكن يبدو لي أنها تفضل أن تدفن أمها قريباً من البيت حتى تستطيع...»

1 ـ إضافة من المترجم.

يقول: «لقد وعدتُ آدي. كانت مصممة على ذلك».

لذلك قلت لهم أن يضعوه في الحظيرة لأن المطر كان على وشك أن يهطل من جديد، وكان ذلك العشاء جاهزاً تقريباً. ولكنهم لم يكونوا راغبين في الدخول.

يقول بندرن: «أشكرك. لا يمكننا إزعاجك. لدينا بعض الطعام في السلة. نستطيع تدبير أمورنا».

أقول: «حسناً، طالما أنك تهتم كثيراً بنسائك، فأنا أيضاً من هذا النوع. وحين يتوقف الناس عند بابنا وقت العشاء ويرفضون الجلوس إلى مائدتنا، فإن زوجتي تشعر بالإهانة».

وهكذا ذهبت الفتاة إلى المطبخ لتساعد راتشيل ثم جاء جوويل إليّ.

أقول: «طبعاً. إذهب إلى مخزن التبن واعلفه حين تعلف البغلين».

يقول: «أفضل أن أدفع ذلك لقاء علفه».

أقول: «لماذا؟ ما كنت لأضنّ على رجل بعلف لحصانه».

يقول: «أفضل أن أدفع لك». وأعتقد أنه ذكر كلمة «المزيد».

أقول: «المزيد من أي شيء؟ ألن يأكل التبن والذرة؟».

يقول: «المزيد من العلف. أنا أطعمه المزيد قليلاً ولا أريده مديناً بالفضل لأي شخص».

أقول: «لا يمكنك شراء أي علف مني أيها الرجل. وإذا استطاع أن يأكل كل ما في مخزن التبن، فسأساعدك على أن تحمل كل ما تبقّى من تبن في الحظيرة على العربة في الصباح».

يقول: «لم يسبق له أن كان مديناً بالفضل لأي شخص. أفضل أن أدفع لك لقاء العلف».

أردت أن أقول له إني لو خُيِّرت لما كنت أُبقيه هنا اطلاقاً. ولكني قلت: «إذن، فالأفضل أن يبدأ. لا يمكنك شراء العلف مني».

حين جهزت راتشيل العشاء، ذهبت هي والفتاة وجهزتا بعض الأسرة. ولكن رفض أي واحد منهم الدخول. أقول: «لقد مر على موتها ما يكفي من الوقت للتغلب على مثل هذا النوع من الحماقة». فأنا أحترم الموتى بقدر ما يحترمه أي شخص آخر، ولكن عليك أن تحترم الموتى أنفسهم، وأفضل طريقة تحترم بها امرأة ميتة وضعت في التابوت منذ أربعة أيام هو دفنها بأسرع ما تستطيع. ولكنهم رفضوا ذلك.

يقول بندرن: «ليس هذا عدلاً. طبعاً إن كان الأولاد يريدون الذهاب إلى الفراش فأعتقد أني أستطيع أن أسهر معها. لن أضنْ عليها بذلك».

لذا حين عدت إلى هناك كانوا قد أقعوا على الأرض من حول العربة جميعهم. أقول: «دع ذلك الشاب يدخل إلى المنزل ولينل بعض الراحة بالنوم على أية حال». ثم أقول للفتاة: «والأجدر بك أنت أيضاً أن تدخلي». لم أكن أنوي التدخل في شؤونهم، ولم أفعل ما يُسيء إليها حسب علمي.

قال بندرن: «لقد سبق له ونام». كانوا قد وضعوه لينام في حوض في مربض فارغ.

أقول لها: «حسناً، تعالي إذن». ولكنها لم تجب بكلمة واحدة. ظلّوا

يقعون هناك فحسب. كنت لا تراهم إلا بالكاد. أقول: «وماذا عنكم أيها الشبان؟ لديكم عمل كثير غدا». وبعد فترة يقول كاش:

«أشكرك. نستطيع أن نتدبر أمورنا».

يقول بندرن: «لا نريد أن نشعر بالفضل لأحد. أشكرك من كل قلبي».

وهكذا تركتهم وهم يقعون هناك. أعتقد أنهم كانوا قد اعتادوا على ذلك بعد هذه الأيام الأربعة. ولكن راتشيل لم تكن كذلك.

تقول: «هذه إهانة. إهانة».

أقول «وما الذي يستطيع فعله؟ لقد وعدها».

تقول: «ومن الذي يتحدث عنه هو بالذات؟ من الذي يهتم به؟» تبكي. «أتمنى فقط لو أنك وهو وكل الرجال في العالم، أنتم يا من تعذبوننا أحياء وتهينوننا موتى، وأنتم تجرجروننا عبر البلاد كلها جيئة وذهاباً...».

أقول: «هوّني عليك. أنت منزعجة جدا».

تقولك «إياك أن تلمسني! إياكَ أن تلمسني!»

لا يمكن للرجل أن يتنبأ أبداً بطريقة تصرفهن. لقد عشت معها خمسة عشر عاماً ولتُصبْني اللعنة إن كنت أستطيع ذلك. وكنت أتخيل حدوث كثير من الأشياء بيننا. ولكن فلأُلْعَنْ إذا سبق لي وتصورتُ أن ذلك سيكون جثماناً ماتت صاحبته منذ أربعة أيام، وهو لامرأة. ولكنهن يجعلن الحياة تقسو عليهن إذا لا يتحملن حوادثها كالرجل، فهنّ يأخذن الأمور على علاتها.

وهكذا تمددت هناك وأنا أسمع المطر وقد بدأ يهطل، ومفكراً فيهم أولئك الذين في الخارج، إنهم يقعون حول العربة والمطر يهطل على السقف، وأفكر في راتشيل التي كانت تبكي هناك بل لقد كنت قادراً بعد فترة على سماعها تبكي حتى بعد أن نامت، بل وكنت أستطيع الإحساس بذلك حتى عندما كنت أعرف أني لا أستطيع. وما كنت أستطيع حتى آنذاك أن أقرر إن كنت أستطيع أم لا، أم إن لم يكن مجرد معرفة ذلك كل ما في الأمر.

لذا لم أذهب إلى هناك في صباح اليوم التالي. سمعتهم يشدّون البغلين إلى العربة ثم حين عرفت أنهم أصبحوا جاهزين للانطلاق، خرجت إلى مقدمة المنزل ومضيت إلى الطريق نحو الجسر حتى سمعت العربة تخرج من الفسحة أمام المنزل وتعود باتجاه «نيوهوب». ثم حين عدت إلى البيت هاجمتني راتشيل لأني لم أكن هناك لأدعوهم إلى الدخول وتناول الفطور. لا يمكنك أن تتنبأ بردود فعلهن. فحين تقرر أنت شيئاً هن يقررن شيئاً آخر، ولتصبني اللعنة إن لم يكن عليك أن تغيّر رأيك، بل وربما تكاد تفكر في أن تمسك بالسوط لأنك تظن أنهن يقصدن الإساءة.

ولكني كنت ما أزال قادراً على الإحساس بالموضوع. وهكذا قررت أنه ليس إحساساً به، بل إدراك وجوده هناك، كأنك ستُخدع بين لحظة وأخرى. ولكني حين مضيت إلى الحظيرة عرفت شيئاً مختلفاً. حين ولجت إلى المدخل رأيت شيئاً ما. وقد لاحظت أنه أقعى على ساقيه حين دخلت وظننت في البداية أنه أحدهم وقد خلفوه وراءهم، ثم رأيت من كان. كان ذلك صقراً محوماً وقد تلفّت ورآني ثم نزل إلى البهو وقد فرشخ ساقيه، وجناحاه مفتوحان نوعاً ما، وراح يراقبني

أولاً عبر إحدى كتفيه ثم عبر الآخر، كرجل عجوز أصلع الرأس. وحين وصل إلى الخارج بدأ يطير وقد اضطر إلى الطيران فترة طويلة قبل أن يحلق عالياً فقد كانت حبات المطر قد أثقلته.

إن كانوا مصممين على الذهاب إلى جيفرسون، فأعتقد أنهم كانوا سيلتفّون من حول «جبل فرنون»، كما فعل ماك كالوم. سيصل إلى البيت عند بزوغ النهار بعد الغد، على ظهر جواده. وعندها سيكونون على مسافة ثمانية عشر ميلاً من المدينة. ولكن إن كان ذلك الجسر قد انهار أيضاً فسيعلّمه ذاك حكمة الرب وقضاءه.

يا لماك كالوم ذاك. إنه يتاجر معي منذ اثني عشر عاماً. لقد عرفته منذ كان صبياً، أعرف إسمه كما أعرف اسمي. ولكن فلأُلْعنْ إن كنت أستطيع التلفّظ به.

ديووي ديل

نرى اللافتة. تطل على الطريق الآن لأنها لا تستطيع الانتظار . تقول «نيو هوب 3 أميال». «نيوهوب 3 أميال». «نيوهوب 3 أميال». ثم تبدأ الطريق وتنعطف باتجاه الأشجار، فارغة من الإنتظار، تقول «نيوهوب 3 أميال».

سمعت أن أمي ميتة. تمنيت لو كان لدي وقت كاف حتى أتركها تموت. أتمنى لو كان لديّ الوقت الكافي لأتمنى أن أتمنى. لأنه عاجلاً جداً عاجلاً جداً عاجلاً جداً في القفر والأرض المنتهكة. ليس الأمر أني لا أريد أو لن أريد بل إنه عاجل جداً عاجل جداً عاجل جداً.

بدأت تقولها الآن. نيوهوب ثلاثة أميال. نيوهوب ثلاثة أميال.

«هذا ما يعنونه حين يقولون رحم الزمن: عذاب ويأس العظام المنتشرة، الطوق القاسي الذي توجد فيه الأحشاء المنتهكة للحوادث».

تلتفت كاش بعيداً ببطء حين نقترب، وجهه الشاحب، الخاوي، الحزين، الهادىء والمتسائل يتبع المنعطف الأحمر الخاوي، قرب

العجلتين الخلفيتين يجلس جوويل على حصانه، ويحدق نحو الأمام مباشرة.

تهرب الأرض من عيني «دارل»، تسبحان بمنتهى الدقة. تبدآن بقدمي وترتفعان ببطء على امتداد جسدي حتى وجهي، ثم يختفي ثوبي: أجلس عارية على المقعد فوق البغلين المسرعين، فوق المخاض.

«لنفترض أني سأقول له أن ينعطف. سيفعل ما أقول. ألا تعرفون أنه سيفعل ما أقوله له؟». مرة استيقظت وفراغ أسود يندفع من تحتي. لم أكن أستطيع الرؤية. رأيت فارداماان ينهض ويذهب إلى النافذة ويغرز السكين في السمكة، والدم يتدفق، يهسهس كجدول ولكني لم أستطع أن أرى. **«سيفعل ما أقوله له. دائماً يفعل ذلك. أستطيع اقناعه بأي شيء. تعرفون أني أستطيع. لنفترض أني قلت له أن ينعطف هنا»**. كان ذلك حين متُّ تلك المرة. **«لنفترض أني فعلت. سنذهب إلى نيوهوب. لن يكون علينا أن نذهب إلى المدينة»**. نهضت وأخذتُ السكين من السمكة المتدفق منها الدم الذي لا يزال يهسهس وقتلتُ دارل.

«حين اعتدت أن أنام مع فارداماان رأيت مرة كابوساً إذ حسبتني مستيقظة ولكني لم أستطع أن أرى ولا أن أشعر بالسرير من تحتي ولم أستطع أن أفكر فيما أنا عليه لم أستطع أن أفكر باسمي ولا حتى بأني فتاة لم أستطع أن أفكر بأني أنا ولا حتى أفكر بأني أريد أن أستيقظ ولا حتى أتذكر عكس الإستيقاظ وهكذا كل ما استطعته هو أني عرفت أن شيئاً ما كان يحدث ولكني لم أستطع أن أفكر بالزمن ثم عرفت فجأة أن هناك شيئاً ما وكانت الريح تعصف بي كان ذلك أشبه بالريح تأتي وتعصف بي من حيث كانت لم أكن أنا أعصف بالغرفة وكان فارداماان نائماً وكلهم تحتي مرة أخرى ويمضون كقطعة من الحرير البارد تتجرجر عبر ساقي العاريتين».

تهبّ الريح باردة من بين أشجار الصنوبر، صوت حزين راسخ. نيوهوب كانت 3 أميال. كانت 3 أميال. أؤمن بالله. أؤمن بالله.

يقول فاردامان: «لم لم نذهب إلى نيوهوب يا بابا؟ قال السيد سامسون إننا سنذهب إليها ولكننا غيّرنا الطريق».

يقول دارل: «انظري إلى جوويل». ولكنه لا ينظر إليّ. إنه ينظر إلى السماء. الصقر المحوّم ساكن كأنه مسمّر بها.

ننعطف نحو طريق «تَل». نمر بالحظيرة ثم نتابع السير، والعجلات تهمس في الطين، نمر بالصفوف الخضراء لنباتات القطن المزروعة في الأرض القفراء، وها هو فرنون يبدو صغيراً عبر الحقل وراء المحراث. يرفع يده حين نمر ويقف هناك وهو ينظر مباشرة إلى الأمام.

أؤمن بالله، الله، الله، أؤمن بالله.

تـَـلْ

بعد أن مروا أخرجت البغل وعقدْتُ السير وتبعتهم. كانوا جالسين في العربة عند نهاية الحاجز المطل على النهر. كان آنس جالساً هناك وهو ينظر إلى الجسر الذي كان متدلياً في النهر لا يُرى منه إلاّ طرفاه.

كان ينظر إليه كأنما كان يصدق طوال الوقت أن الناس يكذبون عليه فيما يخص انهيار الجسر، ولكنه كان يأمل طوال الوقت أنه منهار بالفعل. كان نوع من الدهشة الباعثة على السرور بادياً عليه، وهو جالس في العربة في بنطال يوم الأحد ويمضغ بفمه. كان يبدو كحصان غير ممشّط الشعر وقد ألبس ثياباً جديدة: لا أعرف.

كان الصبي يراقب الجسر حيث سقط في الطين وكانت الجذوع وما شابه قد انجرفت فوقه وهو يتدلى ويرتجف وكأنه سينهار نهائياً في أية لحظة، وكان يراقبه بعينين مفتوحتين كمن يتفرج على سيرك والفتاة أيضاً. وحين وصلتُ التفتتْ هي نحوي، وعيناها تبرقان ثم تقسوان كأني لمستها. ثم نظرتْ إلى آنس مرة أخرى ثم عادت لتنظر إلى الماء.

كان الماء قريباً من الحاجز على الجانبين، والأرض مختفية باستثناء

لسان منها كنّا نقف فوقه وهو يمتد حتى الجسر ثم ينزل إلى الماء، ولولا أننا كنا نعرف كيف كانت الطريق والجسر، لما كنا نستطيع معرفة أين كان النهر سابقاً وأين كانت الأرض. كانت عبارة عن كتلة متشابكة ذات لون أصفر والحاجز لا يزيد عرضه عن ظهر السكين ونحن جالسون في العربة وعلى الحصان وعلى البغل.

كان دارل ينظر إليّ، ثم التفت كاش ونظر إليّ بتلك النظرة التي في عينيه كأنما هو يفكر فيما إذا كانت الألواح الخشبية ستناسبها تلك الليلة، كأنما كان يقيسها في داخله ولا يطالبك بأن تقول ما تفكر فيه ولا يقرّ بأنه كان يصغي لو قلت له ذلك، ولكنه كان يصغي على أية حال. لم يتحرك جوويل. بل جلس هناك على الحصان، وقد انحنى قليلاً نحو الأمام، وعلى وجهه تلك النظرة نفسها التي كانت عليه حين مرّ هو ودارل بالمنزل البارحة، عائدين ليصطحباها.

قال آنس: «لو كان قائماً لعبرناه. لكنّا استطعنا أن نسير فوقه مباشرة».

أحياناً كان أحد الجذوع يفلت من العائق ويستمر في السير عائماً فوق النهر، يتقلّب ويتدحرج، وكنا نراقبه وهو يسير نحو المكان الذي كانت فيه المخاضة هناك كان يبطىء ثم يدوّم على نحو مستعرض ويظل معلّقاً لدقيقة وكنت تستطيع أن تعرف من ذلك أن المخاضة كانت هنا.

أقول: «ولكن هذا لا يدّل على أي شيء. يمكن أن يكون هناك حاجز من الرمل الليّن هناك». نراقب الجذع. وها هي الفتاة تنظر إليّ ثانية.

تقول: «لقد عبره السيد وايتفيلد».

أقول: «كان على ظهر حصان، وكان ذلك منذ ثلاثة أيام. لقد ارتفع خمسة أقدام منذ ذلك الحين».

يقول آنس: «لو أن الجسر لا يزال قائما».

يقفز الجذع ثم يتابع سيره. هناك الكثير من النفايات والزبد، ويمكنك أن تسمع الماء.

يقول آنس: «ولكنه انهار».

يقول كاش: «يستطيع الشخص الحذر أن يعبره مشياً هناك على الألواح والجذوع».

أقول: «ولكنك لا تستطيع حمل أي شيء. من المحتمل أنك ما أن تضع قدمك فوق ذلك الشيء حتى ينهار هو أيضاً. ما رأيك يا دارل؟».

إنه ينظر إليّ. لم يقل شيئاً، بل ينظر إليّ بعينيه الغريبتين اللتين تجعلان الناس يتحدثون عنه. دائماً أقول إن ذلك لا يعود إلى شيء فعله أو قاله بل يعود أساساً إلى تلك الطريقة التي ينظر بها إليك. إنها تجعلك تظنّ أنه قد دخل فيك. بطريقة ما أو بأخرى. كأنك تنظر إلى نفسك وأفعالك في عينيه. ثم أستطيع أن أشعر بتلك الفتاة تراقبني وكأنني قد حاولت لمسها. تقول شيئاً ما لآنس... تقول: «السيد واتيفيلد...»

يقول آنس: «لقد منحتها وعداً في حضور الرب. وأعتقد أنه لا حاجة هناك إلى القلق».

ومع ذلك فهو لم يدفع بالبغلين. نجلس هناك فوق الماء. يقفز جذع آخر فوق العائق ثم يستأنف السير؛ نراقبه وهو يتأرجح ببطء لدقيقة واحدة في المكان الذي كانت فيه المخاضة ثم يستأنف السير.

أقول: «ربما سيهبط مستواه الليلة. بإمكانكم الإنتظار يوماً آخر».

ثم يلتفت جوويل جانبياً وهو فوق الحصان. لم يكن قد تحرك حتى الآن، ثم يلتفت وينظر إلي. وجهه مخضوضر، وها هو يحمرّ الآن ثم يخضوضر من جديد. يقول: «عد إلى جهنم حيث محراثك اللعين. من طلب منك بحق الجحيم أن تلحق بنا حتى هنا؟».

أقول: «لم أقصد الإساءة».

يقول كاش: «إخرس يا جوويل». ينظر جوويل إلى الماء مرة أخرى، وجهه يملؤه الحزم، وهو يحمرّ ثم يخضوضر ثم يعود إلى الاحمرار مرة أخرى، يقول كاش بعد فترة: «حسناً، ما الذي تريدون فعله؟».

لا يقول آنس شيئاً. يجلس محدودب الظهر وهو يمضغ بفمه. يقول «لو كان الجسر قائماً لاستطعنا أن نعبر فوقه».

يقول جوويل وهو يتحرك بحصانه: «هيا».

يقول كاش: «انتظر». ينظر إلى الجسر. ننظر إليه باستثناء آنس والفتاة. إنهما ينظران إلى الماء. ثم يقول: «الأفضل لديووي ديل وفاردامان وبابا أن يسيروا عبر الجسر».

يقول جوويل: «يمكن لفرنون أن يساعدهم. ونستطيع أن نربط بغله في المقدمة مع بغلينا».

أقول: «لن تُنزلوا بغلي إلى الماء».

ينظر جوويل إليّ. تبدو عيناه كقطعتين من طبق مكسور. يقول:

«سأدفع ثمن بغلك اللعين. سأشتريه منك على الفور».

أقول: «لن ينزل بغلي إلى الماء».

يقول دارل: «سيستعمل جوويل حصانه، فلماذا لا تخاطر ببغلك يا فرنون؟».

يقول كاش: «اخرس يا دارل. أنت وجوويل أيضاً».

أقول: «لن ينزل بغلي إلى الماء».

دارل

يجلس فوق الحصان محملقاً بغضب في فرنون، ووجهه النحيل مخضوضب بخلاف الصرامة الشاحبة في عينيه. في الصيف الذي بلغ فيه الخامسة عشرة كان النوم ينتابه كثيراً. وفي أحد الصباحات حين ذهبت لأعلف البغال كانت البقرات لا تزال في المربط ثم سمعت بابا وهو يعود إلى البيت وينادي عليه وحين عدنا إلى المنزل للفطور مرّ هو بنا، حاملاً دلوي الحليب، وهو يتعثر في طريقه كالسكران، وكان يحلب البقرات حين أدخلنا البغال ثم ذهبنا إلى الحقل بدونه. وكنا قد أمضينا ساعة في الحقل ومع ذلك لم يلحق بنا. وحين جاءت ديووي ديل حاملة طعام الغداء، أعادها بابا لتجد جوويل. وقد وجدوه في المربط، جالساً على الكرسي الذي لا ظهر له ولا ذراعين، نائماً.

وبعد ذلك كان بابا يدخل كل صباح لايقاظه. كان يبدأ بالنوم ونحن على مائدة العشاء وما أن ينتهي العشاء حتى يذهب إلى الفراش، وحين آوي إلى فراشي كنت أجده ممدداً هناك كالميت. ومع ذلك كان على بابا أن يوقظه كل صباح. كان ينهض، ولكن أحاسيسه لا تزال نائمة. كان يقف بسبب تعنيف بابا له وشكواه منه دون أية كلمة من

جانبه، ثم يأخذ دلاء الحليب ويذهب إلى الحظيرة، ثم وجدته مرة نائماً عند البقرة، الدلو في مكانه نصف ممتلىء ويداه غاطستان حتى المعصمين في الحليب ورأسه على خاصرة البقرة.

بعد ذلك كان على ديووي ديل أن تقوم بالحلب. كان لا يزال ينهض من الفراش حين يوقظه بابا ثم يفعل ما يؤمر به وهو كالدائخ. كان ذلك أشبه بمن يحاول بكل جهده أن يؤدي ما عليه، وهو يعاني من حيرة الآخرين نفسها.

سألته ماما: «هل أنت مريض؟ ألا تشعر أنك على ما يرام؟».

أجاب جوويل: «أجل، أشعر أني على ما يرام».

قال بابا وجوويل واقف هناك وهو نائم على حد سواء: «إنه كسول فحسب، ويحاول أن يمتحنني. أليس كذلك؟» وقد قال هذه الجملة الأخيرة وهو يوقظ جوويل ليتكلم.

قال جوويل: «لا».

قالت ماما: «إخلع ملابسك وابق في المنزل اليوم».

قال بابا: «رغم تلك القطعة السفلية الكاملة من الأرض المتوجب حرثها؟ إن لم تكن مريضاً، فما هي حكايتك؟»

قال جوويل: «لا شيء. أنا على ما يرام».

قال بابا: «على ما يرام؟ أنت نائم واقفاً على قدميك في هذه اللحظة».

قال جوويل: «لا. أنا على ما يرام».

قالت ماما: «أريده أن يبقى في البيت».

قال بابا: «سأحتاج إليه. الأمر صعب ولو تواجدنا جميعاً».

قالت ماما: «عليك أن تبذل قصارى جهدك كما أن كاش ودارل معك. أريده أن يبقى في البيت هذا اليوم».

ولكنه رفض. قال وهو يغادر: «أنا على ما يرام»، ولكنه لم يكن كذلك. كان يمكن لأي امرىء ملاحظة ذلك. كان بدنه يهزل، ولقد رأيته يغفو وهو يقطع الحطب ورأيت الفأس تتباطأ وتتباطأ وهي ترتفع وتنزل، ثم يصبح القوس أصغر فأصغر، حتى تتوقف وهو يستند إليها دون حراك في وهج الشمس الحارق.

أرادت ماما إحضار الطبيب. ولكن بابا لم يكن راغباً في إهدار النقود دون طائل، وكان جوويل يبدو على ما يرام فيما عدا هزاله وطريقته في النوم في أية لحظة. كان يأكل بشهية كافية، لولا أنه كان ينام وهو فوق الطبق، وقطعة من الخبز في منتصف طريقها إلى فمه وفكاه ما زالا يمضغان. ولكنه كان يقسم على أنه في حالة جيدة.

كانت أمي هي التي جعلت ديووي ديل تجلب البقرة بدلاً عنه، ودفعت ثمن ذلك على أية حال، كما وجدت طريقة لانجاز الأعمال المنزلية الأخرى التي كان جوويل ينجزها قبل العشاء وذلك بأن جعلت ديووي ديل وفارداماك ينجزانها. بل كانت تنجزها بنفسها حين لا يكون بابا في المنزل. كانت تعد له مأكولات خاصة يتناولها وتخبئها له، وكان ذلك قد حدث على الأرجح حين اكتشفتُ للمرة الأولى أن آدي بندرن تقوم بإخفاء شيء ما، وهي التي حاولت أن تعلّمنا أن الغش إذا ما وجد في عالم ما، فلا شيء يمكن أن يكون شديد السوء أو شديد الأهمية آنذاك ولا حتى الفقر. وفي بعض الأحيان حين كنت أدخل لأنام كنت أجدها جالسة في الظلام قرب جوويل النائم. وكنت

أعرف أنها كانت تكره نفسها لارتكابها ذلك الغش وأنها كانت تكره جوويل لأن عليها أن تحبه إلى هذا الحد الذي يجعلها ترتكب الغش.

وفي إحدى الليالي مرضت هي فجأة وحين ذهبت إلى الحظيرة لأهيّء البغال وأذهب بالعربة إلى بيت «تَل»، لم أستطع إيجاد القنديل. وقد تذكرت أني لاحظت وجوده معلقاً على المسمار في الليلة السابقة، ولكنه لم يكن هناك عند منتصف الليل. وهكذا شددت البغلين إلى العربة في الظلام ثم انطلقت وعدت بالسيدة تل بعد الفجر بقليل. وهناك كان القنديل، معلقاً على المسمار حيث تذكرته ولم أستطع إيجاده. ثم حدث في صباح أحد الأيام أنه بينما كانت ديووي ديل تحلب البقرات قبل بزوغ الشمس، دخل جوويل الحظيرة من الخلف خلال ثغرة في الجدار الخلفي، والقنديل في يده.

حكيت لكاش ثم تبادلت معه النظرات.

قال كاش: «إنه يمارس الجنس».

قلت: «أجل. ولكن لماذا القنديل وكل ليلة أيضاً. لا عجب أنه يهزل باستمرار. هل ستقول له أي شيء؟».

قال كاش: «لا فائدة من ذلك».

«ولكن ما يفعله الآن لا فائدة منه أيضاً».

«أعرف ذلك. ولكن سيكون عليه أن يتعلم ذلك من تلقاء نفسه. أمنحه الوقت الكافي ليدرك أن ذلك سينقذ روحه وأنه سيكون هناك الكثير أيضاً غداً وأنه سيكون على ما يرام. لن أخبر أحداً بذلك على ما أعتقد».

قلت: «لا. وقد قلت لديووي ديل ألا تفشي ذلك. ليس لماما على أية حال».

«لا، ليس لماما».

وبعد ذلك فكرت في أن الأمر كان مضحكاً تماماً: هو يتصرف على ذلك لنحو المربك ويطلب النوم طوال الوقت وقد أضحى هزيلاً كقرن الفاصولياء، ويعتقد أنه ذكي. وكنت أتساءل عمن تكون الفتاة. حاولت أن أحزر فلم أستطع.

قال كاش: «إنها ليست فتاة. إنها امرأة متزوجة في مكان ما. لا يمكن أن تكون لأية فتاة شابة كل تلك الجرأة وتلك القدرة على الإستمرار. وهذا ما لا يعجبني في هذه المسألة».

قلت: «لماذا؟ هذا أكثر أماناً له من علاقة مع فتاة شابة. في هذا حكمة أكثر».

نظر إليّ وعيناه مرتبكتان والكلمات تتعثر في فمه وهو يقول: «ليست الأمور المأمونة هي ما يتوجب على المرء أن يفعله في هذا العالم...»

«تعني أن الأمور المأمونة ليست دائماً الأمور الفضلى؟».

قال: «صحيح، الفضلى». وقد تلعثم مرة أخرى «إنها ليست الأمور الفضلى، الأمور التي تصلح له... شاب صغير. المرء لا يحب أن يرى... شخصاً يتمرغ في وحل غيره...» هذا ما كان يحاول أن يقوله. حين يكون الشيء جديداً وقاسياً ولامعاً، يجب أن يكون هناك لأجله شيء أفضل قليلاً من مجرد الشعور بالأمان، حيث أن الأمور المأمونة هي الأمور التي كان الناس يمارسونها منذ زمن بعيد جداً إلى حد أنهم قد جعلوا الحواف تهترىء ولم يعد في ممارستها ما يدفع المرء

إلى أن يقول إن هذا لم يتم إنجازه من قبل ولا يمكن إنجازه من بعد.

وهكذا لم نُفْشِ سرَّه، ليس حتى بعد أن أصبح يظهر فجأة في الحقل إلى القرب منا ويروح يعمل دون أن يكون لديه من الوقت ما يكفي للذهاب إلى البيت والتظاهر بأنه كان في فراشه طوال الليل. كان يقول لماما إنه لم يكن جائعاً عند الفطور أو أنه أكل كسرة خبز وهو يربط البغلين بالعربة. ولكن كاش وأنا كذلك كنا نعرف أنه لم يكن في البيت كل تلك الليالي وأنه كان يأتي من الغابات حين نصل إلى الحقل. ولكننا أبقينا أمره سراً. كان الصيف على وشك الإنقضاء، وكنا نعرف أنه حين تصبح الليالي باردة سينتهي الأمر بالنسبة إليها إن لم يكن بالنسبة إليه.

ولكن حين جاء الخريف وبدأت الليالي تطول، كان الفرق الوحيد هو أنه كان يصل باكراً ليقبع في الفراش فترة حتى يوقظه بابا، ثم يجعله ينهض منه أخيراً وهو في تلك الحالة الأولى نفسها، حالة نصف البلاهة التي كان عليها في البداية بل وأسوأ مما كانت عليه الحال حين كان يقضي الليل كله خارج البيت.

قلت لكاش: «إنها مواظبة بكل تأكيد. كنت معجباً بها ولكني أحترمها الآن تماما».

قال: «ليست هي امرأة».

قلت: «أنت تعرف إذن». ولكنه كان يراقبني. «ما الحكاية إذن؟».

قال: «هذا ما أهدف إلى اكتشافه».

قلت: «تستطيع أن تتعقّبه عبر الغابات طوال الليل إذا أردت. أما أنا فلا».

قال: «لا أتعقّبه».

«ما تسمي ما تفعله إذن؟».

قال: «لا أتعقبه. لا أعني ذلك».

وهكذا حدث بعد ليال قليلة أن سمعت جوويل ينهض من فراشه ثم يخرج من النافذة، ثم سمعت كاش ينهض ويلحق به. وفي صباح اليوم التالي حين ذهبت إلى الحظيرة، كان قد سبق لكاش وتواجد، وكانت البغال قد علفت وكان يساعد ديووي ديل في حلب البقرات. وحين رأيته عرفت أنه أصبح يعرف السر. بين الحين والآخر كنت أمسك به وهو يرقب جوويل بنظرة غريبة، وكأنه إذا اكتشف أين كان جوويل يذهب وما الذي يفعله قد منحه شيئاً يفكر فيه أخيراً. ولكن نظرته لم تكن نظرة قلق، كانت ذلك النوع من النظرات التي أراها في عينيه وهو يؤدي بعض الأعمال التي هي من واجبات جوويل، الأعمال التي كان بابا ما يزال يظن أن جوويل هو الذي كان ينجزها والتي كانت ماما تظن أن ديووي ديل هي التي تنجزها. وهكذا لم أقل له شيئاً حيث اعتقدت أنه بعد أن ينتهي من هضم الأمر في ذهنه سيحكي لي من تلقاء ذاته. ولكنه لم يفعل ذلك أبداً.

وفي صباح أحد الأيام ـ كان الشهر هو تشرين الثاني (نوفمبر) وكان قد مرّ على هذه الحكاية خمسة أشهر ـ لم يكن جوويل في الفراش ولم يلحق بنا إلى الحقل. كانت تلك هي المرة الأولى التي عرفت بها أمي أن شيئاً ما كان يجري. وقد أرسلت فاردامان ليبحث عن جوويل وبعد فترة وصلت هي أيضاً. وقد بدا أنه طالما كان الغش يسير بهدوء وبوتيرة واحدة، فقد تركنا المجال لأنفسنا جميعاً أن نخدع، إذ كنا نحرّض على الإثم دون وعي أو من خلال الجبن ربما، حيث أن

الناس كلهم جبناء ويفضلون فطرياً أي نوع من الخداع لأنه لطيف من الخارج. ولكن بدا الآن وكأننا جميعاً ـ وبنوع من الإتفاق التخاطري بسبب الخوف ـ قد رمينا بأغطية السرير بعيداً ورحنا نجلس عراة نحدق واحدنا بالآخر ونقول: «والآن ها هي الحقيقة. لم يعد إلى البيت. لقد حدث له شيء ما. لقد تركناه يتعرض لذلك».

ثم رأيناه. سار على امتداد القناة ثم التف وسار عبر الحقل مباشرة وهو يركب الحصان. كان عرفه وذيله يتحركان كأنما ينفذان خلال حركتهما النموذج المبقّع لجلده. كان يبدو كمن يركب فوق دولاب هواء كبير، الحصان دون سرج وله لجام عبارة عن حبل، ولا قبعة على رأسه. كان من سلالة تلك الأفراس التكساسية التي جلبها «فلم سنوبس» منذ خمسة وعشرين عاماً إلى هذه المنطقة وباعها في المزاد العلني لقاء دولارين لكل رأس ولم يستطع سوى «لون كويك» أن يحصل على فرس منها ولا تزال لديه بعض الجياد من تلك السلالة لأنه لم يستطع أن يبيعها إلى شخص آخر.

عدا بالحصان ثم توقف وكعباه في أضلاع الحصان وهذا يرقص ويدوّم وكأن شكل عرفه وذيله وبقع جلده لا علاقة لها إطلاقاً بالحصان الحقيقي الذي هو في داخله، وكان يجلس هناك وينظر إلينا.

قال بابا: «من أين حصلت على هذا الحصان؟».

قال جوويل: «اشتريته من السيد كويك».

قال بابا: «اشتريته؟ بماذا؟ هل اشتريت ذلك الشيء باسمي؟».

قال جوويل: «بل بمالي. لقد كسبت ذلك المال. ليس عليك أن تقلق حيال ذلك».

قالت ماما: «جوويل. يا جوويل».

قال كاش: «حسناً. لقد كسب النقود. لقد قام بتحريق الآكرات الأربعين من الأرض الجديدة التي اشتراها السيد كويك في الربيع الماضي. لقد فعل ذلك كله لوحده، إذ كان يعمل ليلاً على ضوء القنديل. لقد رأيته. لذا لا أعتقد أن هذا الحصان قد كلف أحداً أي شيء باستثناء جوويل. لا أعتقد أن علينا أن نقلق».

قالت ماما: «جوويل. يا جوويل. ادخل فوراً إلى البيت ونم».

قال جوويل: «ليس بعد. لا وقت لدي. عليّ أن أشتري سرجاً ولجاماً. يقول السيد كويك إنه...».

قالت ماما وهي تنظر إليه: «سأعطي... سأعطي...سأعطي..» ثم شرعت تبكي. وقد بكت بشدة، دون أن تخفي وجهها، واقفة هناك في إزارها الباهت اللون، وتنظر إليه وهو فوق الحصان وهو ينظر إليها من فوق الحصان، ووجهه يصبح بارداً ويبدو مشمئزاً حتى أشاح بوجهه بسرعة واقترب كاش ولمسها.

قال كاش: «اذهبي إلى البيت. هذه الأرض هنا رطبة جداً عليك. هيا اذهبي». وضعت يديها على وجهها آنئذ وبعد برهة ذهبت وهي تتعثر قليلاً فوق خطوط الحراثة. ولكن سرعان ما استقامت قامتها وتابعت سيرها. لم تنظر إلى الخلف. حين وصلت إلى القناة توقفت ونادت على فارداماں. كان هذا ينظر إلى الحصان الذي كان يرقص جيئة وذهاباً بالقرب من القناة.

قال: «دعني أركبه يا جوويل. دعني أركبه يا جوويل».

نظر إليه جوويل، ثم أشاح بوجهه مرة أخرى وهو يمسك برسن

الحصان ويشده نحو الخلف. كان بابا يراقبه وهو يهمهم بشفته.

قال: «إذن، اشتريت حصاناً، من وراء ظهري تسللت واشتريت حصاناً. لم تستشرني إطلاقاً. أنت تعرف كم نحن في عسر، ومع ذلك تشتري حصاناً حتى أعلفه لك. تسرق العمل ممّن هم لحمك ودمك لتشتري به حصانا».

نظر جوويل إلى بابا وعيناه أكثر شحوباً من أي وقت مضى.

قال: «لن يأكل حتى لقمة واحدة من طعامك. ولا لقمة واحدة. سأقتله قبل ذلك. لا تفكر في ذلك أبداً. إياك».

قال فارداman: «دعني أركبه يا جوويل. دعني أركبه يا جوويل».

كان صوته أشبه بصوت الجدجد في العشب، الجدجد الصغير: «دعني أركبه يا جوويل».

في تلك الليلة وجدتُ ماما جالسة قرب سريره وهو نائم. كانت تبكي بحرقة، ربما لأنها كانت مضطرة إلى أن تبكي بهدوء. ربما لأنها كانت تشعر تجاه الدموع بذلك الشعور نفسه الذي تشعر به تجاه الغش، وكانت تكره نفسها بسبب ذلك، وتكرهه هو لأنه يضطرها إلى ذلك. ثم عرفتُ أني عرفتُ. عرفت ذلك بكل وضوح كما عرفت حكاية ديووي ديل في ذلك اليوم الآخر.

تَــلْ

إذن، استطاعوا أخيراً أن يجعلوا «آنس» يقول ما يريد أن يفعله، وهكذا نزل هو والفتاة والغلام من العربة. ولكن حتى حين كنا على الجسر كان آنس ينظر إلى الخلف باستمرار، وكأنه يظن، على الأرجح أنه ما أن ينزل من العربة حتى ينفجر كل شيء وسيجد نفسه مرة أخرى هناك في الحقل وهي ممّددة هناك في المنزل تنتظر الموت ويتكرر ما حدث مرة أخرى.

يقول: «كان عليك أن تدعهم يأخذون بغلك». وكان الجسر يهتز ويتأرجح تحتنا، وينزل في المياه المضطربة كأنما هو يهبط إلى الجهة الأخرى من الأرض، والطرف الآخر يخرج من الماء كأنما هو ليس الجسر نفسه وأن أولئك الذين يسيرون على الماء على ذلك الطرف لا بد يخرجون من باطن الأرض. ولكنه لا يزال سليماً، وكان يمكنك معرفة ذلك من الطريقة التي يتأرجح بها إذ كان لا يبدو أن الطرف الآخر يتأرجح على الإطلاق كما كانت الأشجار والضفة الأخرى هناك تتأرجح جيئة وذهاباً ببطء كما فوق بندول ساعة كبير. وتلك الجذوع تصر محتكة بالجزء الغارق من الجسر وتصطدم به ثم تنحدر

وطرفها نحو الأعلى وتنقذف خارج الماء وتتشقلب باتجاه المخاضة والإنتظار، زلقة، مدوّمة ومزبدة.

أقول: «ما نفع ذلك؟ إذا كان بغلاكما لا يستطيعان أن يجدا المخاضة وينقلاه عبر النهر، ما الذي يمكن لثلاثة بغال أو حتى عشرة منها أن تفعله؟».

يقول: «لا أطلبه منك، أستطيع دائماً أن ألبّي حاجتي بما لدي. لا أطلب منك أن تخاطر ببغلك. ليست المتوفاة من أقربائك. لا ألومك».

أقول: «كان عليهم أن يعودوا وينتظروا حتى الغد». الماء كان بارداً، كان كثيفاً، كالثلج الممزوج بالطين. ولكنه نوعاً ما ذو حياة. هناك جزء منك يعرف أنه مجرد ماء، ذلك الشيء نفسه الذي كان يجري تحت هذا الجسر نفسه منذ زمن طويل، ولكنه حين يقذف بتلك الجذوع لا تكون مندهشاً، فكأنها من الماء، من الانتظار والخطر.

ولكن حين عبرنا، خرجنا من الماء ثانية وأضحت الأرض الصلبة تحتنا، حينها دهشت. كأنما لم نكن نتوقع أن ينتهي الجسر على الضفة الأخرى، على شيء وديع كالأرض الصلبة مرة أخرى التي سبق لنا ودسناها قبل الآن وعرفناها جيداً. كأنما لم يكن ممكناً وجودي أنا هنا، فأنا لدي من الوعي ما يجعلني لا أفعل ما فعلته للتو. وحين نظرت إلى الخلف ورأيت الضفة الأخرى وشاهدت بغلي يقف هناك حيث كنت سابقاً وعرفت أن عليّ أن أعود الآن إلى هناك بطريقة من الطرق، عرفت أن ذلك غير ممكن، لأني لم أستطع أن أفكر بأي شيء قادر على جعلي أعبر ذلك الجسر ولو لمرة واحدة ولكن ها أنذا هنا، والشخص الذي يستطيع أن يجعل نفسه يعبر

مرتين لا يمكن أن يكون أنا، ولا حتى لو طلبت منه «كورا» ذلك.

كان ذلك الغلام إذن. قلت: «إليك، الأفضل أن تمسك بيدي». وقد انتظر ثم أمسك بيدي. ولتنزل عليّ اللعنة إن لم يكن يتصرف كأنما عاد ليرافقني، كأنه يقول لا شيء هناك يمكن أن يؤذيك. كأنما كان يتحدث عن مكان جميل يعرفه يأتي فيه عيد الميلاد مرتين مع عيد الشكر ويدوم الشتاء كله والربيع أيضاً والصيف وأني لو بقيت معه سأكون في أحسن حال أيضاً.

حين نظرت نحو بغلي كان ذلك أشبه بمن ينظر عبر منظار مكّبر وكنت قادراً على رؤيته واقفاً هناك وأرى تلك الأرض الواسعة كلها ومنزلي ينزّ منها كأنما كلما زاد النزير كانت الأرض أوسع؛ وكلما زاد النزير كلما أصبح المنزل أضيق حيث أنه لا بد من منزل ضيق لكورا حتى يمسك بكورا كإبريق من الحليب في الربيع: يجب أن يكون لديك إبريق ضيق أو ستحتاج إلى ربيع قوي، لذا إن كان لديك ربيع قوي، فلماذا يكون لديك الباعث على الحصول على أباريق ضيقة جيدة الصنع، لأنه حليبك، حامضاً كان أم لا. لأنك تفضل بالأحرى أن يكون لديك حليب يحمض على حليب لا يحمض، لأنك رجل.

وها هو يمسك بيدي، يده الحارة والواثقة جداً، لذا كنت أود أن أقول: انظر إلى هنا. ألا تستطيع مشاهدة ذلك البغل هناك؟ لم يكن له أي شأن هنا، لذا لم يأتِ إطلاقاً، فهو لا شيء سوى بغل. لأن المرء يستطيع أن يرى بين الحين والآخر أن للأطفال وعياً أفضل منه. ولكنه لا يحب أن يقر بذلك لهم حتى تنبت لحاهم. وبعد أن تنبت لحاهم، يكونون منهمكين جداً لأنهم لا يعرفون إن كانوا سيتمكنون قط من العودة إلى المكان الذي كانوا فيه من حيث الوعي قبل أن ينبت شعر

لحاهم. لذلك لا بأس لو أنك اعترفت للناس الذين يقلقهم الشيء نفسه بأنه أمر لا يستحق القلق أنك ما أنت عليه.

ثم عبرنا مرة أخرى ووقفنا هناك نتفرج على كاش يدير العربة. ثم راقبناهم وهو يعودون بالعربة إلى الطريق حيث تلتف الطريق نحو الأسفل. وبعد برهة أضحت العربة خارج مدى رؤيتنا.

قلت: «الأفضل أن ننزل إلى المخاضة ونستعد للمساعدة».

يقول آنس: «لقد وعدتها. هذا أمر مقدس بالنسبة إليّ. أعرف أنك تضنّ بذلك، ولكنها ستباركك وهي في المساء هناك».

قلت: «حسناً، عليهم أن ينهوا الدوران حول الأرض قبل أن ينزلوا إلى الماء. هيّا بنا».

قال: «إنها العودة، لا حظّ في العودة».

كان واقفاً هناك، محدودب الظهر، في حالة الحداد، ناظراً إلى الطريق الفارغة وراء الجسر المتأرجح المهتز. وتلك الفتاة أيضاً، التي تحمل سلة الطعام في ذراع وتلك الصرّة تحت الأخرى. إنها ذاهبة إلى المدينة. مصمّمة على ذلك. سيكون عليهم أن يمروا بخطر النار والأرض والماء وكل ذلك في سبيل أكل كيس من الموز. قلت: «كان عليكم الانتظار يوماً آخر. سيهبط مستوى الماء عند الصباح. لن تمطر هذه الليلة، ولن يرتفع الماء أكثر من ذلك».

يقول: «لقد وعدتها. وهي تنتظر مني الوفاء بوعدي».

دارل

أمامنا يجري التيار الكثيف المعتم. إنه يتحدث إلينا بهمهمة أضحت متواصلة وذات عناصر لا تحصى ولا تعدّ، والسطح الأصفر أضحى مليئاً بغمّازات هائلة متحولة إلى دوّامات متلاشية تسافر على امتداد السطح للحظة، صامتة، غير دائمة، وذات مغزى عميق، كأنما كان هناك تحت السطح مباشرة شيء هائل وحيّ استيقظ للحظة ذات نشاط كسول من نوم خفيف ليعود إليه مرة أخرى.

إنه يقرق ويهمهم بين البرامق[1] وعند ركب البغال، أصفر، مغطى بحطامات مختلفة وبلطخات سميكة قذرة من الزبد، كأنما هو يعرق ويزبد كالحصان المسرع. عبر الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة يندفع التيار بصوت حزين، بصوت متأمل، وفيه ينحني القصب والشجيرات كما أمام عاصفة صغيرة، وها هي تتأرجح دون انعكاس لها في الماء كأني بها معلّقة على أسلاك غير مرئية من الأغصان العالية المشرفة عليها. فوق السطح المتدفق تقف جميعاً ـ الأشجار والقصب والنباتات المرتعشة ـ دون جذور، مقطوعة عن الأرض، شبحيّة فوق مشهد من

1ـ جمع برمق وهو شعاع الدولاب. (المترجم).

الدمار الهائل إنما المطوَّق والمليء بصوت الماء الضائع والحزين.

نجلس كاش وأنا، في العربة؛ بينما يجلس جوويل فوق حصانه عند الدولاب الخلفي. الحصان يرتجف، وعيناه تتقلبان بجنون ولهما لون أزرق كزهرة الأمراج في وجهه القرنفلي الطويل، وهو يتنفس مصدراً شخيراً أشبه بالأنين. يجلس منتصباً، متوازناً، وينظر بهدوء وثبات ورشاقة في هذا الاتجاه وذاك، بوجه هادىء، شاحب بعض الشيء ومتيقّظ. وجه كاش هادىء على نحو رزين أيضاً؛ ننظر هو وأنا واحدنا إلى الآخر نظرات طويلة سابرة، نظرات تقتحم دون أي عائق عيني الآخر وذلك المكان السريّ المطلق حيث يجثم للحظة كاش ودارل آثمين ودون خجل في كل ذلك الرعب القديم والتنبؤ القديم بالشر، يقظين ومتكتمين دون خجل. وحين نتكلم فإن صوتينا هادئان حياديان.

«أعتقد أننا لا نزال في الطريق».

«لقد أخذهما «تل» وقطعهما تينك البلوطتين البَيضاوين الكبيرتين. سمعته يحكي كيف أنهم كانوا في تلك الأيام الخالية يصِفّون تلك الشجرات فوق المخاضة عندما يعلو منسوب المياه».

«أعتقد أنه فعل ذلك منذ عامين حين كان يحطب هنا. وأعتقد أنه لم يفكر أبداً في أن أي شخص قد يعود إلى استعمال هذه المخاضة مرة أخرى».

«لا أعتقد ذلك، نعم، لا بد أن ذلك حدث آنذاك. لقد قطع مقداراً كبيراً من الخشب في ذلك الحين هنا. لقد سدّد ذلك الرهن بثمنه، هذا ما سمعته».

«نعم، نعم، أظن ذلك. أعتقد أن باستطاعة فرنون فعل ذلك».

«إنها الحقيقة. إن معظم الناس الذين يحطبون في هذه الناحية، يحتاجون إلى مزرعة جيدة جداً لدعم المنشرة. أو إلى متجر حتى. ولكني أعتقد أن فرنون باستطاعته فعل ذلك».

«أظن ذلك فهو شخص غريب الأطوار».

«أجل. فرنون كذلك. أجل، لا بد أنه ما يزال هنا. ما كان ليستطيع إخراج كل ذلك الخشب من هنا لو لم ينظف تلك الطريق القديمة. أعتقد أننا لا نزال فوقها». ينظر فيما حوله بهدوء، إلى مواقع الأشجار ثم ينحني ذات اليمين وذات الشمال، وينظر على امتداد الطريق غير المعبدة المشكّلة على نحو غامض عالية في الهواء عند موقع الأشجار المبتورة والساقطة، كأن الطريق هي أيضاً قد تشربت بالماء حتى تحرّرت من الأرض وراحت تطفو نحو الأعلى، لتترك في أثرها الشبحي نصباً لحزن أشد عمقاً من ذاك الذي فوقه الآن، نتحدث بهدوء عن الاحساس القديم بالأمان والأشياء القديمة التافهة. ينظر جوويل (إلى كاش) ثم إليّ. ينعطف وجهه في ذلك التساؤل الهادىء المثابر حول المشهد، والحصان يرتجف بهدوء وبثبات بين ركبتي جوويل.

أقول: «يمكنه أن يتقدم ببطء ليعرف ماهيته نوعاً ما».

يقول كاش دون أن ينظر إليّ: «أجل». أرى وجهه من الجانب إذ ينظر هو إلى الأمام فقد كان جوويل قد تحرّك نحو الأمام.

أقول: «لا يمكنه أن يخطىء النهر. لا يمكنه إلاّ أن يراه خمسين ياردة مقدّماً».

لا ينظر كاش إليّ، أرى وجهه من الجانب. «لو أني كنت أشك في ذلك فحسب، لكنت استطعت النزول إلى هنا في الأسبوع الماضي وتفحّصته».

أقول: «في ذلك الحين كان الجسر ما يزال في حالته العادية». لا ينظر إليّ. «لقد عبره وايتفيلد على ظهر حصانه».

ينظر إلينا جوويل مرة أخرى، التعبير على وجهه رزين ويقظ ومقهور. صوته هادىء. «ما الذي تريدان مني أن أفعله؟».

يقول كاش: «كان عليّ أن أنزل إلى هنا في الأسبوع الماضي لتفحّصه».

أقول: «ما كان يمكننا معرفة ما سيحدث. لم تكن هناك أية طريقة لمعرفة لذلك».

يقول جوويل: «سأتقدمكم ويمكنكم أن تتبعوني فتسيرون في إثري». يدفع بالحصان. يجفل، ثم ينحني، فينحني هو عليه ويتحدث إليه، ثم يدفعه نحو الأمام بجسده تقريباً، وها هو ينزل حوافره فيتناثر الماء رغم حذره، يرتجف، يتنفس بقسوة. يتحدث إليه، يهمهم له: «هيا، تقدم. لن أسمح لأي شيء بأن يؤذيك. هيا تقدم الآن».

يقول كاش: «يا جوويل» لا ينظر جوويل إلى الخلف. يستمر بالتقدم بالحصان.

أقول: «يستطيع السباحة لو أنه يمهل الحصان قليلاً فحسب...» حين جاء إلى هذه الدنيا كانت حالته الصحية سيئة. كانت ماما تجلس في ضوء المصباح وهي تحمله على وسادة موضوعة على حجرها. كنا نستيقظ فنجدها على هذه الحالة. ما كان يبدر أي صوت عنهما.

يقول كاش: «كانت تلك الوسادة أطول منه». إنه ينحني قليلاً نحو الأمام. «كان عليّ أن أنزل إلى هنا في الأسبوع الماضي لتفحّصه. كان عليّ أن أفعل ذلك».

أقول: «هذا صحيح. ما كانت قدماه تصلان هذا الطرف ولا رأسه الطرف الآخر منها. ما كان يمكنك أن تعرف».

يقول: «كان عليّ أن أفعل ذلك». يشد العنان، يتحرك البغلان منطلقين على هدى الآثار؛ تهمهم الدواليب حية في الماء. ينظر إلى الخلف وإلى الأسفل نحو «آدي». يقول: «ليست متوازنة».

أخيراً تتفتح الأشجار؛ وها هو جوويل جالساً في النهر على حصانه الذي غرق حتى بطنه في الماء الآن. عبر النهر نستطيع أن نرى فرنون وبابا وفاردامان وديووي ديل. فرنون يلّوح لنا، يلوّح لنا أن نتجه باتجاه مجرى النهر.

يقول كاش: «نحن مرتفعون جداً». فرنون يصرخ أيضاً، ولكننا لا نستطيع أن نفهم ما يقوله بسبب ضجة النهر، فالماء يجري بثبات وعمق الآن، دون انقطاع، دون إحساس بالحركة، حتى يصل أحد الجذوع وهو يتقلب ببطء. يقول كاش: «راقبه». ونراقبه ونراه يترنّح ويبقى معلّقاً للحظة، والتيار يتعاظم من خلفه على شكل موجة كثيفة تجعله يغوص للحظة قبل أن يندفع كالطلقة ثم يهوي من جديد.

أقول: «ها هو».

يقول كاش: «نعم. إنه هناك». ننظر إلى فرنون من جديد. ها هو يخفق بذراعيه نحو الأعلى والأسفل. نتحرك مع اتجاه مجرى النهر، ببطء وحذر،

ونحن نراقب فرنون. ينزل يديه. يقول كاش: «هذا هو المكان».

يقول جوويل: «حسناً، اللعنة، لنعبر إذن». يتحرك بالحصان نحو الأمام.

يقول كاش: «انتظر». يتوقف جوويل من جديد.

يقول: «حسناً، بالله عليكم...» ينظر كاش إلى الماء ثم إلى الخلف نحو «آدي». يقول: «ليست متوازنة».

يقول جوويل: «إذاً عد إلى الجسر اللعين وسِرْ فوقه. عد أنت ودارل. اتركا لي هذه العربة».

لا يعيره كاش أي اهتمام. يقول: «ليست متوازنة. نعم يا سيدي. علينا مراقبتها».

يقول جوويل: «إلى الجحيم بالمراقبة. انزلا من تلك العربة واتركاها لي. بحق الله إن كنتما خائفين من العبور بها...» عيناه شاحبتان كأنهما رقاقتان بيضاوان من وجهه. كاش ينظر إليه.

يقول: «سنعبر بها. سأقول لك ما تفعله. عد إلى الخلف بالحصان وسر عبر الجسر حتى الضفة الأخرى لتقابلنا ومعك الحبل. سيأخذ فرنون حصانك إلى البيت معه ويبقيه لك حتى نعود».

يقول جوويل: «اذهب إلى الجحيم».

يقول كاش: «خذ الحبل وانزل إلى الضفة الأخرى وكن جاهزاً. لا يمكن لثلاثة أن يفعلوا أكثر مما يفعله اثنان: أي واحد للقيادة وواحد ليثبّته[1]».

1ـ أعتقد أنه يعني التابوت هنا. (المترجم).

يقول جوويل: «ليلعنك الله».

أقول: «فليأخذ جوويل نهاية الحبل ويعبر المجرى أمامنا ثم يربطه باحكام. هل ستفعل ذلك يا جوويل؟».

يراقبني جوويل، بشدة. ينظر إلى كاش بسرعة، ثم يعود لينظر إليّ، عيناه يقظتان وقاسيتان. «لا أهتم إطلاقاً. فلنفعل شيئاً ما، الجلوس هنا، دون أن ترفع يداً واحدة لعينة...».

أقول: «فلتفعل ذلك يا كاش».

يقول كاش: «أعتقد أنه سيكون علينا ذلك».

النهر نفسه لا يبلغ عرضه المئة ياردة، كما أن بابا وفرنون وفاردامان وديووي ديل هم كل ما يمكن رؤيته ليس من قبل تلك الرتابة الحزينة التي تنحني بكل تلك النوعيّة الرهيبة من اليمين إلى اليسار قليلاً، كأننا قد وصلنا إلى ذلك المكان حيث حركة العالم المضيَّع تتسارع قبل الشفا الأخير للهاوية. ومع ذلك يبدون كالأقزام. بدا الأمر وكأن المسافة بيننا كانت زمناً: خاصية لا يمكن استردادها. بل لكأنّ الزمن، الذي ما عاد يجري على نحو مستقيم أمامنا في خط متناه، عاد ليجري على خط متواز بيننا كحبل الأنشوطة، والمسافة الآن هي النمو المزدوج للحبل وليس المسافة بيننا. يقف البغلان الآن وقد سبق أن أصبح جزآهما الأماميان منحدرين قليلاً، أما كفلاهما فكانا عاليين. يتنفسان الآن أيضاً بصوت أنين عميق، وحين نظرا مرة إلى الخلف تجاوزتنا تحديقتهما وفي عينيهما خاصية وحشية، حزينة عميقة وبائسة وكأنه قد سبق لهما وشاهدا في الماء المضطرب شكل الكارثة التي ما كانا يستطيعان التكلم عنها ولا كنا نستطيع أن نراها.

يلتفت كاش إلى الخلف وهو في العربة. يضع يديه منبسطتين على «آدي» يهزّها قليلاً. وجهه هادىء، منحدر نحو الأسفل، حذر، قلق. يرفع صندوق عدته ويدفعه كالوتد تحت المقعد؛ ندفع به نحن الإثنان معاً، ثم نزيح آدي معاً نحو الأمام. وندفعها كالوتد بين الأدوات وحوض العربة. ثم ينظر هو إليّ.

أقول: «لا. أعتقد أني سأبقى. قد يتطلب الأمر وجود كلينا».

يخرج من صندوق العدة حبله الملفوف ثم يلفّ طرفه مرتين حول دعامة المقعد ثم يمرّر الطرف إليّ دون أن يربطه ثم يدفع بالطرف الآخر إلى جوويل الذي يلفه حول قرن سرجه.

عليه أن يدفع بالحصان إلى التيار بالقوة. يتحرك بركبتين عاليتين وعنق مقوس وهو ضجر برم. يجلس فوقه جوويل بخفة ونحو الأمام، ركبتاه مرفوعتان قليلاً. ومن جديد تجتاحنا تحديقته السريعة اليقظة الهادئة ثم نحو الأمام. ينزل بالحصان إلى النهر، متحدثاً إليه بهمهمة مواسية. ينزل الحصان، ينزل في الماء حتى السرج، ثم ينهض مرة أخرى على حوافره، والتيار يتعاظم ضد فخذي جوويل.

يقول كاش: «انتبه لنفسك».

يقول جوويل: «أنا فوقه تماماً الآن. تستطيعان التقدم الآن».

يأخذ كاش بالعنان ثم ينزل بالبغلين بعناية ومهارة إلى النهر.

«شعرت بالتيار يأخذنا وعرفت أننا كنا على المخاضة لهذا السبب، حيث أنه لم يكن ممكناً لولا إحساسنا بذلك الاتصال الزلق أن نعرف أننا كنا نتحرك إطلاقاً. وما كان سابقاً سطحاً منبسطاً أضحى الآن سلسلة متتابعة من المنخفضات والمرتفعات الصاعدة والهابطة من حولنا، تدفعنا تغيظنا بلمسات خفيفة كسولة في اللحظات

العقيمة من الصلابة تحت الأقدام. نظر كاش إلى الخلف باتجاهي. وعندها عرفت أننا قد انطلقنا. ولكني لم أدرك سبب وجود الحبل حتى رأيت الجذع. لقد اندفع خارجاً من الماء وتوقف للحظة منتصباً فوق ذلك اليأس الجائش المتدفق كانه المسيح. اخرج ودع التيار يأخذك نحو المنحنى، قال كاش. يمكنك أن تفعل ذلك. قلت لا، سأتبلل بهذه الطريقة كما بتلك».

يظهر الجذع فجأة بين مرتفعين، كأنما انطلق فجأة كالصاروخ من قعر النهر. عند طرفه تدلى الزبد متطاولاً كلحية رجل عجوز أو عنزة عجوز. حين يتحدث كاش إليّ أعرف أنه كان يراقبه طوال الوقت، يراقبه ويراقب جوويل الذي تقدم عنا مسافة عشرة أقدام. يقول: «دع الحبل وشأنه». وبيده الأخرى يحرر طرفيه من عمود العربة. يقول: «تابع يا جوويل. حاول أن تجرنا قبل أن يصل الجذع».

يصرخ جويل بحصانه؛ ثم يظهر ثانية وكأنه يرفعه بين ركبتيه. هو فوق المخاضة تماماً وكأنّ للحصان مُخْلاً من نوع ما حيث أنه اندفع نحو الأمام وهو يلتمع مبتلاً وقد خرج نصفه من الماء، ثم شق طريقه بسلسلة من الاندفاعات. كان يتحرك بسرعة لا تصدق، ولهذا السبب أدرك جوويل أخيراً أن الحبل قد انقطع، فأنا أستطيع أن أراه ينشر الرسن، ورأسه ملتفتة، بينما يندفع الجذع بتكاسل فيما بيننا باتجاه البغلين. يراه البغلان أيضاً: وللحظة واحدة يلتمعان هما أيضاً بلون أسود خارجين من الماء. ثم يختفي ذاك الذي مع اتجاه النهر وهو يجرّ معه البغل الآخر، انحرفت العربة على نحو مستعرض، ثم توازنت على ذروة المخاضة في الوقت الذي اصطدم بها الجذع، مما جعلها تتمايل صاعدة هابطة. كاش نصف ملتفت، والأعنة مشدودة وهو ممسك بها بيده وقد اختفت في الماء، بينما اليد الأخرى تمسك بـ

«آدي»، تمسك بها وقد التصقت بجانب العربة المرتفع. يقول بهدوء: «أقفز، ابتعد عن البغلين ولا تحاول مصارعة التيار. سيرمي بك في المنعطف بكل تأكيد».

أقول: «عليك أن تأتي أنت أيضاً». فرنون وفاردامان يركضان على امتداد الضفة، بابا وديووي ديل واقفان يرقباننا، ديووي ديل مع السلة والصرة بين ذراعيها. جوويل يحاول أن يجعل الحصان يعود. يظهر لأسس أحد البغلين، عيناه مفتوحتان على اتساعهما؛ ينظر نحو الخلف باتجاهنا للحظة، يصدر صوتاً يكاد يكون بشرياً. ثم يختفي الرأس مرة أخرى.

يصرخ كاش: «عد يا جوويل. عد يا جوويل». للحظة أخرى أراه ينحني نحو العربة المتمايلة، وقد لف ذراعه نحو الخلف ممسكاً بآدي وأدواته. أرى الرأس الملتحية للجذع الهادر تضربنا مرة أخرى، ووراءه جوويل ممسكاً بالحصان مشدوداً إلى الخلف ورأسه ملوية وهو يضرب رأس الحصان بقبضته المرة تلو الأخرى. أقفز من العربة على الجانب الموازي لمجرى النهر. بين جبلين أرى البغلين مرة أخرى. يتدحرجان خارجين من الماء الواحد في إثر الآخر، وقد انقلبا على ظهريهما تماماً، وقد أضحت قوائمهما ممدودة على نحو متصلّب كمن فقد الاتصال بالأرض.

فاردامان

حاول كاش ولكنها سقطت وقفز دارل وغطس تحت الماء وكاش يصيح وهو يحاول الامساك بها وأنا أصيح وأعدو وديووي ديل تصيح بي فاردامان يا فاردامان يا فاردامان وفرنون يمرّ بي لأنه كان يراها تخرج ثم قفزت في الماء مرة أخرى ودارل لم يمسكها بعد.

صعد ليرى وأنا أصرخ أن أمسك بها يا دارل أمسك بها لأنها كانت ثقيلة إلى حد أنه كان عليه أن يستمر بالامساك بها وأنا أصرخ به أن أمسك بها يا دارل أمسك بها يا دارل لأنها تستطيع في الماء أن تسير أسرع من الانسان وعلى دارل أن يتشبث بها لذلك عرفت أنه يستطيع الامساك بها لأنه أفضل من يتشبث حتى لو كان البغلان في طريقه وكان هذان قد غطسا مرة أخرى وقوائمهما ممدودة متيبسّة مرة أخرى وظهراهما قد أصبحا طافيين مرة أخرى لأنها في الماء أسرع من الرجل أو المرأة وقد مررت بفرنون وما كان هو ليرضى أن ينزل إلى الماء ويساعد دارل وكان يمكنه أن ينزل ليتشبث بها مع دارل وكان يعرف ذلك ولكنه ما كان يريد مد يد العون.

برز البغلان من جديد وهما يغطسان بقوائمهما المتصلبة الممدودة ببطء ثم قام دارل مرة أخرى وأنا أصرخ أن أمسك بها دارل يمسك بها يدفع بها إلى الضفة دارل، وفرنون لا يريد أن يمد يد العون ثم راوغ دارل ماراً بالبغلين حيث استطاع إذ أنه كان يمسك بها وهي تحت الماء وتتجه نحو الضفة وتتحرك ببطء لأنها تقاوم في الماء لتبقى تحت الماء ولكن دارل قوي وها هو يأتي ببطء ولذا عرفت أنه كان ممسكاً بها لأنه كان قادماً ببطء وقد نزلت إلى الماء لأساعده ولم أستطع التوقف عن الصراخ لأن دارل قوي ويمسك بها بقوة تحت الماء رغم أنها كانت تقاوم إلاّ أنه ما كان يتركها لتفلت كان يراني وكان ممسكاً بها وكان الأمر على أحسن حال على أحسن حال.

«ثم يخرج من الماء. يخرج طويلاً ببطء قبل أن تخرج يداه لأن عليه أن يمسك بها حتى أستطيع أن أحملها. ثم تخرج يداه عالياً ثم يخرج كله من الماء. لا أستطيع التوقف. لم يكن لدي الوقت الكافي للمحاولة. سأحاول حين أستطيع ولكن يديه خرجتا فارغتين من الماء تفرغان الماء والماء يفرغ منهما».

قلت: «أين ماما يا دارل لم تستطع الإمساك بها. كنت تعرف أنها سمكة ولكنك تركتها تهرب. لم تستطع الإمساك بها. دارل. دارل. دارل». بدأت أعدو على امتداد الضفة وأنا أراقب البغلين يبرزان ثانية ثم يغطسان من جديد.

تـــلْ

حين حكيت لكورا كيف قفز دارل من العربة وترك كاش جالساً هناك محاولاً انقاذ الصندوق والعربة تنقلب، وجوويل الذي كاد أن يصل إلى الضفة مصارعاً ذلك الحصان ليعيده إلى الوراء ولكن كان لديه من العقل ما يجعله يرفض ذلك، قالت: «وأنت أحد الذين يقولون إن دارل هو الشاذ بينهم، الوحيد غير الذكي بينهم، وهو الوحيد بينهم الذي كان لديه من العقل ما يكفي ليجعله يغادر العربة. أرى أن آنس كان أذكى منهم جميعاً إذ لم يشترك في المحاولة».

قلت: «ما كان يمكنه أن يفعل أي شيء لو كان هناك. كانوا يعالجون الأمر على نحو صحيح وكانوا سينجحون به لولا ذلك الجذع».

قالت كورا: «جذع، هراء. كانت تلك يد الله».

قلت: «كيف تقولين إذن إنه هراء؟ لا يمكن لأحد أن يتقي يد الله. سيكون في محاولة ذلك تدنيس للمقدسات».

قالت كورا: «لماذا المحاولة إذن؟ قل لي».

قلت: «لم يحاول آنس ذلك. ولكنك حاولت تحميله وزر ذلك».

قالت كورا: «كان مكانه هناك في النهرز لو كان رجلاً لكان عليه أن ينزل إلى النهر بدلاً عن أن يجعل أولاده يفعلون ما لم يجرؤ هو على فعله».

قلت: «لا أعرف ما تريدينه إذن. مرة تقولين إنهم كانوا يتحدون إرادة الله في محاولتهم، وبعد لحظة تهاجمين آنس لأنه لم يكن معهم». ثم بدأت تغني من جديد، وهي تغسل في حوض الغسيل، وتلك النظرة الغنائية في وجهها كأنها قد فقدت ثقتها بالبشر وحماقتهم وقد تجاوزتهم صاعدة إلى السماء وهي تغني.

ظلّت العربة معلقة لفترة طويلة والتيار يتجمع تحتها، وهو يدفعها بعيداً عن العبّارة، وكاش ينحني أكثر فأكثر، محاولاً أن يبقي التابوت مربوطاً بحيث لا ينزلق ويجعل العربة تنحدر إلى الجانب الآخر. وما أن انحدرت العربة إلى حيث يستطيع التيار دفعها حتى استأنف الجذع انطلاقته. وقد دار من حول العربة واستمر في طريقه كرجل يسبح. كأنما أرسل هذا الجذع ليقوم بمهمة معينة وها هو قد أنجزها واستأنف مسيرته.

وحين استطاع البغلان الانفكاك أخيراً وهما يرفسان بدا لبرهة أن كاش سيقدر على استعادة العربة. بدا وكأنه لم يكن يتحرك لا هو ولا العربة إطلاقاً، وأن جوويل كان يحاول إعادة ذلك الحصان إلى الخلف نحو العربة. ثم مرّ به ذلك الصبي وهو يصرخ في دارل والفتاة تحاول أن تمسك به، ثم رأى البغلين يخرجان من الماء وهما يتشقلبان ببطء وقد فرشخا قوائمهما المتيبسّة كأنهما توقفا وقد انقلب عاليهما سافلاً ثم راحا يتدحرجان في الماء ثانية.

ثم انقلبت العربة واختلطت هي وجوويل والحصان معاً. اختفى كاش عن الأنظار، وهو لا زال ممسكاً بالتابوت، ثم لم أعد أعرف شيئاً إذ أن الحصان كان يندفع ويشق طريقه في الماء مطلقاً رشاشاً. ظننت أن كاش قد استسلم وأنه كان يسبح لينقذ نفسه وكنت أصرخ في جوويل أن يعود ثم غاص هو والحصان تحت الماء وظننت أنهما قد انتهيا. عرفت أن الحصان قد جُرف بعيداً عن المخاضة أيضاً، وكان الأمر سينتهي إلى أسوأ حال بذلك الحصان الآخذ بالغرق وتلك العربة وذلك الصندوق الفالت، وكنت أقف هناك، غارقاً حتى ركبتيّ في الماء، أصيح بآنس الواقف خلفي: «أترى ما فعلته؟ أترى ما فعلته؟»

خرج الحصان مرة أخرى. كان يتجه نحو الضفة الآن، ويلقي برأسه نحو الأعلى، ثم رأيت واحداً منهم يمسك بالسرج باتجاه مجرى النهر، لذا بدأت أعدو على امتداد الضفة، محاولاً مشاهدة كاش لأنه لا يعرف السباحة، وأصرخ بجوويل لأدلّه على مكان كاش كالمجنون، وذاك الصبي لا زال على الضفة يصرخ بدارل.

وهكذا نزلت إلى الماء حتى أستطيع أن أتمتع ببعض السيطرة في الطين حين رأيت جوويل. كان الماء يصل إلى منتصفه لذا عرفت أنه كان فوق المخاضة على أية حال، وكان يقاوم بشدة ضد التيار، ثم رأيت الحبل والماء وهو يتجمع حيث كان هو ممسكاً بالعربة مربوطة بالحبل تحت المخاضة مباشرة.

وهكذا كان كاش هو الممسك بالحصان حين خرج وهو يشق طريقه في الماء مطلقاً رشاشاً ويندفع مذعوراً نحو الضفة وهو يئنّ ويعول كانسان متوحش وحين وصلت إليه كان الحصان يرفس كاش ليتخلص من قبضة هذا على السرج. التفت وجهه إلى الأعلى لبرهة

حين كان يعود لينزلق إلى الماء. كان وجهه رمادياً وكانت عيناه مغلقتين وعلى وجهه مسحة طويلة من الطين. ثم أفلت الحصان وانقلب في الماء بدا ككومة قديمة من الملابس التي يتم غسلها بضربها على الضفة ثم إعادتها إلى الماء وهكذا دواليك. بدا وكأنه يتمدد في الماء على وجهه وهو يتهزهز قليلاً وينظر إلى شيء ما في القاع.

كنا نستطيع أن نرى الحبل وقد انقطع ونزل في الماء، وأن نشعر بثقل العربة وهو يهوي ويندفع بتكاسل، كأنما ليس على عجل، وذلك الحبل وهو يقطع الماء بقوة كأنه قضيب حديدي. استطعنا أن نسمع الماء يهسهس عليه كأنما القضيب الحديدي حار إلى حد الاحمرار. كأنما هو قضيب معدني مستقيم التصق بالقاع ونحن نمسك بطرفه، والعربة تتكاسل صعوداً ونزولاً كأنها تدفعنا وتنخسنا، أو كأنها قد دارت وأصبحت من خلفنا، على نحو كسول، كأنها مترددة بعد أن حزمت أمرها. كان هناك في النهر خنوص صغير، وقد انتفخ كالبالون. إنه واحد من تلك الخنانيص المرقطة الخاصة بـ «لون كويك». لقد اصطدم بالحبل كأنه قضيب حديدي ثم قفز واستمر في السير، ونحن نراقب ذلك الحبل وهو ينحدر في الماء. راقبناه.

دارل

كاش ممدد على ظهره فوق الأرض، رأسه مرفوعة على ثوب ملفوف. عيناه مغلقتان، وجهه رمادي، شعره ملتصق كلطخة دبقة ملساء فوق جبينه كأنما رسمت بفرشاة الدهان. يبدو وجهه غائراً بعض الشيء، مرتخياً انطلاقاً من الحواف العظمية لمجرى العينين والأنف واللثة، كأنما قام البلل بإرخاء الصلابة التي كانت تجعل البشرة ممتلئة؛ أما أسنانه التي كانت مرتبة في لثته الباهتة اللون، فكانت متباعدة قليلاً كأنه يضحك بهدوء. يتمدد نحيلاً كالعمود في ملابسه الرطبة، وعند رأسه بركة صغيرة من القيء وخيط منه يجري من زاوية فمه ثم على خدّه حيث لا يستطيع أن يدير رأسه بسرعة أو يبعده ما فيه الكفاية، حتى انحنت ديووي ديل ومسحته له بهدب ثوبها.

يقترب جوويل. يحمل المسحاج. يقولك «لقد وجد فرنون الزاوية للتو». ينظر إلى كاش والماء ينقط منه هو أيضاً. ثم يستأنف «ألم ينطق بشيء بعد؟».

أقول: «كان معه منشاره ومطرقته ومقياسه الطباشيري ومسطرته. هذا ما أعرفه».

يضع جوويل الكوس جانباً. بابا يراقبه. يقول بابا: «لا يمكن أن تكون قد ابتعدت كثيراً. لقد مضت كلها معاً. ليس هناك إطلاقاً رجل حظه أسوأ من حظي».

لا ينظر جوويل إلى بابا. يقول: «الأفضل أن تستدعي فاردامان إلى هنا». ينظر إلى كاش. ثم يلتفت ويبتعد. يقول: «إجعله يتكلم بأسرع ما يكون. حتى يقول لنا ما الذي كان هناك أيضاً».

نعود إلى النهر. العربة قد أخرجت من النهر، والعجلات قد جرى وضع أسافين لها حتى لا تتحرك (بحذر: كلنا مددنا يد العون؛ ولكن كأنما كان ذلك العنف الذي ذبح البغلين اللذين كانا يجران العربة منذ أقل من ساعة مضت، ما يزال متخلفاً هناك على الشكل الساكن، الرث المألوف للعربة، كامناً إنما مباشراً) فوق حافة الطوفان. في حوض العربة كان لا يزال قابعاً هناك بعمق، الألواح الخشبية الطويلة الشاحبة قد سكتت قليلاً بسبب البلل إنما لا تزال صفراء، كالذهب الذي يرى خلال الماء، باستثناء لطخات طويلة موحلة. نمرّ بها ثم نمضي إلى الضفة.

كان أحد طرفي الحبل قد ربط إلى شجرة. عند حافة النهر، غارقاً حتى ركبتيه، كان فاردامان واقفاً، وقد انحنى إلى الأمام قليلاً وهو يراقب فرنون باستغراق كامل. لقد توقف عن الصراخ وهو مبلّل الآن حتى إبطيه. فرنون عند الطرف الآخر للحبل، وقد غطاه الماء حتى كتفيه، وهو يبادل فاردامان النظر. يقولك «أبعد إلى الخلف من ذلك. عد إلى الشجرة وأمسك بالحبل لي حتى لا ينزلق».

يعود فاردامان نحو الخلف على امتداد الحبل، نحو الشجرة، وهو يتحرك على نحو أعمى، ويراقب فرنون. حين نصل ينظر إلينا مرة، عيناه مستديرتان وغائمتان قليلاً. ثم ينظر إلى فرنون من جديد بتلك الوضعية من الانتباه الاستغراقي.

يقول فرنون: «وجدت المطرقة أيضاً. يبدو أنه كان علينا أن نجد المقياس الطباشيري إذ كان على هذا أن يطفو».

يقول جوويل: «لقد طفا مبتعداً. لن تستطيع الحصول عليه. ولكن علينا أن نجد المنشار على أية حال».

يقول فرنون: «أعتقد ذلك». ينظر إلى الماء. «ذلك المقياس الطباشيري أيضاً. وما الذي كان معه أيضاً؟».

يقول جوويل وهو ينزل إلى الماء: «لم يتكلم بعد». ينظر إلى الخلف باتجاهي. يقول: «عد واجعله يستفق حتى يتكلم».

أقول: «بابا هناك». ألحق بجوويل إلى الماء، على امتداد الحبل. أحس به كأنه حيّ في يدي، وقد انتفخ قليلاً على شكل قوس مطوّل ورنّان. فرنون يراقبني.

يقول: «الأفضل أن تذهب. الأحرى بك أن تكون هناك».

أقول: «دعنا نرْ ما الذي تستطيع الحصول عليه قبل أن ينجرف».

نتمسّك بالحبل. التيار يلتفّ ويحدث ما يشبه الغمازات من حول أكتافنا. ولكن تحت ذلك اللطف الزائف كانت القوة الحقيقية للتيار تستند علينا بكسل. لم يكن قد خطر لي أن الماء في تموز (يوليو) يمكن أن يكون بارداً إلى هذا الحد. كان أشبه بيدين تصوغان وتحثّان حتى العظام. لا زال فرنون ينظر نحو الخلف باتجاه الضفة.

يقول: «أتعتقدون أنه سيتحملنا جميعاً؟» ننظر نحن أيضاً إلى الخلف، متتبعين القضيب القاسي الذي يشكّله الحبل وهو يبرز من الماء وحتى الشجرة وفاردامان الجاثم قليلاً إلى جانبه، والذي يراقبنا.

يقول جوويل: «تعال. لنذهب إلى هناك».

نغطس كل بدورنا، متمسكين بالحبل، متعلقين واحدنا بالآخر بينما الجدار البارد للماء يمتص الطين المنحدر نحو الخلف وأعلى النهر من تحت أقدامنا ونحن معلّقون هكذا، نتلمّس طريقنا على امتداد القاع البارد. حتى الطين هناك ليس ثابتاً له خاصية تبعث بالقشعريرة وتوحي بالانزلاق، كأن الأرض تحتنا تتحرك أيضاً. نلمس ونتلمّس أذرعتنا الممتدة، تاركين أنفسنا نتقدم بحذر متمسكين بالحبل، أو، نقف كل بدوره ونراقب الماء يمتص ثم يفور حين يقوم واحد من الاثنين الآخرين بالتلمس تحت الماء. نزل بابا إلى الشاطىء وراح يرقبنا.

يخرج فرنون والماء ينهمر منه، وجهه قد تهاوى إلى فمه النافخ. فمه مزرقّ كدائرة من المطاط المهترىء بسبب التعرض للطقس. في يده يحمل المسطرة.

أقول: «سيكون سعيداً بذلك. إنها جديدة تماماً. لقد اشتراها الشهر الماضي فحسب وفق الكاتالوغ».

يقول فرنون وهو ينظر عبر كتفه ثم يدير وجهه إلى حيث اختفى جوويل: «لو أننا نعرف بالتأكيد فحسب ما هي الأدوات الأخرى التي لا زالت مفقودة. ألم ينزل قبلي؟».

أقول: «لا أعرف. أعتقد ذلك. أجل. أجل هذا صحيح».

نراقب السطح الكثيف المتجعّد، المبتعد عنا حلزونياً.

يقول فرنون: «اجذب له الحبل».

أقول: «هو عند جانبك منه».

يقول: «لا أحد عند جانبي هنا».

أقول: «اجذبه». ولكن سبق له وفعل ذلك، ممسكاً بالطرف الذي فوق الماء؛ ثم نرى جوويل. إنه بعيد عنا مسافة عشر ياردات. يخرج وهو ينفخ وينظر إلينا وهو يطوّح بشعره الأسود الطويل إلى الخلف بلفتة من رأسه، ثم ينظر باتجاه الضفة؛ نستطيع أن نراه وهو يملأ رئتيه.

يناديه فرنون بصوت ليس مرتفعاً، ولكن صوته مليء وواضح على امتداد الماء بات إنما لبق: «يا جوويل. سيعود إلى هنا. الأفضل أن تعود».

يغطس جوويل مرة أخرى. نقف هناك ونحن نستند إلى التيار ونراقب الماء حيث اختفى، ممسكين بالحبل الميت بيننا كرجلين يمسكان بفوهة خرطوم إطفاء الحريق، ننتظر وصول الماء. وفجأة ها هي ديووي ديل خلفنا في الماء. تقول: «اجعلوه يرجع. يا جوويل!» يخرج ثانية، ويطوّح بشعره إلى الخلف بعيداً عن عينيه. إنه يسبح الآن، نحو الضفة، والتيار يجرفه باتجاه مجرى النهر على نحو لاطم. تقول ديووي ديل: «يا جوويل!» نقف ممسكين بالحبل ونراه مرة أخرى وقد وصل إلى الضفة ثم تسلّق إليها. ولدى خروجه من الماء ينحني ويلتقط شيئاً ما. يعود على امتداد الضفة. لقد وجد المقياس الطباشيري. يأتي إلى قبالتنا ويقف هناك وهو ينظر فيما حوله كأنما يبحث عن شيء ما. ينزل بابا إلى الضفة. إنه يعود لينظر إلى ما حلّ بالبغلين حيث كانت جثتاهما المنتفختان تطفوان وتحتكان ببعضهما البعض في الماء الراكد عند المنحنى.

يقول جوويل: «ما الذي فعلته بالمطرقة يا فرنون؟»

يقول فرنون: «أعطيتها له»، وذلك وهو يحرك رأسه باتجاه فارداماان. يلاحق فارداماان بابا بعينيه الآن. ثم ينظر إلى جوويل. «مع الكوس». فرنون يراقب جوويل، يتحرك باتجاه الضفة ويمر بديووي ديل وبي أنا.

أقول: «اخرجي من هنا». لا تقول هي شيئاً بل تنظر إلى جوويل وفرنون.

يقول جوويل «أين المطرقة؟» يخطو فارداماان بسرعة قاطعاً الضفة ثم يجلبها.

يقول فرنون: «إنها أثقل من المنشار». يربط جوويل طرف المقياس الطباشيري من حول خشبة المطرقة.

يقول جوويل: «المطرقة معظمها من الخشب». يواجهان هو وفرنون واحدهما الآخر، ويراقبان يديّ جوويل.

يقول فرنون: «وهي أكثر تسطيحاً. ستطفو بنسبة ثلاثة إلى واحد تقريباً. جرّب الكوس».

ينظر جوويل إلى فرنون، فرنون طويل أيضاً، طويل ونحيل، يقفان وكل عينه في عين الآخر في ملابسهما المبتلة الملتصقة بهما. كان بإمكان «لون كويك» أن ينظر حتى إلى سماء غائمة ويقول لك ما هي الساعة ولا يخطىء إلاّ ضمن حدود عشر دقائق. أعني «لون الكبير» وليس «لون الصغير».

أقول: «لماذا لا تخرج من الماء؟»

يقول جوويل: «لن يطفو كما المنشار».

يقول فرنونك «لن يطفو كما المنشار إلاّ كما تطفو المطرقة إذاً».

يقول جوويل: «أراهنك».

يقول فرنون: «لن أراهن».

يقفان هناك وهما يراقبان يدي جوويل الساكنتين.

يقول جوويل: «يا للجحيم. أحضر المسحاج إذن».

وهكذا يحضران المسحاج ويربطانه بالمقياس الطباشيري ويدخلان الماء من جديد. يعود بابا ليسير على امتداد الضفة. يتوقف لبرهة وينظر إلينا، وقد احدودب ظهره وبدا عليه الحداد والحزن، كثور مخصيّ عاجز أو طائر عجوز ضخم.

يعود فرنون وجوويل، وهما يستندان إلى التيار. يقول جوويل لديووي ديل: «ابتعدي عن طريقنا. اخرجي من الماء».

تلتصق بي قليلاً حتى يستطيعا المرور وجوويل يمسك بالمسحاج عالياً وكأنه شيء قابل للتلف، والخيط الأزرق مدلّى فوق كتفه. يمران بنا ويتوقفان، ثم يعودان للتجادل بهدوء حول المكان الذي انقلبت فيه العربة بالضبط.

يقول فرنون: «لا بد أن دارل يعرف». ينظران إليّ.

أقول: «لا أعرف. لم أكن هناك طوال تلك الفترة».

يقول: «يا للجحيم». يتقدمان بنشاط وحيوية، مستندين إلى التيار يستطلعان المخاضة بأقدامهما.

يسأل فرنون: «هل أمسكت بالحبل؟» لا يجيب جوويل. ينظر إلى الخلف نحو الشاطىء، وهو يَحْسِبُ، ثم إلى الماء. يقذف بالمسحاج نحو الخارج، ويترك الخيط يجري عبر أصابعه، وأصابعه يتحول لونها إلى الأزرق حيث يجري الخيط فوقها. يسلمه إلى فرنون.

يقول فرنون: «الأفضل أن تتركني أذهب أنا هذه المرة». ومن جديد لا يجيب جوويل. نراقبه وهو يغطس تحت سطح الماء.

تنشج ديووي ديل: «جوويل».

يقول فرنون: «ليس الماء عميقاً جداً هناك». لا ينظر إلى الخلف. إنه يراقب الماء حيث غطس جوويل.

حين يخرج جوويل يكون حاملاً المنشار.

حين نمر بالعربة نجد بابا واقفاً إلى القرب منها، وهو يحك لطختي الطين بحفنة من أوراق الشجر. يبدو حصان جوويل ومن ورائه الدغل كأنه لحاف مصنوع من الرقع معلّق على حبل.

لم يتحرك كاش. نقف فوقه ممسكين بالمسحاج والمنشار والمطرقة والكوس والمسطرة والمقياس الطباشيري، بينما تقعي ديووي ديل وترفع رأس كاش. تناديه باسمه.

يفتح عينيه ويحدق بعمق نحو الأعلى نحو وجوهنا المقلوبة. يقول بابا: «لم يسبق أن وجد رجل له مثل هذا الحظ السيئ».

نقول ونحن نرفع الأدوات حتى يراها: «انظر يا كاش. ما الذي كان معك أيضاً؟».

يحاول أن ينطق وهو يدير رأسه ويغلق عينيه.

تقول: «يا كاش. يا كاش».

إنه يدير رأسه ليتقيأ. تسمح ديووي ديل فمه بحاشية ثوبها المبتلة، الآن أصبح قادراً على النطق.

يقول جوويل: «إنها مجموعة المنشار الجديد التي اشتراها حين اشترى المسطرة». يتحرك وهو يبتعد. يلاحقه فرنون بعينيه وهو لا يزال مقعياً. ثم ينهض ويلحق بجوويل حتى الماء.

يقول بابا: «لم يوجد أبداً رجل سيّىء الحظ مثلي». إنه يلوح طويلاً فوقنا ونحن مقعون؛ يبدو كتمثال نُحِتَ من الخشب على نحو غير متقن من قبل فنان كاريكاتير سكير. يقول: «إنه امتحان. ولكني لا أضنّ عليها بذلك. ليس هناك من يستطيع أن يقول إني أضن عليها بذلك». وضعت ديووي ديل رأس كاش على المعطف المطوي، وقد لوت له رأسه قليلاً لتتجنب القيء. إلى جانبه كانت أدواته. يقول بابا: «قد يقول المرء إنه من حسن الحظ أنه كسر الساق نفسها التي سبق له أن كسرها حين سقط من على سطح الكنيسة. ولكني لا أضنّ عليها بذلك».

جوويل وفرنون في النهر من جديد. من هنا لا يبدو أنهما يزعجان السطح إطلاقاً؛ كان يبدو وكأنه قد فصلهما كليهما بضربة واحدة، والجذعان يتحركان بحذر دقيق ومضحك فوق السطح. يبدو هادئاً، كما هو حال الآلة بعد أن تكون قد راقبتها واستمعت إليها لفترة طويلة. كأنما التخثّر الذي هو أنت قد أنحلّ في الحركة

الأصلية الوافرة، وأصبحت الرؤية عمياء وحاسة السمع صماء في حد ذاتها، والغضب نفسه هادئاً بالركود. وها هو الثوب المبتلّ لديووي ديل المقعية يشكّل للعيون الميتة للرجال العميان الثلاثة تلك السخافات الثديية التي هي آفاق وأودية الأرض.

كاش

لم يكن متوازناً. قلت لهم إنهم لو أرادوه أن يحمل وأن يركب متوازناً، لكان عليهم أن...

كورا

في أحد الأيام كنا نتحادث. لم تكن متدينة على نحو صرف أبداً، ولا حتى بعد ذلك الصيف في اجتماع المعسكر حين تصارع «الأخ وايتفيلد» مع روحها؛ اختارها من بين الجميع وكافح تلك الخيلاء في قلبها الفاني، وقد قلت لها مرات عديدة: «لقد منحك الله الأولاد ليخفف من مصيرك الانساني البائس وكرمز لمعاناته «هو» ولحبّه، فبالحب حملتهم وولدتهم». قلت ذلك لأنها كانت تنظر إلى حب الله وإلى واجبها تجاهه على أنهما قضية مفروغ منها، ومثل هذا السلوك لا يرضيه. قلت: «لقد منحنا موهبة رفع أصواتنا لنسبح بحمده إلى الأبد» قلت لها إنه يجري هناك في السماء من الاحتفال بآثم واحد أكثر مما يجري الاحتفال بمئة لم يسبق لهم أن ارتكبوا الآثام. فقالت: «حياتي اليومية اعتراف وتكفير عن إثمي». قلت: «ومن أنت حتى تعرفي ما هو آثم وما هو غير آثم؟ إن من شأن الرب أن يحكم ومن شأننا نحن أن نسبّح برحمته واسمه المقدس تحت سمع الفانين من رفاق الدرب، لأنه هو وحده القادر على أن يرى ما في القلب، ولأن حياة المرأة تحت وقع بصر الرجل فهي لا تستطيع أن تعرف انه لا يوجد

إثم في قلبها دون أن تفتح قلبها للرب وتستقبل رحمته». قلت: «مجرد كونك زوجة مخلصة لا يعني أن قلبك خال من الإثم ولأن حياتك قاسية لا تعني أن الله قد غفر لك برحمته».

فقالت: «أعرف إثمي. أعرف أني أستحق العقاب الذي نالني. ولا أضنُّ على نفسي به». فقلت: «إنّك تحكمين على إثمك وخلاصك بدلاً عن الرب من خلال خيلائك. إن قدرنا كفانين يحتّم علينا أن نعاني وأن نرفع أصواتنا مسبّحين بحمده هو الذي يحكم على الإثم ويعرض الخلاص من خلال امتحاناته ومحنه وذلك منذ عهود لا ترقى إليها ذاكرة أحد، آمين. وحتى بعد أن قام «الأخ وايتفيلد» وهو رجل ورع دون أدنى شك، بالصلاة من أجلك وناضل كما لا يمكن لإنسان آخر أن يناضل، لم ترعوي».

نحن لا نقدر أن نحكم على آثامنا أو نعرف ما هو الإثم في تقدير الرب. لقد عاشت حياة صعبة، ولكن كل النساء هكذا. إلا أنك كنت ستظن من الطريقة التي كانت تتحدث بها أنها تعرف عن الإثم والخلاص أكثر من الرب نفسه، وأكثر من أولئك الذين ناضلوا وكافحوا الإثم في هذا العالم البشري. حين كان الإثم الوحيد الذي سبق لها وارتكبته هو تحيزها إلى جوويل الذي لم يحبها أبداً وكان في ذلك عقوبة لها بحد ذاته، وذلك ضد دارل الذي كان على صلة بالرب ويعتبر شاذاً من قبلنا نحن الفانين والذي كان يحبها فعلاً. قلت: «هذا هو إثمك وجزاؤك أيضاً. جوويل هو جزاؤك. ولكن اين هو خلاصك؟ والحياة قصيرة بحيث لا تكفينا حتى ننال الرحمة الأبدية خلالها. والرب رب غيور. إنه هو الذي يحكم وهو الذي يوزع الحصص، وليس أنت».

قالت: «أعرف ذلك. أنا...» ثم توقفت فقلت: «ماذا تعرفين؟» قالت: «لا شيء. إنه صليبي وسيكون خلاصي. سينقذني من الماء ومن النار. حتى لو ضحيت بحياتي سينقذني هو».

قلت: «كيف تعرفين ذلك دون أن تفتحي قلبك للرب وترفعي صوتك مسبحة بحمده؟» ثم أدركت أنها لم تكن تعني الرب. أدركت أنها من خلال غرور قلبها قد ارتكبت تدنيساً للمحرّمات. ثم ركعتُ على ركبتيّ هناك. رجوتُها أن تركع وتفتح قلبها وتطرد شيطان الغرور منه وأن ترمي بنفسها تحت رحمة الله. ولكنها رفضت. لقد جلست هناك وقد أعماها الغرور والخيلاء اللذان أغلقا قلبها أمام الله وفتحا المجال أمام ذلك الغلام الأناني الفاني بدلاً عنه. وقد صليتُ لأجلها وأنا جالسة هناك. صليت لتلك المرأة الفقيرة العمياء كما لم أصلي من أجل نفسي وأولئك الذين هم أهلي.

آدي

في فترة بعد الظهر حين تقفل المدرسة أبوابها ويغادرها آخر طفل بأنفه الصغير القذر المتنشّق، فإني بدلاً عن الذهاب إلى البيت أهبط التل إلى النبع حيث يمكنني أن أشعر بالهدوء وأكرههم. المكان هناك هادىء والماء يقبق صاعداً ثم مبتعداً والشمس تنحدر بهدوء إلى الأشجار والرائحة الهادئة للأوراق الرطبة الآخذة بالتعفّن والتربة الجديدة؛ خاصة في بدايات الربيع، حيث يكون الأمر في أسوأ حال آنئذ.

أستطيع أن أتذكر كيف اعتاد أبي أن يقول إن سبب العيش هو الاستعداد للموت لفترة طويلة. وحين كنت مضطرة إلى أن أراهم اليوم في إثر اليوم، أرى كل واحد منهم مع أسراره أو أسرارها وأفكارهم الأنانية، كل قريب منهم غريب عن قريبه وغريب عني، وأفكر أن هذه تبدو على أنها الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أستعد بها للموت، كنت أكره أبي لمجرد أنه قد زرعني. كنت أتلهف إلى أن يغلطوا حتى أستطيع أن أضربهم. وحين كان القضيب يهوي كنت أستطيع أن أشعر به على لحمي، وحيث كان يضرب ويترك أثراً كان دمي هو الذي يهرب، وكنت أفكر مع كل ضربة من القضيب بما يلي: الآن أنتم

واعون بي! الآن أنا شيء ما في حياتكم السرية والأنانية، يا من وسمتم دمكم بدمي إلى أبد الآبدين.

وهكذا تزوجت آنس. رأيته يمر بمبنى المدرسة ثلاث أو أربع مرات قبل أن أعلم أنه كان يقود عربتين مسافة أربعة أميال بعيداً عن طريقه المعتاد ليمر بمبنى المدرسة. لاحظت آنذاك كيف كانت حدبته قد بدأت تنمو ـ رغم أنه كان شاباً طويل القامة ـ ولذلك كان يبدو منذ ذلك الحين أشبه بالطائر الضخم الذي أحنى الطقس البارد ظهره وهو جالس هناك على مقعد العربة. كان يمر بمبنى المدرسة والعربة تصرّ بطيئة، وقد التفت رأسه ببطء ليراقب باب المدرسة خلال مرور العربة، وذلك حتى يدور حول المنحنى بعيداً عن الأنظار. في أحد الأيام ذهبت إلى الباب ووقفت هناك وكان أن مرَّ، وحين رآني أشاح بنظره بعيداً وبسرعة ولم ينظر مرة أخرى.

في بدايات فصل الربيع كان الأمر في أسوأ حال. في بعض الأحيان كنت أفكر أني لا أستطيع احتمالها، وذلك وأنا ممددة في الفراش ليلاً، والأوز البري يتجه شمالاً وهو يصيح صياحاً يصل ضعيفاً وحاداً ووحشياً عبر الظلام الوحشي، وخلال النهار كان يبدو وكأني ما كنت أستطيع انتظار خروج آخر الأطفال لأنزل إلى النبع. لذا حين رفعت نظري في ذلك اليوم ورأيت «آنس» واقفاً هناك بملابس يوم الأحد وقد راح يدير قبعته من حول يديه، قلت:

«إذا كان في عائلتك نساء فلماذا لا تجعلهن يقصصن لك شعرك؟»

قال: «ليس لديّ نساء». ثم قال فجأة وهو يدفع عينيه نحوي ككلبي صيد في فناء غريب: «هذا ما جئت لأراك من أجله».

قلت: «ويجعلنك ترفع كتفيك نحو الأعلى. أليس لديكم نساء؟ ولكن لديكم منزل. وقيل لي إن لديك منزلاً ومزرعة جيدة. وأنت تعيش هناك وحدك، أليس كذلك؟» نظر إليّ فحسب وهو يدير قبعته بين يديه. قلت: «بيت جديد. هل ستتزوج؟».

ثم قال مرة أخرى وهو ينظر في عينيّ: «هذا ما جئت لأراك بشأنه».

ثم قال لاحقاً: «ليس لدي أهل. لا تقلقي بهذا الشأن. لا أظن أنكِ تستطيعين أن تقولي هذا الكلام نفسه».

«لا، لدي أهل. في جيفرسون».

شحب وجهه قليلاً. «حسناً، لدي ملكية صغيرة. أنا ثري. لدي سمعة جيدة. أعرف كيف هم سكان المدن، حين يحادثونني ربما...».

قلت: «ربما يصغون. ولكن من الصعب محادثتهم». كان يراقب وجهي «إنهم في المقبرة».

قال: «ولكن هناك أقرباؤك الأحياء. سيكونون مختلفين».

قلت: «هل هذا صحيح؟ لا أعرف. ليس لدي أي نوع آخر».

وهكذا تزوجت آنس. وحين عرفت أني حامل بـ «كاش» عرفت أيضاً أن الحياة أمر رهيب وأن هذا هو الجواب عليها. كان ذلك حين عرفت أن الكلمات لا تجدي، أن الكلمات لا تناسب حتى ما تحاول أن تعبر عنه. وحين ولد عرفت أن الأمومة أمر اخترعه شخص أراد أن تكون هناك كلمة لهذا الأمر لأن النساء اللواتي لديهن أطفال لا يكترثن إن كانت هناك كلمة بهذا المعنى أو لا. وعرفت أن الخوف أمر اخترعه شخص ما لم يسبق له أن عرف الخوف؛ والغرور شخص لم

يعرف الغرور. عرفت أن ذلك كان صحيحاً، ليس لأنه كانت لهم أنوف قذرة، ولكن لأننا اضطررنا إلى استغلال بعضنا البعض بكلمات أشبه بالعناكب المتدلية من فمها من عمود، وهي تتأرجح وتتلوىّ لا تتلامس أبداً، وأنه غير ممكن سوى بضربات القضيب أن يتدفق دمي ودمهم كجدول واحد. عرفت أن ذلك كان صحيحاً، ليس لأن وحدتي كان لا بد من انتهاكها المرة تلو الأخرى كل يوم، ولكن لأنها لم يسبق لها أن انتهكت حتى وصل كاش. حتى آنس لم يستطع انتهاكها في الليالي.

كانت لديه كلمة هو أيضاً. وكان يدعوها: الحب. ولكني كنت قد اعتدت على الكلمات منذ زمن طويل. كنت أعرف أن تلك الكلمة كانت كالكلمات الأخرى: مجرد شكل لتعبئة نقص ما؛ وأنّه حين يزف الوقت الملائم فلن تحتاج إلى كلمة بل إلى الغرور أو الخوف. لم يكن كاش في حاجة إلى أن يقولها لي أو أقولها له، وكنت أقول فلأدع آنس يستعملها إن كان يريد ذلك. لذا كان الأمر هكذا: آنس أو الحب؛ الحب أو آنس: لم يكن هناك من فرق.

وكنت أفكر في ذلك حتى حين كنت أتمدد معه في الظلام وكاش نائم في المهد قريباً من يدي. كنت أفكر أنه لو استيقظ وبكى فسوف أرضعه هو أيضاً. آنس أو الحب: لا فرق. لقد انتهكت وحدتي ثم عادت لتكون سليمة بواسطة الانتهاك: الزمن، آنس، الحب، ما تريد، خارج الدائرة.

ثم اكتشفت أنّي حامل بدارل. في البداية ما كنت لأصدق ماحدث. ثم اعتقدت أني سأقتل آنس. كان الأمر أشبه بكونه قد خدعني وهو مختبىء ضمن كلمة كما ضمن حاجز من الورق ثم طعنني

في الظهر من خلاله. ولكنني أدركت بعد ذلك أني قد خدعت بكلمات أقدم من آنس أو الحب، وأن الكلمة نفسها قد خدعت آنس أيضاً، وأن انتقامي سيكون أنه لن يعرف أبداً أني أنتقم.

وحين ولد دارل طلبت من آنس أن يعدني بأن يعيدني إلى جيفرسون حين كان غير قادر على أن يعرف أنه كان على حق أكثر مما كنت أستطيع أنا أن أعرف أني كنت على خطأ.

قال آنس: «هراء، أنت وأنا لم ننته من الإنجاب بعد، فكل ما أنجبناه ولدان».

لم يكن يدري أنه كان ميتاً، آنئذ. كنت أتمدد أحياناً إلى القرب منه في الظلام، أصغي إلى الأرض التي كانت الآن دمي ولحمي، وكنت أفكر: آنس. لماذا آنس. لماذا أنت يا آنس. كنت أفكر في اسمه حتى أصبحت بعد فترة أرى الكلمة كشكل، كوعاء، وكنت أراقبه وهو يتحول إلى سائل ويسيل فيه كما يسيل دبس السكر البارد من الظلام إلى الوعاء حتى يقف الابريق ممتلئاً وساكناً: شكل رائع دون حياة على نحو عميق كإطار باب فارغ؛ ثم أجد أني نسيت اسم الابريق كنت أفكر: شكل جسدي حين كنت عذراء هو على شكل[1] ...وكنت لا أستطيع التفكير بـ «آنس»، لم أكن قادرة على تذكر «آنس». لم يكن الأمر أني كنت قادرة على التفكير بنفسي على أني لم أعد ثيباً، لأني أضحيت ثلاثة الآن. وحين كنت أفكر بـ «كاش» و«دارل» بتلك الطريقة حتى يموت اسماهما ويتجمدان متحولين إلى شكل ثم يتلاشيان، كنت أقول، حسناً. لا يهم. فليسمّوهما كما يشاؤون.

وهكذا حين كانت «كورا» تقول لي إني لم أكن أماً حقيقية، كنت

1ـ هكذا وردت في النص الأصلي، أي فراغ فحسب (المترجم)

أفكر كيف أن الكلمات تتحول مباشرة إلى خط رفيع، سريعة غير مؤذية، وكيف يسير الفعل على نحو رهيب فوق الأرض، ملتصقاً بها، وبذا فإنه بعد فترة يبتعد الخطان كثيراً عن بعضهما البعض بحيث يصعب على الشخص نفسه أن يقف مفرشخاً فوقهما كليهما؛ وأن الإثم والحب والخوف هي مجرد أصوات يحوز عليها أولئك الناس الذين لم يسبق لهم أن ارتكبوا الإثم أو أحبّوا أو خافوا لقاء ما لم يحوزوا عليه ولا يستطيعون أن يحوزوا عليه حتى ينسوا الكلمات. مثل كورا التي لم تكن تقدر حتى على الطبخ.

كان من عادتها أن تقول لي إني مدينة لأطفالي ولآنس وللرب. لقد منحت آنس الأولاد. لم أطلبهم. لم أطلب منه حتى ما كان قادراً على إعطائي إياه: ليس آنس. كان ذاك هو واجبي تجاهه، ألا أطلب ذلك، وقد أديت ذلك الواجب. كنت سأكون أنا نفسي؛ سأدعه يكون شكل وصدى كلمته. كان ذلك أكثر مما طلبه هو، لأنه ما كان قادراً على أن يطلب ذلك ويكون آنس في وقت واحد، مستعملاً نفسه على هذا النحو بكلمة.

ثم مات. لم يكن يدري أنه ميت. كنت أتمدد إلى القرب منه في الظلام، أصغي إلى الأرض المعتمة تتحدث عن حب الرب وجماله وإثمه؛ أصغي إلى الصمت المعتم الذي تكون فيه الكلمات هي الأفعال، والكلمات الأخرى التي ليست أفعالاً، والتي هي مجرد فجوات فيما ينقص الناس، تنزل كصيحات الأوز من العتمة الوحشية في الليالي الرهيبة الغابرة، متلمسة الأفعال كأيتام أشير لهم في الزحام إلى وجهين ثم قيل لهم: ذلك هو أبوكمِ وتلك هي أمكم.

أعتقدت أني وجدته. اعتقدت أن السبب كان «الواجب تجاه الحيّ

تجاه الدم الرهيب، الدم الأحمر المرّ الذي يفور عبر الأرض». كنت أفكر بالأثم كما أفكر بالملابس التي كنا نرتديها كلانا في وجه العالم، بالحذر الضروري لأنه كان هو وكنت أنا،بالأثم الأكثر كلية ورهبة حيث كان الأداة التي قدرها الله الذي خلق الإثم، حتى يظهر ذلك الإثم الذي خلقه وبينما كنت أنتظره في الغابات، أنتظره قبل أن رآني، كنت أفكر به مرتدياً الإثم كنت أفكر به وهو يفكر بي مرتدية الإثم أيضاً، وهو الأجمل حيث أن الثوب الذي استبدل به الإثم كان مطهَّراً. كنت أفكر بالإثم كملابس نستطيع أن نخلعها حتى نشكّل ونكره الدم الرهيب حسب الصدى اليائس للكلمة الميتة العالية هناك في الجو. ثم كنت أتمدد مع آنس مرة أخرى ـ لم أكن أكذب عليه: كنت أرفض فحسب كما رفضت منح ثديي إلى كاش ودارل بعد أن حان فطامهما ـ أصغي إلى الأرض المعتمة تتحدث بلغة الصمت.

لم أُخْفِ شيئاً. لم أحاول خداع أحد. ما كنت لأهتم. كنت أتخذ الاحتياطات فحسب التي كان يعتقدها ضرورية لأجله هو، ليس من أجل سلامتي، بل كما أرتدي الملابس في وجه العالم. وكنت أفكر حين كانت تكلمني كورا آنذاك كيف أن الكلمات الميتة السامية بدت في حينه وكأنها تفقد حتى مغزى صوتها الميت.

ثم انقضى كل شيء. انقضى بمعنى أنه رحل وعرفت ذلك، ورغم أني كنت أراه ثانية، إلا أني ما عدت أراه قادماً إليّ بسرعة وسرية في الغابات مرتدياً الإثم كرداء أنيق راح ينتفخ جانباً بسرعة قدومه السّري.

ولكن لم يكن كل شيء قد انقضى بالنسبة إلي. أعني أنه انقضى بمعنى البداية والنهاية، لأنه لم تكن هناك بالنسبة إليّ أية بداية ولا نهاية

لأي شيء آنذاك. بل إني كنت أمسك بآنس محجمة بعد، ليس بمعنى أني كنت أمسك به على نحو انسحابي، ولكن لم يحدث أي شيء. كان أطفالي مني فحسب، من الدم الوحشي الغائر على امتداد الأرض، مني ومن كل ما فيه حياة؛ من لا أحد ومن الجميع. ثم اكتشفت أني حامل بجوويل. وحين استيقظت لأتذكر أني اكتشفته، كان شهران قد مرّا.

قال أبي إن سبب الحياة هو الاستعداد للموت. عرفت أخيراً ما كان يعنيه وأنه ما كان قادراً على أن يعرف ما كان يعنيه هو نفسه، لأن الرجل لا يستطيع أن يعرف أي شيء عن تنظيف البيت وترتيبه فيما بعد. وهكذا نظّفت بيتي. ومع جوويل كنت أتمدّد قرب المصباح، ممسكة برأسي ـ وأراقبه (الطبيب)[1]، وهو يغطيه ثم يخيط (الجرح)[2] قبل أن يتنفس ـ الدم الوحشي قد فار مبتعداً وصوته قد صمت. عندها لم يكن هناك سوى الحليب، الدافيء والهادىء، وأنا أتمدد هادئة في الصمت البطيء أستعد لتنظيف بيتي. أعطيت آنس «ديووي ديل» لأنكر جوويل، ثم أعطيته «فارداماان» لأعوّضه عن الطفل الذي سرقته منه. ولديه الآن ثلاثة أطفال هم أطفاله وليسوا أطفالي. وبعد ذلك كنت على استعداد للموت.

في أحد الأيام كنت أحادث كورا. وقد صلّت من أجلي لأنها كانت تظن أني كنت عمياء لا أرى الإثم، وكانت تريد مني أن أركع وأصلي أنا أيضاً، لأن الناس الذين ما الإثم بالنسبة إليهم سوى قضية كلمات فحسب، يعتبرون الخلاص مجرد كلمات أيضاً.

1ـ إضافة من المترجم.
2ـ إضافة من المترجم.

وايتفيليد

حين قيل لي إنها كانت تحتضر، تصارعت مع الشيطان طوال تلك الليلة، وقد خرجت منتصراً. صحوت على ضخامة إثمي، رأيت النور الصحيح أخيراً، وقد سقطت على ركبتيّ واعترفت أمام الله وطلبت منه الهداية وتلقيتها. قال الرب لي: «انهض، اذهب إلى ذلك البيت الذي وضعت فيه كذبة حية بين أولئك الناس الذين انتهكت معهم كلمتي الربانية؛ اعترف بإثمك جهاراً. إن عليهم هم أن يغفروا لك وعلى ذلك الزوج المخدوع أن يغفر لك وليس أنا».

وهكذا انطلقت. سمعت أن جسر «تل» قد انهار. قلت «حمداً لك يا رب، أيها الحاكم القوي على كل شيء». فبتلك الأخطار والصعوبات التي كان عليّ التغلب عليها رأيت أنه لم يتخلّ عني وأن عودتي مرة أخرى إلى سلامه وحبه المقدّسين ستكون أعذب بسببها. صلّيت قائلاً: «لا تجعلني أمت قبل أن أكون قد طلبت الغفران من الرجل الذي خنت. لا تجعلني أصل متأخراً، لا تدع حكاية إثمي وإثمها تخرج من شفتيها بدلاً من شفتي. لقد أقسمتْ آنذاك ألا تفشي

بها، ولكن مواجهة دار الخلود أمر مخيف: أو لم أصارع الشيطان بنفسي فخذاً لفخذ؟ لا تجعل روحي تتحمل خطيئة قسمها المحنوث أيضاً. لا تجعل مياه غضبك الهائل تحاصرني حتى أكون قد طهّرت رحي في حضور أولئك الذين آذيت».

كانت يده الربانية هي التي حملتني بأمان فوق الطوفان، وحمتني من أخطار المياه. خاف حصاني، كما تخلّى عني قلبي حين واجهت بصَغَاري الجذوع والأشجار المقتلعة من جذورها. ولكن ليس روحي: المرة في إثر الأخرى رأيتها[1] تتحول عن طريقي عند لحظة الدمار الحاسمة، وكنت أرفع صوتي فوق صخب الطوفان: «الحمد لك أيها الرب القوي، أيها الملك الجبار. بهذه الإمارة سأطهر روحي وأنضم من جديد إلى قطيع المؤمنين بحبك الخالد».

كنت أعرف آنئذ أن الغفران أصبح ملكي. الطوفان، الخطر، في الخلف، وبينما كنت أركب حصاني فوق الأرض الصلبة من جديد وراح موطن عذابي (جثمانيتي) يقترب أكثر فأكثر، رحت أشكّل الكلمات التي عليّ استعمالها. سأدخل المنزل، سأوقفها قبل أن تتكلم؛ سأقول لزوجها: «يا آنس، لقد أثمت. إفعل بي ما يحلو لك».

أصبحت أشعر سلفاً كأنّ الأمر قد أنجز. أضحت روحي أكثر تحرّراً، أهدأ مما كانت عليه منذ سنين، لقد بدا لي سلفاً أني أسكن في سلام دائم مرة أخرى وأنا أتابع رحلتي فوق الحصان. على كلا الجانبين كنت أرى يده الربانية؛ في قلبي كنت قادراً على سماع صوته: «تشجّع. أنا معك».

1ـ يقصد الجذوع العائمة في النهر.(المترجم).

ثم وصلت إلى منزل «تل». خرجت أصغر بناته وصاحت علي وأنا أمرّ. قالت لي إنه قد سبق لها وماتت.

لقد أثمت أيها الرب. أنت تعرف مدى ندمي وإرادة روحي. ولكنه رحيم سيقبل الإرادة بدلاً عن الفعل، هو الذي عرف أني حين شكّلت كلمات اعترافي كانت تلك موجهة إلى آنس، حتى وإن لم يكن هناك. لقد قام الرب بحكمته اللامتناهية بكبح الحكاية حتى لا تخرج من شفتيها المحتضرتين وهي ممدّدة هناك محاطة بأولئك الذين أحبوها ووثقوا بها؛ وأنا مررت بمخاضي عبر الماء الذي تجاوزته بقوة يده الربانية. الحمد لك في حبك الوفير الكلي القدرة. الحمد لك.

دخلت منزل اليتم، البيت المتواضع حيث كان جثمان امرأة فانية آثمة مثلي ممدداً بينما تواجه روحها الحكم الرهيب الذي لا عودة عنه، فليرحم الله رفاتها.

قلت: «فلتنزل رحمة الله على هذا المنزل».

دارل

«على الحصان ركب» حتى منزل آرمستيدو «عاد على الحصان» وهو يقود بغلّي آرمستيد. شددنا البغلين إلى العربة ووضعنا كاش فوق آدي. حين وضعناه هناك تقيأ مرة أخرى، ولكنه رفع رأسه في الوقت المناسب ليتقيأ خارج العربة.

قال فرنون: «يبدو أنه أصيب بضربة في المعدة أيضاً».

قلت: «يبدو أن الحصان قد رفسه في المعدة. هل رفسك في معدتك يا كاش؟».

حاول أن يقول شيئاً. مسحت ديووي ديل فمه مرة أخرى.

سأل فرنون: «ما الذي قاله؟».

سألته ديووي ديل: «ما الحكاية يا كاش؟» ثم انحنت عليه. قالت: «أدواته». لقد جلبها فرنون ووضعها في العربة. رفعت ديووي ديل رأسه حتى يتمكن من الرؤية. تابعنا السير، ديووي ديل وأنا جالسان قرب كاش حتى نبقيه ثابتاً **«وهو يركب على الحصان أمامنا»**. وقف فرنون

يراقبنا لفترة. ثم استدار وعاد نحو الجسر. سار بنشاط وقد بدأ يضرب الأكمام المبتلة لقميصه وكأنه قد تبلّل للتو.

«**كان جالساً على الحصان أمام البوابة**». كان آرمستيد ينتظر عند البوابة. توقفنا «وترجل» وأنزلنا كاش من العربة وحملناه إلى المنزل حيث كانت السيدة آرمستيد قد جهزت له السرير. وقد غادرناها وديووي ديل تقوم بخلع ملابسه عنه.

خرج بابا ولحقنا به إلى العربة. عاد وصعد إلى العربة واستأنف السير، ونحن نتبعه على أقدامنا نحو الساحة أمام المنزل. لقد ساعدنا البلل لأن آرمستيد قال: «أهلاً بكم في المنزل. يمكنكم أن تضعوه هناك». «**لحق بنا وهو يقود الحصان، ووقف قرب العربة والعنان في يده**».

قال بابا: «أشكرك. سنستعمل السقيفة التي هناك. أعرف أن في هذا عبئاً ثقيلاً عليكم».

قال آرمستيد: «أهلاً بكم في المنزل». «**كانت على وجهه تلك النظرة المتخشبة من جديد، تلك النظرة الجريئة، المكفهرة، شديدة التحيز والقاسية كأنما كان لوجهه وعينيه لونان من ألوان الخشب، والعليل منهما فاتح والقليل منهما قاتم. كان قميصه قد بدأ يجف، ولكنه لا زال يلتصق به حين يتحرك**».

قال بابا: «لا شك أنها كانت ستقدّر هذا».

أخرجنا البغلين ودفعنا العربة إلى ما تحت السقيفة. كان أحد جوانبها مفتوحاً.

قال آرمستيد: «إذا هطل المطر فلن يصيبكم. ولكن إذا كنتم تفضلون...»

خلف الحظيرة كانت بعض ألواح القصدير الصدئة التي تستعمل

لصنع السقوف. أخذنا اثنين منها وأسندناهما إلى الجانب المفتوح.

قال آرمستيد: «أهلاً بكم في المنزل».

قال بابا: «أشكرك. سيكون كرماً منك لو تفضلت وقدّمت لهم وجبة خفيفة صغيرة».

قال آرمستيد: «بكل تأكيد. ستعدّ «لولا» العشاء بعد أن ترى أن كاش في وضع مريح». **«كان قد عاد إلى الحصان وراح ينزل عنه السرج، وقميصه المبتل يلتصق به عندما يتحرك».**

رفض بابا الدخول إلى المنزل.

قال آرمستيد: «ادخل لتأكل. الطعام كاد يجهز».

قال بابا: «لا رغبة لي في أي شيء. أشكرك».

قال آرمستيد: «ادخل وجفف نفسك وكل. سيكون كل شيء على ما يرام».

قال بابا: «من أجلها فحسب. من أجلها سأتناول الطعام. ليست لدي بغال الآن ولا أي شيء. ولكنها ستكون ممتنة لكل واحد منكم».

قال آرمستيد: «بالتأكيد. هيا ادخلوا وجففوا أنفسكم».

ولكن بعد أن قدم آرمستيد شراباً إلى بابا، شعر هذا بالتحسّن، وحين دخلنا لنرى ما حل بكاش **«لم يدخل هو معنا. وحين نظرت إلى الخلف كان يقود الحصان إلى داخل الحظيرة»** كان قد سبق له وبدأ يتحدث عن الحصول على زوج آخر من البغال، ومع حلول وقت العشاء كاد يشتريه **«هو هناك في الحظيرة، ينزلق برشاقة عبر الدوامة المبهرجة المندفعة، نحو مربط الجياد مع الحصان. يتسلق نحو المذود ويجر التبن نحو الأسفل ويغادر**

المربط ويبحث عن المحسة ويجدها. ثم يعود وينزلق بسرعة عبر الضربة الوحيدة الهادرة، ثم أمام الحصان حيث لا يستطيع أن يصله ـ يبدأ بتمشيطه بالمحسة وهو ضمن مدى ضربة الحصان برشاقة لاعب الأكروبات، ويشتم الحصان في همسة داعرة. تنطلق رأسه نحو الخلف وقد مشطتها أسنان المحسة؛ عيناه تدوران في ضوء الغسق كبليتين فوق قماش مخملي مبهرج وذلك وهو يضربه على وجهه بظهر المحسة».

أرمستيد

قبل أن أعطيه جرعة أخرى من الويسكي، والعشاء قد أصبح جاهزاً تقريباً، كان قد سبق له واشترى بغلين من شخص ما على الحساب. وبينما كان يختار وينتقي راح يحكي كيف أنه لم يحب ذينك البغلين وأنه لا يرغب في إنفاق أمواله على أي شيء يُمتلك حتى لو كان قنّ دجاج.

قلت: «يمكنك أن تجرب «سنوبس». لديه ثلاث مجموعات من البغال كل منها مؤلف من أربعة رؤوس. ربما سيناسبك بعضها».

ثم بدأ يغمغم بفمه، وينظر إليّ كأني أنا الذي يملك المجموعة الوحيدة من البغال في البلد ولا أريد أن أبيعها له، حين كنت على علم أن بغليّ هما الوحيدان القادران على إخراجهم ممّا هم فيه. ولكنني لا أعرف ما الذي سيستطيعون فعله بالبغلين لو كانا في حوزتهم. لقد حكى لي «ليتلجون» أن السدّ الخاص بمنع الفيضان عند منخفض «هالي» قد طغى عليه الماء مسافة ميلين وأن الطريقة الوحيدة للوصول إلى جيفرسون هي الدوران من حول موتوسون. ولكن كان ذلك أمراً يخص آنس.

يقول وهو يغمغم بفمه: «المتاجرة مع شخص مثله أمر جيد». ولكن حين أعطيته جرعة أخرى بعد العشاء أصبح أكثر مرحاً. كان يريد العودة إلى الحظيرة ليسهر معها. ربما فكر أنه لو بقي هناك جاهزاً للانطلاق فإن «سانتا كلوز» سيجلب له زوجاً من البغال. يقول «ولكني أعتقد أني أستطيع إقناعه. إن شخصاً مثله من شأنه على الدوام أن يساعد رجلاً في محنة، ذلك إن كان فيه قطرة دم مسيحية واحدة».

قلت: «طبعاً أنا أرحب باستعمالك بغليّ» رغم أني أعرف كم كان يعتقد أن هذا هو عين الصواب.

قال: «أشكرك. كانت ستفضل الرحيل على بغلينا». قال ذلك وهو الذي يعرف كثيراً كم أني أعتقد أن هذا هو عين الصواب.

بعد العشاء ركب جوويل حصانه وسار حتى «المنعطف» ليحضر «بيبودي». سمعت أنه كان هناك اليوم عند آل فارنر.. عاد جوويل في حوالي منتصف الليل. كان بيبودي قد نزل إلى ما دون «انفرنس» يقصد مكاناً ما، ولكن العم بيلي حضر معه، ومعه حقيبته الخاصة بمعالجة الجياد. ففي رأيه أن الرجل لا يختلف في شيء عن الحصان أو البغل باستثناء أن للبغل أو الحصان عقلاً أكبر قليلاً. يقول كاش وهو ينظر إليه: «ما حكايتك أيها الولد؟ أحضروا لي فرشة وكرسياً وكأساً من الوسكي».

جعل كاش يشرب الويسكي ثم أخرج آنس من الغرفة. يقول آنس بلهجة حزينة وهو يغمغم ويرمش: «من حسن حظه أنه كسر تلك الساق نفسها التي سبق له وكسرها في الصيف الماضي. هذا حسن».

طوينا الفرشة عبر ساقي كاش ثم وضعنا الكرسي فوق الفرشة وجلسنا أنا وجوويل على الكرسي بينما حملت الفتاة المصباح

وأخذ العم بيلي مضغة من التبغ وشرع يعمل. قاوم كاش بقوة لفترة من الزمن حتى أغمي عليه. ثم سكن تماماً، وكرتان كبيرتان من العرق تقفان على وجهه كأنما كانتا ستتدحرجان إلى الأسفل ثم توقفتا لتنتظراه.

حين أفاق كان العم بيلي قد أنهى توضيب أغراضه وغادر المكان. ظل يحاول أن يقول شيئاً ما حتى انحنت الفتاة عليه ومسحت له فمه.

قالت: «إنها أدواته».

قال دارل: «لقد جلبتها. إنها معي».

حاول أن ينطق مرة أخرى، انحنت عليه. قالت: «يريد أن يراها». وهكذا جلبها دارل إلى حيث يستطيع مشاهدتها. ثم دفعوا بها إلى تحت طرف السرير حيث يستطيع أن يمدّ يده ويلمسها حين يشعر بالتحسُّن. في الصباح التالي أخذ آنس ذلك الحصان وذهب إلى «المنعطف» ليرى سنوبس. وقد وقفا هو وجوويل في الساحة أمام المنزل يتحدثان لفترة، ثم ركب آنس الحصان وانطلق به. وأعتقد أن هذه هي المرة الأولى التي سمح بها جوويل لأي شخص بامتطاء ذلك الحصان، وظل حتى عاد آنس وهو يتسكع بتلك الطريقة التي تدل على نفاد الصبر ويرقب الطريق كأنما يكاد يحزم أمره فينطلق في أثر آنس لاستعادة الحصان.

في حوالي التاسعة بدأ الحرّ يشتدّ. وكان ذلك حين شاهدت أول صقر حوّام. كان ذلك بسبب البلل على ما أعتقد. وعلى أية حال لم أرَ بقيتها [1] إلا بعد أن مرّ جزء كبير من النهار. ومن حسن الحظ أن النسيم

1 ـ يقصد الصقور الحوّامة. (المترجم).

كان يتجه بعيداً عن المنزل، لذلك لم يحدث أن وصلت[1] إلاّ بعد الصباح بفترة طويلة. ولكن ما أن رأيتها حتى استطعت أن أشمها[2] وأنا في الحقل وهي البعيدة عني مسافة ليل كامل وذلك من مجرد مراقبة الصقور الحوّامة وهي تحوم وتحوم وذلك حتى ليستطيع كل شخص في المقاطعة أن يعرف ما في حظيرتي.

كنت لا أزال على مسافة نصف ميل من المنزل حين سمعت ذلك الصبي يصرخ. ظننت أنه قد سقط في البئر أو شيئاً من هذا القبيل، لذلك حثثت حصاني ودخلت إلى الساحة قفزاً.

كان هناك إثنا عشر واحداً منها على الأقل جالسة على امتداد عمود الحظيرة، وذلك الصبي يطارد واحداً آخر منها حول الساحة كأنه ديك رومي، وذلك الطائر لا يفعل شيئاً سوى أن يرفع نفسه قليلاً ليتفادى ضرباته ثم يطير إلى سطح السقيفة حيث وجده جالساً على التابوت. كان الحرّ قد اشتد آنئذ، وهذا صحيح، والنسيم قد توقف أو تغيّر أو ما شابه، لذلك ذهبت وبحثت عن جوويل، ولكن «لولا» كانت قد خرجت.

قالت: «عليك أن تفعل شيئاً ما. هذا انتهاك للمقدسات».

قلت: «هذا ما أنوي فعله».

قالت: «هذا انتهاك للحرمات. يجب أن يقاضى لقاء معاملته لها على هذا النحو».

قلت: «سيدفنها بأسرع ما يستطيع». وهكذا بحَثت عن جوويل حتى وجدته وسألته أن يأخذ أحد البغلين ويذهب إلى «المنعطف»

1 ـ يقصد الصقور الحوامة (المترجم).
2 ـ يقصد رائحة الجثة (المترجم).

ليرى ما حلّ بآنس. لم يفه بشيء. بل نظر إليّ فحسب وفكّاه أصبحا بيضاوين وعيناه كذلك، ثم ذهب وبدأ ينادي على دارل.

قلت: «ما الذي تعنيه؟»

لم يجب. خرج دارل. قال جوويل: «تعال».

قال دارل: «ما الذي تريد فعله؟».

قال جوويل من فوق كتفه: «سنحرّك العربة».

قلت: «لا تتصرف بحماقة. لم أقصد الإساءة. لا يمكنك أن تفعل أي شيء». تردّد دارل، ولكن ما كان هناك ما يردع جوويل عن فعل أي شيء.

قال: «أغلق فمك اللعين».

قال دارل: «يجب أن تكون في مكان ما. سننطلق حالما يعود بابا».

قال جوويل وعيناه البيضاوان تشعان ووجهه ينتفض كأنما أصابته البرداء: «ألن تساعدني؟».

قال دارل: «لا، لن أساعدك. انتظر حتى يعود بابا».

وهكذا وقفت في الباب ورحت أراقبه وهو يدفع تلك العربة. كنت فوق منحدر وظننت في إحدى المرات أنه كان يريد الخروج من الطرف الخلفي للحظيرة. ثم رن جرس الغداء. ناديت عليه ولكنه لم يلتفت إليّ. قلت: «تعال إلى الغداء. ناد على ذلك الصبي». ولكنه لم يجب، لذا مضيت في طريقي لأتناول الطعام. نزلت الفتاة لتنادي على الصبي، ولكنها عادت بدونه. وبينما نحن في منتصف الوجبة سمعناه يصيح مرة أخرى ويطارد الصقر الحوّام.

قالت «لولا»: «هذا انتهاك للمقدسات. انتهاك للحرمات».

قلت: «إنه يفعل ما بوسعه، والمرء لا يبرم صفقة مع سنوبس في ثلاثين دقيقة. سيجلسان في الظل طوال فترة ما بعد الظهر لاجراء المساومة».

قالت: «تقول إنه يفعل؟ يفعل؟ لقد سبق له وفعل الكثير».

وأعتقد أنه فعل. والمشكلة أهي أن استسلامه هو الذي حرّضنا على الفعل. ما كان ليستطيع شراء أي زوج من البغال من أي شخص، هذا إذا ما استثنينا سنوبس، دون أن يكون لديه شيء ما يرهنه وهو لا يعرف إن كان لديه ما يرهنه. وهكذا حين عدت إلى الحقل نظرت إلى بغليّ وقلت لهما وداعاً لفترة من الزمن. وحين عدت في ذلك المساء وكانت الشمس تضيء طوال النهار تلك الحظيرة ما كنت متأكداً تماماً من أني سأندم على ما فعلته.

جاء راكباً في لحظة خروجي إلى الرواق الخارجي، حيث كان الجميع. كان مظهره مضحكاً نوعاً ما: خجولاً نوعاً ما أكثر من المعتاد ومغروراً نوعاً ما أيضاً. كأنما هو قد فعل شيئاً لطيفاً ولكنه لم يعد واثقاً الآن كيف سيكون رد فعل الآخرين عليه.

قال: «لديّ زوج من البغال».

قلت: «هل اشتريت زوجاً من البغال من عند سنوبس؟».

قال: «أعتقد أن سنوبس ليس الشخص الوحيد في هذا البلد الذي يمكنه عقد صفقة».

قلت: «طبعاً». كان ينظر إلى جوويل، بتلك النظرة المضحكة، ولكن جوويل كان قد نزل من على الرواق وكان ذاهباً

نحو الحصان. ليرى ما الذي فعله آنس به على ما أظنّ.

قال آنس: «يا جوويل». التفت إليه جوويل. قال آنس: «تعال إلى هنا». عاد جوويل قليلاً ثم توقف.

قال: «ما تريد؟»

قلت: «إذن حصلت على زوج البغال من عند سنوبس. هل سيرسلهما هذه الليلة؟ لا شك أنك تريد الانطلاق باكراً غداً طالما أنك ستذهب عن طريق موتسون؟».

ما عاد يبدو الآن كما كان منذ قليل، عاد ليبدو كشخص متضايق باستمرار كعادته، وراح يغمغم بفمه.

قال: «أبذل ما بوسعي. لم يسبق أن وجد شخصاً عانى ما عانيته من محن وإهانات، والله على ذلك شهيد».

قلت: «الشخص الذي يتغلب على سنوبس في مساومة يجب أن يشعر بالرضا. ماذا أعطيته يا آنس؟».

لم ينظر إليّ. قال: «رهنت لديه على أساس المُلْك المنقول مِسْلَفَتي[1] وبزّارتي».

«ولكنهما لا تساويان أربعين دولاراً. وإلى أين تظن أن بغلين سعرهما أربعون دولاراً سيوصلانك؟».

كان الجميع يراقبونه الآن، بهدوء وثبات. توقف جوويل في منتصف طريق عودته وهو ينتظر الذهاب إلى الحصان. قال آنس: «أعطيته أشياء أخرى». ثم راح يغمغم بفمه من جديد وهو واقف

1 ـ المسلفة: أداة لعزق التربة واقتلاع الأعشاب الضارة. (المترجم).

هناك كمن ينتظر أن يضربه شخص ما وقد قرّر سلفاً ألاّ يفعل شيئاً حيال ذلك.

سأل دارل: «ما هي الأشياء الأخرى؟».

قلت: «يا للجحيم. خذ بغليّ. يمكنك اعادتهما. سأتدبر أمري بطريقة ما أو بأخرى».

قال دارل: «إذن هذا ما كنت تفعله بملابس كاش الليلة الماضية». وقد قال هذه الجملة كمن يقرأ في صحيفة، أو كمن لا يعبأ إطلاقاً بأي شيء. لقد جاء جوويل الآن، وهو واقف هناك، ينظر إلى آنس بتينك العينين الأشبه بالبلى. قال دارل: «كان كاش ينوي شراء الآلة الناطقة تلك من محلات «سورات» بتلك النقود».

وقف آنس هناك أيضاً وهو يغمغم بفمه. كان جوويل يراقبه. لم يرمش بعينيه حتى.

قال دارل بذلك الصوت كأنما كان يصغي فحسب ولم يكن يكترث إطلاقاً: «ولكن هذا كله عبارة عن ثمانية دولارات زيادة فحسب. وهي لن تكفي مع ذلك لشراء زوج من البغال».

نظر آنس إلى جوويل بسرعة، كأنما هو ينزلق بنظره نوعاً ما، ثم نظر مرة ثانية إلى الأسفل. يقول: «الله يدري إن كان هناك شخص عانى مثل ما عانيت». ومع ذلك لم يقولا أي شيء. بل راحا يراقبانه، منتظرين، وهو ينزلق بنظره نحو أقدامهما ثم يرتفع نحو سيقانهما ولكن لا أعلى من ذلك. يقول: «والحصان».

قال جوويل: «أي حصان؟» وقف آنس هناك، فلتصبني اللعنة! إن كان الرجل لا يستطيع أن تكون له اليد العليا على أولاده، فعليه أن

يطردهم من البيت، بالغاً ما بلغوا من السنّ. وإن كان لا يستطيع ذلك فلتصبني اللعنة إن لم يكن عليه أن يغادر البيت هو شخصياً. فلتصبني اللعنة إن لم أكن أنا نفسي قد غادرت لو حصل لي مثل ذلك. يقول جوويل: «هل تعني أنك حاولت أن تقايض على حصاني؟».

ها هو آنس واقف هناك بذراعين مدلاّتين. يقول: «خمسة عشر عاماً وليس في فمي أسنان. الله أعلم بذلك. إنه يعرف أني منذ خمسة عشر عاماً لا آكل الأطعمة التي قسمها الله للانسان حتى تبقى فيه قوّته، وأنا أوفّر قرشاً هنا وقرشاً هناك حتى لا تعاني أسرتي، ولأشتري تلك الأسنان لأستطيع تناول الأطعمة التي قسمها الله لنا. وقد تخليت عن تلك النقود أيضاً. ظننت أنه طالما أستطيع أن أعيش دون أكل، فإن أبنائي يستطيعون العيش دون ركوب الجياد. الله أعلم بأني فعلت ذلك».

يقف جوويل ويداه على ردفيه، وهو ينظر إلى آنس. ثم أشاح بنظره بعيداً. نظر عبر الحقل ووجهه هادىء كالصخر، كأنما كان شخص ما آخر يتحدث عن حصان شخص آخر وهو لا يصغي إلى ذلك حتى. ثم بصق، ببطء، وقال: «يا للجحيم»، ثم استدار وذهب نحو البوابة وفك عنان الحصان ثم اعتلاه. كان يتحرك عندما اعتلى جوويل السرج وما أن أصبح فوقه حتى كانا ينهبان الطريق كأنما هما مطاردان من القانون. وقد اختفيا عن الأنظار وكأنهما نوع من الإعصار المرقط.

أقول: «حسناً. خذ بَغلي». ولكنه رفض ذلك. ولم يقبلوا حتى بالبقاء، وذلك الصبي لا زال يطارد تلك الصقور الحوّامة طوال اليوم تحت أشعة الشمس الحارة حتى كاد يجنّ كبقيتهم. قلت: «اتركوا كاش هنا على أية حال». ولكنهم رفضوا ذلك. صنعوا له نقالة إذ

وضعوا الحفة فوق التابوت ثم جعلوه يستلقي عليها ووضعوا له أدواته إلى القرب منه، كما ربطتُ بغلي بالعربة ودفعتُ العربة حوالي الميل.

قال آنس: «إذا كنا نضايقك هنا فقل ذلك فحسب».

قلت: «طبعاً. سيكون كل شيء على ما يُرام هنا. ومأمون أيضاً. والآن لنعد ونتناول طعام الغذاء».

قال آنس: «شكراً. لدينا القليل في السلّة. يمكننا تدبير أمورنا».

قلت: «من أين جئت به؟».

«جلبناه من البيت».

قلت: «لا شك أنه أصبح «بائتا» الآن. تعالوا وتناولوا بعض الطعام الساخن».

ولكنهم رفضوا ذلك. قال آنس: «أعتقد أننا نستطيع تدبير أمورنا». وهكذا ذهبت إلى البيت وأكلت وأخذت سلّة مليئة بالطعام لهم وحاولت مرة أخرى اصطحابهم إلى البيت.

قال: «شكراً. أعتقد أننا نستطيع تدبير أمورنا». وهكذا تركتهم هناك وهم يقعون حول نار صغيرة وينتظرون؛ والله أعلم ما كانوا ينتظرون.

عدت إلى البيت. ظللت أفكر فيهم، وبذلك الشاب الذي انطلق على ذلك الحصان ينهبان الطريق. كانت تلك آخر مرة يرونه فيها. ولتصبني اللعنة إذا كنت أستطيع لومه. ليس لأنه لا يريد التخلّي عن حصانه، بل لأنه يريد التحرر من أحمق لعين كآنس. أو هذا ما ظننته آنذاك. فلتصبني اللعنة إن لم يكن هناك شيء ما في شخص لعين كآنس

يجعل المرء راغباً في مدّ يد العون إليه حتى وهو يعرف أنه سيكون راغباً في معاقبة نفسه على ذلك في اللحظة التالية.

فبعد حوالي ساعة من الإفطار في صباح اليوم التالي وصل «يوستاس غريم» الذي يعمل لدى سنوبس ومعه قرينان من البغال وهو يبحث عن آنس.

قلت: «ظننت أنه لم يقايض آنس أبداً».

قال يوستاس: «طبعاً. كل ما كانوا يريدونه هو ذلك الحصان.

كما قلت للسيد سنوبس، فإنه كان يتخلى عن قرينيه مقابل خمسين دولاراً، لأنه لو أبقى عمّه «فليم» على تلك الجياد التكساسية حين كان يمتلكها ما كان آنس سيحصل أبداً على...».

قلت: «الحصان؟ لقد أخذ ابن آنس ذلك الحصان وهرب به الليلة الماضية، وربما أصبح في منتصف الطريق إلى تكساس الآن، وآنس..»

قال يوستاس: «لا أعرف من جلبه، فأنا لم أره إطلاقاً. وجدت الحصان في الحظيرة هذا الصباح حين ذهبت لأعلف الحيوانات، وقد أخبرت السيد سنوبس وقال لي هذا أن أحضر القرينين إلى هنا».

حسناً، ستكون تلك آخر مرة يرونه فيها، بكل تأكيد. وفي عيد الميلاد ربما ستصلهم بطاقة بريدية من تكساس، على ما أعتقد. ولو لم يكن جوويل لكان ذلك أنا؛ فأنا مدين له بالكثير. فلتصبني اللعنة إن لم يكن آنس يسحر الناس، بطريقة ما. فلتصبني اللعنة إن لم يكن آنس شخصاً عجيب الأطوار.

فاردامان

هناك سبعة منها الآن في دوائر سوداء صغيرة.

أقول: «انظر يا دارل. أترى؟».

ينظر إليّ. نراقبها دوائر سوداء عالية لا تتحرك.

أقول: «البارحة كان هناك أربعة منها فحسب».

كان فوق الحظيرة أكثر من أربعة منها.

أقول: «هل تعرف ما الذي سأفعله لو حاول مرة أخرى أن يحطّ على العربة؟».

يقول دارل: «ما الذي ستفعله؟».

أقول: «لن أدعه يحطّ عليها ولا على كاش أيضاً».

كاش مريض. هو مريض وممدّد فوق الصندوق. ولكن أمي سمكة.

يقول بابا: «يجب أن نحصل على بعض الدواء في موتسون. أعتقد أن ذلك ضروري».

يقول دارل: «كيف حالك يا كاش؟»

يقول كاش: «إنها لا تزعجني».

يقول دارل: «هل تريد أن نرفعها لك قليلاً؟».

ساق كاش مكسورة. وكان قد سبق له وكسر ساقين. إنه ممدد على الصندوق ولحاف تحت رأسه وقطعة من الحطب تحت ركبته.

يقول بابا: «أعتقد أنه كان علينا أن نتركه في بيت آرمستيد».

ليست لديّ ساق مكسورة ولا لدى بابا ولا دارل لديه ساق مكسورة ويقول كاش: «إنها النتوءات. لقد انطحنت على نتوء. لست منزعجاً البتة». جوويل **«رحل بعيداً. هو وحصانه رحلا وكان الوقت غداء»**.

يقول بابا: «ذلك لأنها لا تريد منا أن نكون مدينين بالفضل لأحد.

أقول والله شهيد إني أبذل ما بوسعي». **«قلت: السبب هو أن أم جوويل حصان»**.

يقول دارل: «ربما أستطيع شد الحبال أكثر».

«ذلك أننا كنا جوويل وأنا في الحظيرة وكانت هي في العربة لأن الحصان يعيش في الحظيرة وأنا كان علي أن أبقي الصقور الحوامة بعيداً عن....»

يقول كاش: «لو أنك تفعل». وديووي ديل ليس لديها ساق مكسورة وأنا أيضاً. كاش هو أخي.

نتوقف. حين يرخي دارل الحبل يبدأ كاش بالتعرّق من جديد. تبرز أسنانه.

يقول دارل: «هل تألّمت؟»

يقول كاش: «أعتقد أنه من الأفضل أن تعيده إلى وضعه السابق».

يعيد دارل الحبل إلى وضعه السابق ويشدّ بقوة. تبرز أسنان كاش.

يقول دارل: «هل تألمت؟».

يقول كاش: «إنها لا تؤلمني».

يقول دارل: «هل تريد أن يبطئ بابا السير؟».

يقول كاش: «لا. لا مجال للتأخير. إنها لا تؤلمني».

يقول بابا: «يجب أن تحصل على بعض الدواء في موتسون. أعتقد أننا مضطرون إلى ذلك».

يقول كاش: «قولوا له أن يتابع طريقه». نتابع. تميل ديووي ديل نحو الخلف وتمسح وجه كاش. كاش هو أخي. «**ولكن أم جوويل حصان. أمي سمكة. يقول دارل إنه حين نصل إلى الماء مرة أخرى فقد أراها وقالت ديووي ديل إنها في الصندوق؛ كيف يمكنها الخروج؟ لقد خرجت من الثقوب التي حفرتها، في الماء قلت، وحين نصل إلى الماء من جديد فسوف أراها. أمي ليست في الصندوق. أمي ليست لها مثل هذه الرائحة. أمي سمكة**».

يقول دارل: «ستكون هذه الكعكات في حالة جيدة حين نصل إلى جيفرسون».

لا تلتفت ديووي ديل.

يقول دارل: «الأفضل أن تبيعها في موتسون».

أقول: «متى سنصل إلى موتسون يا دارل؟».

يقول دارل: «غداً، هذا إذا لم يتحوّل هذان البغلان القرينان إلى أشلاء. لا شك أن سنوبس يعلفهما بنشارة الخشب».

أقول: «لماذا يعلفهما بنشارة الخشب يا دارل؟».

يقول دارل: «انظر. أترى؟» الآن هناك تسعة منها، عالية في دوائر سوداء عالية.

حين نصل إلى سفح التلة يوقف بابا العربة وينزل منها دارل وديووي ديل وأنا. كاش لا يستطيع السير لأن ساقه مكسورة. يقول بابا: «هيا أيها البغلان. اصعدا». يسير البغلان بصعوبة؛ تصرّ العربة. دارل وديووي ديل وأنا نسير وراء العربة صاعدين التلّة. حين نصل إلى أعلى التلّة يتوقف بابا ونعود إلى العربة.

الآن هناك عشرة منها، عالية في دوائر صغيرة عالية في السماء.

موزلي

حدث أن رفعت رأسي ونظرت فرأيتها خارج البوابة تنظر نحو الداخل. لم تكن قريبة من الزجاج، ولم تكن تنظر إلى شيء بعينه، بل كانت واقفة هناك ورأسها ملتفتة إلى هذه الناحية وعيناها تحدقان بي وترمشان نوعاً ما، كأنها تنتظر إشارة ما. حين نظرت إلى الأعلى مرة أخرى كانت تتحرك نحو الباب.

ترددت قليلاً عند الباب المنخلي لدقيقة، كما تفعل النساء عادة، ثم دخلت. كانت ترتدي قبعة من القش ذات حافة قاسية موضوعة فوق رأسها، وكانت تحمل صرّة ملفوفة بجريدة: ظننت أن معها ربع دولار على الأكثر، وأنها بعد أن وقفت قليلاً ستشتري مشطاً رخيصاً أو زجاجة من ماء الكولونيا الزنجي، لذلك لم أزعجها لمدة دقيقة واحدة أو نحوه باستثناء أني لاحظت أنها جميلة على نحو كئيب أخرق، وأنها تبدو أفضل في ثوبها المصنوع من النسيج القطني المخطط وبشرتها الأصلية مما ستبدو عليه بعد أن تشتري ما ستشتريه من عندي، أو ما تريده. عرفت أنها قد قررت ما تريد قبل أن تدخل. ولكن عليك أن تمنحهن بعض الوقت. لذا تابعت عملي على

أن يقوم آلبرت بخدمتها بعد أن يعود من النافورة، ولكنه جاء إليّ.

قال: «تلك المرأة. الأفضل أن ترى ما تريده».

قلت: «ما الذي تريده؟».

«لا أعرف. لا أستطيع أن أفهم منها شيئاً. الأفضل أن تخدمها أنت».

وهكذا درت من حول نضد الحساب. رأيت أنها حافية القدمين وتقف وقدماها مرتاحتان بكل سهولة على الأرض، كأنها معتادة على ذلك. كانت تنظر إليّ، بشدّة، ممسكة بالصرّة. لاحظت أن عينيها سوداوان كأشد ما يكون السواد، وأنها غريبة عن البلدة. لا أتذكر أني رأيتها في موتسون من قبل. قلت: «ما الذي أستطيع خدمتك به؟».

ولم تقل شيئاً حتى الآن. راحت تحدّق بي دون أن يرمش لها جفن. ثم نظرت إلى الخلف نحو الناس الواقفين عند النافورة. ثم نظرت من خلالي نحو مؤخرة المخزن.

قلت: «هل تريدين أن تري بعض أدوات الزينة؟ أم هل تريدين دواء؟»

قالت: «أجل». ثم نظرت بسرعة نحو النافورة مرة أخرى. وظننت أن أمها أو امرأة أخرى قد أرسلتها لشراء نوع من المساحيق النسائية وأنها كانت تخجل من ذكره. عرفت أن من لها بشرة كبشرتها لا يمكن أن تطلبه بنفسها، هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار أنها كانت أصغر من أن تعرف مثل هذه المساحيق. إنه لأمر مخجل قيامهن بتسميم أنفسهن بها. ولكن على المرء أن يتاجر بها أو يترك التجارة في هذا البلد.

قلت: «أوه، ما الذي تستعملينه؟ لدينا....» نظرت إليّ ثانية كأنما هي تأمرني بالصمت ثم نظرت نحو مؤخرة الصيدلية مرة أخرى.

قالت: «أود الذهاب إلى هناك».

قلت: «حسنا». عليك أن تأخذهن بطيبة خاطر حتى يمكنك أن توفر بعض الوقت. تبعتها نحو المؤخرة. وضعت يدها على البوابة. قلت: «لا شيء هناك سوى خزانة الوصفات. ما الذي تريدينه؟». توقفت ونظرت إليّ. كان الأمر أشبه ما يكون بأنها قد رفعت غطاء ما عن وجهها، عن عينيها. كان ذلك يتعلّق بعينيها: كانتا صامتتين وآملتين وراغبتين بحزن أن تكونا خائبتي الرجاء وذلك كله في آن واحد. ولكنها كانت تعاني من مشكلة ما. قلت: «ما مشكلتك؟ هيا قولي ما تريدين. أنا مشغول جدا». لم أكن أعني إستعجالها ولكن ليس لدى الرجل الوقت الكافي كما هو لديهن.

قالت: «إنها مشكلة نسائية».

قلت: «أوه، هذا كل ما في الأمر؟» ظننت أنها كانت أصغر سناً ممّا تبدو عليه، وها هي أول دورة شهرية قد أخافتها، أو ربما هي تعاني من اللاانتظام في الدورة كما يحدث لدى الصغيرات. قلت: «أين أمك؟ أليس لكِ أم؟»

قالت: «إنها هناك في العربة».

قلت: «لماذا لا تحدثينها عن الموضوع قبل أن تتناولي أي دواء؟ بإمكان أية امرأة أن تفيدك في هذا الموضوع». نظرت إليّ ونظرت إليها ثانية وقلت: «كم عمرك؟»

قالت: «سبعة عشر».

قلت: «أوه، ظننت أنك ربما كنت...» كانت تراقبني. ولكنهن لو نظرت في عيونهن جميعاً لما أحسست أن لهن عمراً وأنهن يعرفن كل شيء في هذا العالم على أية حال. «هل هي منتظمة لديك أم ليست كذلك بما فيه الكفاية؟»

تخلّت عن النظر إليّ ولكنها لم تتحرك. قالت: «أجل. أعتقد ذلك. أجل».

قلت: «حسناً، أيهما؟ ألا تعرفين؟» هذه جريمة وعار؛ ولكنهن سيشترينه من شخص ما. وقفت هناك وهي لا تنظر إليّ. قلت: «تريدين شيئاً يوقفها؟ أليس الأمر كذلك؟».

قالت: «لا، حسناً، لقد سبق لها وتوقفت».

«حسناً، إن ما...» أخفضت وجهها قليلاً، كما يفعلن في كل معاملاتهن مع الرجل حتى لا يعود الرجل يعرف أين سيومض البرق في المرة القادمة. قلت: «لست متزوجة، أليس كذلك؟».

«لا».

قلت: «أوه، ومنذ متى توقفت؟ حوالي خمسة أشهر مثلاً؟»

قلت: «حوالي شهرين فقط».

قلت: «حسناً، ليس لديّ في صيدليتي ما يمكنك شراؤه إلاّ الحلمة الاصطناعية. وأنصحك بشرائها والعودة إلى البيت وابلاغ أبيك، إن كان لديك أب، ودعيه يجعل أحدهم يشتري لك رخصة زواج. هل كان هذا كل ما تريدينه؟».

ولكنها ظلت واقفة هناك دون أن تنظر إليّ.

قلت: «لديّ مال أدفعه لك».

«هل هو مالك أم أنه تصرّف كرجل وأعطاك إياه؟»

«هو أعطاني إياه. عشرة دولارات. قال إنه مبلغ كاف».

قلت: «في صيدليتي لا تكفيك ألف دولار ولا تكفيك عشرة سنتات. إسمعي نصيحتي واذهبي إلى البيت وقولي هذا لأبيك أو أخوتك إن كان لك أخوة أو أول رجل تقابلينه في الطريق».

ولكنها لم تتحرك. «قال «ليف» إني أستطيع الحصول على ما أريد من الصيدلية. قال لي أن أخبرك أني وهو لن نشي بك لأحد لو بعتنا إياه».

«وأنا أتمنى لو أن «ليف» العزيز ذاك قد جاء بنفسه ليطلبه؛ هذا ما أتمناه. لا أعرف: ربما كنت سأحترمه قليلاً لو فعل ذلك. ويمكنك أن تعودي إليه وتقولي له إني قلت ذلك... هذا إن لم يكن في منتصف الطريق إلى تكساس الآن، وهو أمر لا أشك في صحته. أنا، الصيدلاني المحترم الذي أدير هذه الصيدلية وأرعى أسرة، عضو في الكنيسة منذ ستة وخمسين عاماً في هذه البلدة. لو أعرف أين هم أهلك لكنت أخبرتهم بنفسي».

نظرت إليّ الآن، وعيناها ووجهها في فراغ كما رأيتها للمرة الأولى عبر الواجهة. قالت: «لم أكن أدري. لقد قال لي إني أستطيع الحصول على شيء ما من الصيدلية. قال إنهم قد يرفضون بيعي ما أريد ولكن إن كان معي عشرة دولارات وقلت إني لن أبوح لأحد...»

قلت: «لم يقل أبداً إن هذه الصيدلية هي المقصودة. إن كان قد فعل ذلك أو ذكر اسمي فأنا أتحدّاه أن يثبت ذلك بالبرهان القاطع. أتحداه

أن يكون ذلك وإلاّ فإني سأقاضيه أمام القانون وإلى أقصى حد ممكن ويمكنك أن تقولي له ذلك».

قالت: «ربما صيدلية أخرى سترضى بذلك».

«إذن، لا أريد أن أعرفها. أنا، ذلك...» ثم نظرت إليها. ولكنها حياة قاسية تلك التي يحيينها؛ أحياناً يرتكب الإنسان... لو كان هناك تبرير للإثم! ولكن لا يمكن تبريره. ليست الحياة سهلة على الناس وإلاّ لما كان لديهم أي سبب في أن يكونوا طيبين ويموتوا. قلت: «اسمعيني. أخرجي هذه الفكرة من رأسك. لقد منحك الرب ما لديك، ولو أنه استعمل الشيطان لينجز ذلك. دعيه يأخذه منك إن كانت تلك هي مشيئته. عودي إلى «ليف» وخذا الدولارات العشرة وتزوجا بها».

قالت: «قال لي ليف أني أستطيع الحصول على شيء ما من الصيدلية».

قلت: «إذن اذهبي واحصلي عليه. لن تحصلي عليه هنا».

خرجت حاملة صرتها وقدماها تهسهسان على الأرض. تلكأت مرة أخرى عند الباب ثم خرجت. إستطعت أن أراها عبر الواجهة الزجاجية تتابع طريقها في الشارع.

هذا وقد حكى لي آلبرت بقية الحكاية. قال إن العربة توقفت أمام مخزن الخردوات الخاص بالسيد غروميت، وأن السيدات كن يبتعدن عن الشارع ومناديلهن فوق أنوفهن، كما تحلّق عدد من الرجال والصبية من ذوي الأنوف غير الحساسة حول العربة، وراحوا يصغون إلى المأمور وهو يتجادل مع الرجل. كان في العربة رجل طويل نحيل راح يقول إنه شارع عام وأن له الحق في أن يتواجد فيه شأنه شأن الناس

جميعاً، وكان المأمور يقول له إن عليه أن يبتعد فالناس لا يستطيعون احتمال الرائحة. لقد ماتت منذ ثمانية أيام كما قال آلبرت. جاؤوا بها من مكان ما من مقاطعة «يوكنا باتاوفا» وهم يحاولون الوصول بالجثمان إلى جيفرسون. لا بد أنه كان أشبه بقطعة من الجبن العفن الداخل إلى كثيب نمل، فقد كانوا في عربة متداعية. قال آلبرت إن الناس كانوا يخشون أن تتهاوى قبل أن يخرجوها من البلدة مع ذلك التابوت المنزلي الصنع وشخص آخر بساق مكسورة ممدد فوق لحاف وضع فوق التابوت، والأب وغلام صغير يجلسان على المقعد والمأمور يحاول أن يجعلهم يخرجون من البلدة.

قال الرجل: «هذا شارع عام. أعتقد أننا نستطيع أن نتوقف لشراء شيء ما كما يحق لأي شخص آخر. معنا المال الكافي لندفع ثمن ما نريد شراءه، والقانون لا يقول إن الشخص لا يستطيع إنفاق المال حيثما يريد».

كانوا قد توقفوا لشراء بعض الاسمنت. كان الابن الآخر في دكان غروميت يحاول أن يقنع السيد غروميت أن يفتح كيساً من الاسمنت ويبيعه إسمنتاً بعشرة سنتات، وأخيراً اضطر السيد غروميت إلى فتح الكيس حتى يخرجه من الدكان. كانوا يريدون الإسمنت ليجبروا به الساق المكسورة للشخص بطريقة ما أو بأخرى.

قال المأمور: «عجباً، ستقتلونه. ستجعلونه يفقد ساقه. خذوه إلى طبيب وحاولوا دفن ذلك الشيء بأسرع ما يمكن. ألا تعرفون أنكم قد تتعرضون للسجن بسبب تعريضكم الصحة العامة للخطر؟».

قال الأب: «نحن نبذل ما بوسعنا». ثم قصّ حكاية طويلة عن اضطرارهم لانتظار العربة حتى تعود وكيف أن الجسر قد اكتسحه

الطوفان وكيف ساروا ثمانية أميال نحو جسر آخر وكان هذا قد اكتُسح أيضاً، فعادوا وسبحوا عند المخاضة وغرق البغلان وكيف حصلوا على بغلين آخرين واكتشفوا أن الطريق مخرّب تماماً بسبب المياه وكيف اضطروا إلى الدوران من حول موتسون، ثم عاد ذاك الذي كان يشتري الإسمنت وطلب منه أن يسكت.

قال المأمور: «سنرحل خلال دقيقة».

قال الأب: «لم نكن ننوي ازعاج أحد».

قال المأمور الذي كان يحمل الاسمنت: «خذ هذا الشخص إلى الطبيب».

قال: «أعتقد أنه على ما يرام».

قال المأمور: «لسنا قساة القلوب، ولكني أعتقد أنك تستطيع أن ترى بنفسك كيف هي الحال».

قال الآخر: «طبعاً. سنخرج حالما تعود ديووي ديل. لقد ذهبت لتسلّم صرة».

وهكذا وقفوا هناك والناس يتراجعون ومناديلهم فوق أنوفهم، حتى وصلت الفتاة بعد دقيقة ومعها الصرة الملفوفة بجريدة.

قال الذي يحمل الاسمنت: «هيّا، لقد أضعنا الكثير من الوقت». وهكذا ركبوا جميعاً في العربة وانطلقوا. وحين ذهبت لأتناول طعام الغداء كان يبدو أن الرائحة ما تزال موجودة. وفي اليوم التالي بدأنا نتشممّ الهواء، المأمور وأنا وقلت:

«هل تشم شيئاً؟».

قال: «أعتقد أنهم وصلوا إلى جيفرسون الآن».

«أو هم في السجن. حسناً، الحمد لله أنه ليس سجننا».

قال: «هذه حقيقة لا مراء فيها».

دارل

يقول بابا: «هذا هوالمكان». يوقف البغلين ثم يجلس وينظر إلى المنزل. «نستطيع أن نحصل على بعض الماء من هناك».

قلت: «حسناً. عليك أن تستعيري دلواً منهم يا ديووي ديل».

يقول بابا: «الله يعلم أني لا أرضى أن أكون مديناً لأحد بأي فضل».

أقول: «إذا رأيت تنكة كبيرة الحجم فاجلبيها». تنزل ديووي ديل من العربة وهي تحمل الصرّة. أقول: «لقد وجدتِ صعوبة أكثر مما توقعت في بيع تلك الكعكات في موتسون». كيف تنسلّ حياتنا إلى اللاريح، اللاصوت، الايحاءات المنهكة والمختصرة بإنهاك؛ صدى لدوافع قديمة ولا من أيدٍ على الأوتار: في غروب الشمس نسقط في أوضاع مجنونة، إيماءات ميتة لدمى. لقد كسر كاش ساقه وها هي النشارة تتدفق منه. إنه ينزف حتى الموت كاش ذاك.

يقول بابا: «لا أرضى أن أكون مديناً بالفضل لأحد والله على ذلك شهيد».

أقول: «إذن، اجلب بعض الماء بنفسك. استعمل قبعة كاش». حين تعود ديووي ديل يأتي الرجل معها. ثم يتوقف وتتقدم هي وتقف هناك وبعد برهة يعود إلى المنزل ويقف عند الروق الخارجي، ويراقبنا.

يقول بابا: «الأفضل ألاّ نحاول إنزاله. نستطيع تجبيرها هنا».

أقول: «هل تريد أن ننزلك يا كاش؟».

يقول: «ألن نصل إلى جيفرسون غداً؟» إنه يراقبنا، عيناه يلّح فيهما التساؤل، وحزينتان. «أستطيع الانتظار».

يقول بابا: «سيكون من الأسهل عليك. هذا سيمعنها من الاحتكاك بالأخرى».

يقول كاش: «أستطيع الانتظار. لا يجب أن نخسر وقتاً بالتوقف».

يقول بابا: «لكننا جلبنا الإسمنت الآن».

يقول كاش: «أستطيع الانتظار. إنه يوم واحد آخر فحسب. إنها لا تزعجني كثيراً». ينظر إلينا، وعيناه واسعتان في وجهه الرمادي النحيف، ومتسائلتان. يقول: «الأمر على ما يرام».

يقول بابا: «لقد اشتريناه على أية حال».

أخلط الإسمنت في التنكة وأحرك الماء البطيء في دوائر سميكة ذات لون أخضر فاتح. أجلب التنكة إلى العربة حيث يستطيع كاش رؤيتها. هو ممدد على ظهره، وقد راح الشكل الجانبي النحيل لوجهه يبدو مُتَنَسِّكاً وعميقاً إذ ارتسم في صورة ظليلة على السماء. أقول: «هل يبدو هذا مناسباً؟».

يقول: «لا حاجة إلى الكثير من الماء وإلاّ فإنه لن ينفع».

«هل هذا كثير؟».

يقول: «ربما كان من الأفضل أن تضع معه قليلاً من الرمل. إنه يوم واحد آخر فحسب. إنها لا تزعجني البتة».

يعود فاردامان إلى الطريق حيث عبرنا الفرع ويعود بالرمل. يصبّه ببطء في الدوائر السميكة في التنكة. أعود إلى العربة مرة أخرى.

«هل يبدو مناسباً الآن؟».

يقول كاش: «نعم. كنت أستطيع الانتظار. إنها لا تزعجني البتة». نرخي الألواح الخشبية ونصب الإسمنت فوق ساقه ببطء.

يقول كاش: «انتبهوا. لا تصبوا أي إسمنت فوقها مباشرة إذا أمكن».

أقول: «أجل». تمزّق ديووي ديل قطعة من الورق من الصرة وتمسح الإسمنت عن أعلاها وهو ينقط من ساق كاش.

«كيف تشعر الآن؟».

يقول: «أشعر أنها على ما يرام. إنها باردة. أشعر أنها على ما يرام».

يقول بابا: «لو كان من شأن ذلك أن يعينك فأنا أطلب العفو منك. لم أكن أتوقع حدوث ذلك أكثر مما توقعته أنت».

يقول كاش: «أشعر أنها على ما يرام».

آه لو كان ممكناً السفر في الزمان! لكان ذلك أمراً جميلاً. وسيكون جميلاً لو كان بإمكانك أن تنسلّ نحو الزمن.

نعيد الألواح الخشبية إلى مكانها وكذلك الحبال ونشدّها جيداً،

والإسمنت السميك ذو اللون الأخضر يموج بين الحبال، وكاش يراقبنا بهدوء بتلك النظرة العميقة المتسائلة.

أقول: «هذا سيجعلها ثابتة».

قال كاش: «أجل. أنا ممتن لكم».

ثم نصعد جميعاً إلى العربة ونراقبه. ها هو قادم على امتداد الطريق خلفنا، متخشّب الظهر، متخشّب الوجه، لا يتحرك فيه سوى ذلك الجزء من وركيه وإلى الأسفل. يصل دون أن ينطق بأية كلمة، وعيناه الشاحبتان القاسيتان في وجهه الكئيب الجدّي، ثم يصعد إلى العربة.

يقول بابا: «ها هي تلّة أمامنا. أعتقد أن عليكم أن تنزلوا وتمشوا على أقدامكم».

فاردامان

دارل وجوويل وديووي ديل وأنا نمشي صاعدين التلّة خلف العربة. لقد عاد جوويل. لقد لحق بنا على الطريق وركب العربة. كان يمشي على قدميه. لم يعد لدى جوويل حصان. جوويل أخي. كاش أخي. كاش ساقه مكسورة. لقد ثبتّنا ساق كاش حتى لا تؤلمه. كاش هو أخي. جوويل أخي أيضاً. ولكن ساقه غير مكسورة.

هناك خمسة منها، عالية في دوائر سوداء عالية.

أقول: «أين تبيت هذه الليلة يا دارل؟ حين نتوقف في الليل ونبيت في الحظيرة، أين تبيت هذه؟».

التلّة ترتفع عالياً نحو السماء. ثم تبرز الشمس من خلف التلة ويسير البغلان والعربة وبابا فوق الشمس. لا تستطيع مراقبتهم وهم يمشون ببطء فوق الشمس في جيفرسون. إنه أحمر فوق السكة[1] خلف زجاج الواجهة. السكة تلتف وتدور لامعة وتدور. ديووي ديل تقول هذا. الليلة سأرى أين تبيت[2] حين نكون في الحظيرة.

1 ـ يقصد القطار الدمية. (المترجم).
2 ـ يقصد الصقور الحوامة. (المترجم).

دارل

أقول: «يا جوويل، ابن من أنت؟»

كان النسيم يهبّ من الحظيرة لذلك وضعناها تحت شجرة التفاح حيث يمكن لنور القمر أن يرقّش شجرة التفاح على الجوانب النائمة التي تتحدث هي[1] بين الحين والآخر ضمنها، بانفجارات صغيرة سائلة من البقبقات السرية المهمهمة. أخذت فارداما ن ليصغي. حين وصلنا قفزت القطة من فوقه وانتفضت مبتعدة بمخلب فضي وعين فضيّة في العتمة.

«كانت أمك حصاناً، ولكن من كان أباك يا جوويل؟».

«يا ابن العاهرة اللعين الكاذب».

أقول: «لا تشتمني».

«يا ابن العاهرة اللعين الكاذب».

«لا تشتمني يا جوويل». في نور القمر العالي تبدو عيناه كبقعتين من الورق الأبيض ملصقتين فوق كرة قدم عالية صغيرة.

1 ـ يعني أمه..(المترجم).

بعد العشاء بدأ كاش يتعرق قليلاً. قال: «لقد بدأت تسخن قليلاً. ضربتها أشعة الشمس طوال النهار على ما أعتقد».

نقول: «هل تريد أن نصب عليها بعض الماء؟ ربما سيخفف هذا عنك قليلاً».

قال كاش: «سأكون ممتناً لكم. إنها الشمس التي كانت تشع عليها على ما أعتقد. كان عليّ أن أفكر في ذلك وأبقيها مغطاة».

قلنا: «كان يتوجب علينا نحن أن نفكر في ذلك. ما كنت تستطيع أن تشكّ في ذلك».

قال كاش: «لم ألحظ أنها كانت تسخن. كان عليّ أن أنتبه إلى ذلك».

وهكذا صببنا عليها الماء. كانت ساقه وقدمه تحت الإسمنت تبدوان كأنهما قد غُلِيتا. نقول: «هل تشعر بتحسّن؟».

قال كاش: «أنا ممتنّ لكم. أشعر أنها أحسن».

تمسح له ديووي ديل وجهه بهدب ثوبها.

نقول: «حاول أن تنام قليلا».

يقول كاش: «طبعاً. أنا ممتن جداً. إنها أحسن الآن».

«أقول يا جوويل، من كان أباك يا جوويل؟

لعنة الله عليك. لعنة الله عليك».

فاردامان

كانت تحت شجرة التفاح وعبرنا دارل وأنا القمر وقفزت القطة وهربت ونستطيع سماعها[1] من داخل الخشب.

يقول دارل: «اسمع. قرّب أذنك منها».

أقرّب أذني وأستطيع سماعها. ولكني لا أعرف ما تقوله.

أقول: «ما الذي تقوله يا دارل؟ إلى من تتحدّث؟».

يقول دارل: «إنها تخاطب الرب. إنها تطلب منه أن يساعدها».

أقول: «ما الذي تريده منه؟».

يقول دارل: «تريده أن يخفيها عن عيون البشر».

«لماذا تريده أن يخفيها عن عيون البشر يا دارل؟».

يقول دارل: «حتى تستطيع أن تريح حياتها»

«لماذا يا دارل أن تريح حياتها يا دارل؟».

يقول دارل: «اسمع». نسمعها وهي تتقلب من جانب إلى آخر».

---

1 ـ يقصد أمه. (المترجم).

يقول دارل: «اسمع».

أقول: «لقد انقلبت على جنبها. إنها تنظر إلي من خلال الخشب».

يقول دارل: «أجل».

«كيف يمكنها أن تنظر من خلال الخشب يا دارل؟».

يقول دارل: «تعال. علينا أن نتركها في سلام. تعال».

أقول: «لا تستطيع هي أن ترى شيئاً هناك لأن الثقوب من الأعلى. كيف تستطيع أن ترى يا دارل؟».

يقول دارل: «هيا نرَ كيف هو كاش».

«ورأيت شيئاً طلبت مني ديووي ديل ألا أحكيه لأحد».

كاش مريض في ساقه. ثبتنا له ساقه بعد الظهر، ولكنه مريض منها ثانية، وهو ممدد فوق السرير. نصبّ الماء على ساقه ثم يشعر هو بالتحسّن.

يقول كاش: «أشعر بالتحسّن. أنا ممتنّ لكم».

نقول: «حاول أن تنام قليلا».

يقول كاش: «أشعر بالتحسّن. أنا ممتنّ لكم».

«وقد رأيت شيئاً طلبت مني ديووي ديل ألا أحكيه لأحد. وهو أمر لا يتعلق ببابا ولا بكاش ولا بجوويل ولا بديووي ديل ولا بي أنا».

ديووي ديل وأنا سننام فوق حشية القش. إنما على الرواق الخلفي، ومن هناك نستطيع مشاهدة الحظيرة، والقمر يرمي بنوره على نصف الحشية وسوف نتمدد نصفنا في البياض ونصفنا في السواد، ونور

القمر فوق سيقاننا. ثم سأرى أين تبيت في الليل[1] حين نكون نحن في الحظيرة. لسنا في الحظيرة هذه الليلة ولكني أستطيع مشاهدة الحظيرة لذلك سأكتشف أين تبيت في الليل. نتمدد على الحشية وسيقاننا في القمر.

أقول: «أنظري. ساقاي تبدوان سوداوين. وساقاك تبدوان سوداوين أيضاً».

تقول ديووي ديل: «هيا نم».

جيفرسون بعيدة.

«يا ديووي ديل».

«إن لم يكن عيد الميلاد الآن فكيف سيكون هناك؟».

يدور ويدور حول السكة اللامعة. ثم تدور السكة لامعة وتدور.

«ما الذي سيكون هناك؟».

«القطار. في الواجهة».

«هيا نم. سترى غداً إن كان هناك».

ربما لن يعرف «سانتا كلوز» أنهم أولاد مدن.

«يا ديووي ديل».

«هيا نم. لن يترك «سانتا كلوز» لأولاد المدينة الفرصة لأخذه».

كان خلف الواجهة، أحمر فوق السكة، والسكة تدور لامعة وتدور. لقد أوجع لي قلبي. ثم كان هناك بابا وجوويل ودارل وصبي السيد «غيلسباي». نزلت ساقا صبي السيد «غيلسباي» من تحت

1 ـ يقصد الصقور الحوامة. (المترجم).

قميص نومه. وحين ندخل في نور القمر تصبحان مزغبتين ضبابيتين. تدوران من حول المنزل نحو شجرة التفاح.

«ما الذي سيفعلونه يا ديووي ديل؟».

لقد داروا من حول المنزل نحو شجرة التفاح.

أقول: «أستطيع أن أشمّها هل تستطيعين أنتِ شمّها أيضاً؟».

تقول ديووي ديل: «صه. لقد تغيّر اتجاه الريح. هيا نم».

وهكذا سرعان ما سأعرف أين تبيت ليلاً. إنهم يدورون من حول المنزل، ويعبرون الساحة في نور القمر، حاملين إياها على أكتافهم. يحملونها حتى الحظيرة، والقمر يلقي بأشعة هادئة غير لامعة عليها. ثم يعودون ويدخلون إلى المنزل من جديد. حين مرّوا بنور القمر أصبحت ساقا صبي السيد غيلسباي مزغبتين وضبابيتين. ثم انتظرت وناديت: ديووي ديل؟ ثم انتظرت وبعدها خرجت لأعرف أين تمكث في الليل ورأيت شيئاً طلبت مني ديووي ديل ألاّ أحكيه لأحد.

دارل

قبالة المدخل المظلم يبدو وكأنه يتجسد من الظلمة، نحيلاً كحصان السباق لا يرتدي سوى ملابسه الداخلية في بداية الوهج. يقفز إلى الأرض وعلى وجهه تعبير اللاتصديق الغاضب. لقد رآني دون أن يلتفت برأسه ولا بعينيه حتى وقد كان الوهج يسبح فيهما كشعلتين صغيرتين. يقول: «هيا» وهو يقفز نازلاً المنحدر باتجاه الحظيرة.

للحظة أخرى يعدو فضياً في نور القمر، ثم يقفز كجسم مسطح مصنوع ببراعة من القصدير في مواجهة انفجار فجائي لا صوت له بينما تهب النار في عليّة الحظيرة كلها دفعة واحدة كأنما كانت محشوة بالبارود. المقدمة، الواجهة المخروطية مع الفتحة المربعة للمدخل لا يكسر تناغمها سوى الشكل المربع الجاثم للتابوت على جحش النجارة كأنه حشرة من الفن التكعيبي تجسدت كحفر نافر. من خلفي يبرز بابا وغيلسباي وماك وديووي ديل وفاردامان خارجين من المنزل.

يتوقف عند التابوت، محدودباً، ناظراً إليّ، وجهه غاضب. هناك في الأعلى للنيران صوت الرعد، عبرنا يمر تيار هوائي بارد: ليست فيها أية

حرارة بعد، وترتفع حفنة من التبن فجأة ويجري امتصاصها بسرعة على امتداد مرابط الخيل حيث كان أحد الخيول يصهل. أقول: «أسرعوا. الخيل».

يحملق في غاضباً دقيقة أخرى، ثم في السقف فوقنا، ثم يقفز نحو المربط حيث الحصان. كان يقفز ويرفس، وصوت الرفسات يمتصه صوت اللهيب. كان الصوت أشبه بصوت قطار لا متناه يعبر جسراً لا نهاية له. يمر بي غيلسباي وماك في قميصي نوم يصلان إلى الركبة، وهما يصيحان، صوتاهما رفيعان حادان دون معنى وفي الوقت نفسه وحشيان وحزينان على نحو عميق: «.... البقرة... المربط...» قميص نوم غيلسباي يسبقه تيار الهواء وينتفخ كالبالون من حول فخذيه الأشعرين.

انصفق باب المربط وانغلق. يدفعه جوويل نحو الخلف بردفيه ثم يظهر، وقد انحنى ظهره، والعضلات بارزة عبر ملابسه وهو يجرّ الحصان من رأسه إلى الخارج. في الوهج تموج عينا الحصان بنار ناعمة سريعة الزوال متلألئة على نحو وحشي؛ عضلاته تنتفخ وتنبسط وهو يهزّ رأسه، حاملاً جوويل بعيداً عن الأرض. جوويل يستمر في جذبه، ببطء، بروعة؛ ومن جديد يرميني من فوق كتفه بنظرة واحدة مجنونة وقصيرة. وحتى بعد مغادرتهما الحظيرة لا زال الحصان يقاوم ويودّ أن يعود نحو الخلف باتجاه المدخل حتى يمرّ بي غيلسباي، عارياً كما ولدته أمه وقد لفّ قميص نومه حول رأس البغل، وهو يضرب الحصان المجنون خارج الباب.

يعود جوويل وهو يعدو؛ ومن جديد ينظر نحو التابوت. ولكنه يدخل. يصرخ: «أين البقرة؟» وهو يمر بي. أتبعه. في المربط ماك

يناضل مع البغل الآخر. وحين أرى رأس البغل وقد التفتت نحو الوهج أرى كيف تموج عيناه بجنون أيضاً، ولكنه لا يصدر أي صوت. إنه يقف هناك فحسب، يراقب ماك من فوق كتفه ويؤرجح قائمتيه الخلفيتين نحوه كلما اقترب منه. يلتفت ماك إلينا، وعيناه وفمه عبارة عن ثلاثة ثقوب دائرية في وجهه تبدو فوقها حبّات النمش كحبات البازلاء الانكليزية فوق طبق. صوته نحيل حاد وبعيد.

«لا يمكنني فعل أي شيء...» يبدو الصوت وكأنه قد اكتُسح من شفتيه ثم عالياً ثم بعيداً، وهو يتحدث إلينا من مسافة هائلة من الانهاك. ينزلق جوويل عبرنا؛ البغل يندفع فجأة ثم ينطلق، ولكن جوويل كان قد سبق له وأمسك برأسه. أنحني على أذن ماك:

«قميص النوم. حول رأسه».

يحدق بي ماك. ثم يخلع عنه قميص النوم ويرمي به فوق رأس البغل فيصبح طيّعاً على الفور. يصيح به جوويل: «والبقرة؟ والبقرة؟».

يصيح ماك: «في الخلف. آخر مربط».

تراقبنا البقرة ونحن ندخل. لقد تراجعت إلى الزاوية وأخفضت رأسها وهي لا تزال تجترّ إنما بسرعة. ولكن لا تتحرك أبداً. جوويل كان قد توقف وراح ينظر نحو الأعلى، وفجأة نرى كامل أرضية العلية وهي تنهار. لقد تحولت إلى نيران، ويهطل علينا نثار خفيف من الشرار. ينظر فيما حوله. إلى الخلف تحت المعلف كرسي ذو ثلاث أرجل يُستعمل لحلب البقرة. يختطفه جوويل ويضرب به الألواح الخشبية للجدار الخلفي. يتمزّق أحد الألواح ثم آخر ثم ثالث، نقتلع الشظايا وبينما ننحني فوق الفتحة يهاجمنا شيء من الخلف. إنها

البقرة، وبنفس صافر واحد تندفع بيننا ثم عبر الفتحة وإلى الوهج الخارجي، ذيلها منتصب وقاس كأن هناك فرشاة مسمّرة عمودياً عند نهاية عمودها الفقري.

يلتفت جوويل عائداً إلى الحظيرة. أقول: «هيا يا جوويل!» أمسك به، يضرب يدي فيبعدها عنه. أقول: «أيها الأحمق، ألا ترى أنك لا تستطيع أن تعود إلى هناك؟» يبدو المدخل كضوء كشاف تحوّل إلى مطر. أقول: «تعال، من هنا».

حين نخرج من الفتحة يبدأ بالعدو. أقول: «يا جوويل» وأنا أعدو. يندفع هو ويدور حول الزاوية، وحين أصل إليها يكون على وشك بلوغ الزاوية التالية وهو يعدو أمام الوهج كذلك التمثال المصنوع من القصدير. بابا وماك وغيلسباي بعيدون قليلاً وقد أخذوا يراقبون الحظيرة القرنفلية اللون بالمقارنة مع الظلام المحيط والذي اختفى منه ضوء القمر.

أقول: «أمسكوا به! أوقفوه!».

حين أصل إلى واجهة المبنى أراه يتصارع مع غيلسباي. الواحد منهما نحيل في ملابسه الداخلية فقط والآخر عار كما ولدته أمه. يبدوان كمنحوتتين في إفريز إغريقي، وقد عُزِلا عن الواقع بأكمله بوهج أحمر. وقبل أن أبلغ مكانهما كان قد رمى بغيلسباي أرضاً واستدار ودخل إلى الحظيرة.

كان صوتها قد أضحى هادئاً تماماً الآن، كما كان صوت النهر. نراقب خلال خشبة المسرح الخاصة بالمدخل وجوويل يعدو جاثماً نحو الطرف الآخر البعيد للتابوت ثم ينحني فوقه. ينظر إلينا لبرهة عبر

المطر الهاطل من القش المحترق كسجف من خرز مشتعل، وأستطيع أن أرى فمه يتخذ شكلاً معيناً وهو ينادي باسمي.

تصرخ به ديووي ديل: «يا جوويل! يا جوويل!» يبدو لي أني أسمع الآن تراكم صوتها خلال الدقائق الخمس الأخيرة، وأسمعها تتعارك وتكافح بينما يمسك بها بابا وماك، وتصرخ: «يا جوويل! يا جوويل!» ولكنه ما عاد ينظر إلينا. نرى كتفيه تتوتران وهو يقلب التابوت ثم يجعله ينزلق بيد واحدة من على جحوش النجارة. يلوح التابوت طويلاً على نحو لا يصدق ويخفيه وراءه: ما كنت لأصدق أن آدي بندرن كانت ستحتاج إلى كل هذه المساحة لتتمدد فيها براحة. وللحظة أخرى يقف عمودياً بينما يهطل عليه الشرار في اندفاعات متناثرة وكأنه ينقلب نحو الأمام ويكسب زخماً، فيكشف جوويل والشرار ينهمر عليه أيضاً في انفجارات متوالدة، لذا يبدو وكأنه محاط بهالة من نار. ودون أن يوقفه على حدِّه ثم على الجزء السفلي منه مرة أخرى، نراه يتوقف ثم يشق طريقه ببطء نحو الأمام وعبر الستار. في هذه المرة جوويل يركبه، يتشبث به، حتى يقع أرضاً ويرمي به نحو الأمام بعيداً ويقفز ماك نحو الأمام ضمن رائحة خفيفة من اللحم المشوي ويصفع ثقوباً ذات حواف قرمزية آخذة في الاتساع تتفتح كالأزهار في قميصه الداخلي.

فاردامان

«حين ذهبت لأرى أين تبيت ليلاً، رأيت شيئا». قالوا: «أين دارل؟ أين ذهب دارل؟».

حملوها من جديد ووضعوها تحت شجرة التفاح.

كانت الحظيرة لا تزال حمراء، ولكنها لم تعد حظيرة الآن. لقد انهارت وراح اللون الأحمر يدوّم صاعداً. راحت الحظيرة تدوّم صاعدة في قطع حمراء صغيرة، نحو السماء والنجوم وهكذا ابتعدت النجوم نحو الخلف.

كان كاش لا يزال صاحياً آنذاك. التفت برأسه من جانب إلى آخر، والعرق على وجهه.

تقول ديووي ديل: «هل تريد أن أصب لك المزيد من الماء عليها يا كاش؟».

لقد اسودّت ساق وقدم كاش. حملنا المصباح ونظرنا إلى ساق وقدم كاش حيث اسودّتا.

قلت: «تبدو قدمك كقدم زنجي يا كاش».

قال بابا: «أعتقد أننا سنضطر إلى كسره».

قال السيد غيلسباي: «ماذا وضعت على ساقه بحق السماء؟».

قال بابا: «ظننت أن من شأنه تثبيتها قليلاً. كنت أنوي مساعدته فحسب».

جلبوا الإزميل والمطرقة. أمسكت ديووي ديل بالمصباح. كان عليهم أن يطرقوا بقوة. ثم نام كاش.

قلت: «إنه نائم الآن. لا يمكن أن تؤلمه وهو نائم».

لقد تشقق الإسمنت ولكنه لا يتزحزح.

قال السيد غيلسباي: «سيخرج جلده أيضاً. لماذا بحق السماء وضعت عليها هذا؟ ألم يفكر أحد منكم في وضع بعض الشحم على ساقه أولاً؟».

قال بابا: «كنت أنوي مساعدته فحسب. لقد وضعه دارل له».

قالوا: «أين دارل؟».

قال السيد غيلسباي: «أليس فيكم من هو أكثر فهماً؟ كنت أظنّ ذلك».

كان جوويل متمدداً على وجهه، وكان ظهره محمّراً. وضعت ديووي ديل بعض الدواء عليه. كان الدواء مصنوعاً من الزبدة والسخام وذلك ليمتصّ الحرارة. ثم أصبح ظهره مسوداً.

أقول: «هل يؤلمك يا جوويل؟ يبدو ظهرك كظهر زنجي يا جوويل.

قدم وساق كاش تبدوان كقدم وساق زنجي. ثم كسروا الإسمنت. نزفت ساق كاش.

قالت ديووي ديل: «عُد إلى النوم. يجب أن تكون نائماً الآن».

قالوا: «أين دارل؟».

إنه هناك تحت شجرة التفاح معها، وقد تمدد فوقها[1]. إنه هناك حتى لا تعود القطة. قلت: «هل ستبعد القطة يا دارل؟».

كان نور القمر يرقّشه هو أيضاً. فوقها كان هادئاً ولكنه كان يرقّش دارل صاعداً ونازلاً.

قلت: «لا حاجة إلى البكاء. لقد أخرجها جوويل. لا حاجة إلى البكاء يا دارل».

لا زالت الحظيرة حمراء. كانت أكثر احمراراً من هذا. ثم راحت تدوّم جاعلة النجوم تعدو متراجعة دون أن تسقط. لقد أوجعت قلبي كما فعل القطار.

«حين ذهبت لأرى أين تبيت في الليل، رأيت شيئاً قالت لي ديووي ديل إن علي ألا أحكي عنه لأحد».

1 ـ يقصد أمه. (المترجم).

دارل

كنا نمرّ بلافتات تعلن عن المحالّ التجارية منذ بعض الوقت: الصيدليات، محال بيع الملابس، الأطباء ذوو الرخصة والمرائب والمقاهي، وها هي اللوحات التي تشير إلى عدد الأميال تتناقص أرقامها وتصبح أكثر تكراراً: 3 أميال، ميلان. من قمة أحد التلال، وحين نصعد من جديد إلى العربة. نستطيع أن نرى الدخان واطئاً ومنبسطاً، ويبدو وكأنه لا يتحرك في عصر ذلك اليوم الساكن الرياح.

يقول فارداماان: «هل هذه هي يا دارل؟ هل هذه جيفرسون؟» هو أيضاً قد أصيب بالنحول؛ ووجهه، كوجوهنا، يحمل تعبير الانهاك والحلم والهزال.

أقول: «أجل». يرفع رأسه وينظر إلى السماء. ها هي تحلق عالياً في دوائر تضيق شيئاً فشيئاً، كالدخان، مع تشابه خارجي في الشكل والهدف، ولكن دون دلالة على الحركة، التقدم أو التراجع. نركب العربة مرة أخرى وكاش يتمدد على الصندوق ولا زالت القطع المكسورة من الإسمنت من حول ساقه. البغلان

المتداعيان يهبطان الجبل وهما يجلجلان ويخشخشان.

يقول بابا: «يتوجب أخذه إلى الطبيب. أعتقد أنه لا مجال للهروب من ذلك». ظَهْرُ قميص جوويل، حيث يلامسه، يتبقّع ببطء بالشحم ويسودّ. لقد خلقت الحياة في الوديان. ثم ارتفعت نحو الجبال فوق الأهوال القديمة، الشهوات القديمة، مصادر اليأس القديمة. لذلك عليك أن تسير فوق الجبال حتى تستطيع الهبوط.

تجلس ديووي ديل فوق المقعد، والصرة الملفوفة بالصحيفة فوق حجرها. حين نصل إلى سفح الجبل حيث تنبسط الطريق بين جدران متلاصقة من الأشجار، تبدأ بالنظر من حولها بهدوء من هذا الجانب الطريق إلى الجانب الآخر. وأخيراً تقول: «يجب أن أتوقف».

ينظر بابا إليها؛ المظهر الجانبي الرث لوجهه يدل على الانزعاج المتوقع الساخط. لا يوقف البغلين. «لماذا؟».

تقول ديووي ديل: «علي أن أذهب إلى ما بين الشجيرات».

لا يوقف بابا البغلين. «ألا تستطيعين الانتظار حتى نصل إلى المدينة؟ بقي أقل من ميل الآن».

تقول ديووي ديل: «قف. يجب أن أذهب إلى ما بين الشجيرات».

يتوقف بابا في منتصف الطريق ونراقب ديووي ديل تنزل وهي تحمل الصرة. لا تنظر إلى الخلف.

أقول: «لم لا تتركين كعكاتك هنا؟ سنحرسها لك».

تنزل بتصميم دون أن تنظر إلينا.

يقول فاردامان: «كيف ستعرف أين ستذهب إذا انتظرت حتى

الوصول إلى المدينة؟ أين يمكنك أن تفعليها في المدينة يا ديووي ديل؟»

تنزل الصرة معها وتستدير ثم تختفي بين الأشجار والشجيرات.

يقول بابا: «لا تتأخري أكثر مما يجب. ليس لدينا وقت نضيّعه». هي لا تجيب. بعد فترة لا نعود نستطيع سماعها.

قال: «كان يجب أن نفعل كما قال آرمستيد وغيلسباي ونرسل خبراً إلى المدينة سلفاً حتى يحفروا القبر ويجهزوه».

قلت: «ولِمَ لَمْ تفعل ذلك؟ كان يمكنك أن تستخدم الهاتف».

يقول جوويل: «ولماذا؟ من ذا الذي لا يستطيع أن يحفر حفرة في الأرض بحق الجحيم؟».

تنزل سيارة من التل. تبدأ بضرب البوق وتبطىء من سيرها. تسير إلى جانب الطريق ببطء، العجلتان الجانبيتان في المسال المحاذي للطريق، ثم تمر وتستأنف السير. يراقبها فاردامان حتى تختفي عن الأنظار.

يقول: «كم تبعد الآن يا دارل؟».

أقول: «ليست بعيدة».

يقول بابا: «كان يتوجب فعل ذلك. لم أرغب أبداً في أن أكون ممتناً بالفضل لأحد باستثناء أولادها من لحمها ودمها».

يقول جوويل: «ومن ذا الذي لا يستطيع أن يحفر حفرة في الأرض بحق الجحيم؟».

يقول بابا: «لا يليق بك أن تتحدث عن قبرها بهذا الأسلوب. أنتم جميعاً لا تعرفون حقيقة الأمر. لم تشعروا نحوها بالحب النقي، ولا أحد منكم». جوويل لا يجيب، يجلس متصلباً ومنتصباً بعض الشيء،

جسده مقوس في محاولة للابتعاد عن قميصه. فكه ذو اللون المتوهج ناتىء.

تعود ديووي ديل. نراقبها تخرج من بين الشجيرات حاملة الصرة، ثم تصعد إلى العربة. إنها ترتدي ملابس يوم الأحد الآن، وكذلك عقدها وحذاءها وجواربها.

يقول بابا: «ظننت أني قلت لك أن تتركي الملابس في البيت». هي لا تجيب ولا تنظر إلينا. تضع الصرة في العربة وتجلس. العربة تسير.

يقول فاردامان: «كم من التلال بعد؟».

أقول: «واحد. التالي يدخل البلدة نفسها».

التلة رمل أحمر، وقد أحيطت من الجانبين بأكواخ الزنوج. وتمتد تحت السماء خطوط الهاتف الكثيفة كما ترتفع الساعة فوق دار المحكمة عن الأشجار المحيطة بها. في الرمل تهمس العجلات، وكأن الأرض نفسها تريد أن تطمس دخولنا. ننزل حين تبدأ التلة بالصعود.

نتبع العربة على الأقدام، العجلات الهامسة، نمر بالأكواخ حيث تخرج الوجوه فجأة إلى الأبواب، بعيون بيضاء. نسمع أصواتاً فجائية متعجبة. كان جوويل ينظر من جانب إلى آخر، الآن وجهه ملتفت نحو الأمام وأستطيع مشاهدة أذنيه وقد اكتستا بحمرة الغضب. يسير ثلاثة زنوج إلى القرب من الطريق متقدمين عنا؛ ويسير متقدماً عنهم مسافة عشرة أقدام رجل أبيض. حين نمرّ بالزنوج تلتفت رؤوسهم فجأة بذلك التعبير الذي يدل على الصدمة والحنق الغريزي. يقول أحدهم: «يا للرب العظيم! ما الذي معهم في تلك العربة؟».

يثور جوويل. يقول: «يا ابن العاهرة». وبينما يقول ذلك يكون قد

أصبح إلى جانب الرجل الأبيض الذي توقف. يبدو وكأن جوويل قد أصيب بالعمى في هذه اللحظة، حيث أنه يثور على الرجل الأبيض.

يقول كاش من العربة: «يا دارل». أتمسك بجوويل. تراجع الرجل الأبيض خطوة إلى الوراء ووجهه لا يزال مرتخي الفك. ثم يشد حنكه فأسمع الصوت. ينحني جوويل من فوقه وعضلات فكه قد ابيضّت.

أقول: «هون عليك. إنه لا يعني شيئاً أيها السيد. يا جوويل». حين ألمسه يحاول أن يمد ذراعه نحو الرجل. أمسك بذراعه، نتعارك. جوويل لم ينظر أبداً إليّ. إنه يحاول تحرير ذراعه. حين أرى الرجل مرة أخرى فإنه يحمل موسى مشرعة في يده.

أقول: «توقف يا سيد. لقد أمسكت به يا جوويل».

يقول جوويل وهو يلهث ويلوي ذراعيه: «يظن أنه عظيم لأنه من سكان المدينة الملعونين. إبن العاهرة».

يتحرك الرجل. يبدأ بالدوران من حولي، وهو يراقب جوويل، والموسى عند خاصرته. يقول: «لا أسمح لأي شخص بأن يشتمني». نزل بابا من العربة، وديووي ديل تمسك بجوويل وتلكزه. أطلق سراحه وأواجه الرجل.

أقول: «رويدك. إنه لا يقصد الإساءة. هو مريض، فقد أصيب بحروق من نار شبت في الليلة الماضية، وهو خارج عن طوره الآن».

يقول الرجل: «نار أو لا نار، لن أسمح لأحد بأن يشتمني».

أقول: «ظن أنك قلت له شيئاً ما».

«لم أقل له أي شيء. لم أره من قبل».

يقول بابا: «اتقوا الله. اتقوا الله».

أقول: «أنا أعرف أنه لم يقصد الإساءة. سيعتذر منك».

«دعه يعتذر إذن».

«أعد موساك إلى جيبك وسوف يعتذر».

ينظر الرجل إليّ. ينظر إليّ جوويل. جوويل هادىء الآن.

أقول: «أعد موساك إلى جيبك».

يطوي الرجل الموسى.

يقول بابا: «اتقوا الله. اتقوا الله».

أقول: «قل له يا جوويل إنك لم تقصد الإساءة».

قال جوويل: «ظننت أنه قال شيئاً ما. أيظن أنه...؟».

أقول: «صه. قل له إنك لم تقصد الإساءة».

يقول جوويل: «لم أقصد الإساءة».

يقول الرجل: «هذا أحرى به. يشتمني قائلاً...».

أقول: «أوتظن أنه يخشى ذلك؟».

ينظر الرجل إليّ. قال: «لم أقل ذلك».

يقول جوويل: «الأحرى ألا تفكر به أيضاً».

أقول: «إخرس. تعال. إمض يا بابا».

تتحرك العربة. يقف الرجل وهو يراقبنا. لا ينظر جوويل إلى الخلف. يقول فارداman: «كان جوويل سيلقنه درساً».

نقترب من القمة، حيث يبدأ الشارع، وحيث تسير السيارات جيئة وذهاباً؛ البغلان يجران العربة نحو الأعلى ثم إلى القمة والشارع. يوقفهما بابا. الشارع يمتد أمامنا حيث تنكشف الساحة وتنتصب التماثيل أمام دار الحكمة. نصعد من جديد إلى العربة بينما تلتفت الرؤوس بذلك التعبير الذي نعرفه، باستثناء جوويل. لا يصعد جوويل إلى العربة، رغم أن العربة قد انطلقت في طريقها من جديد. أقول: «اصعد يا جوويل. هيا. فلنبتعد من هنا». ولكنه لا يصعد. وبدلاً عن ذلك يضع قدمه فوق محور العجلة الخلفية، وقد أمسك بإحدى يديه الدعامة العمودية، وبينما راح المحور يدور بنعومة تحت نعل حذائه. رفع القدم الأخرى وجلس هناك، وهو يحدق نحو الأمام، دون حراك، نحيلاً، متخشب الظهر، كأنما نُحتَ جاثماً من خشب رقيق.

كاش

لم يكن هناك شيء آخر يمكن فعله. إما أن يُرسل به إلى «جاكسون أو نجعل غيلسباي يقاضينا، لأنه عرف بطريقة ما أن دارل هو الذي أشعل النار. لا أعرف كيف وصل ذلك إلى علمه، ولكنه عرف. رآه فاردامان يفعل ذلك، ولكنه أقسم أنه لم يعلم أحداً بذلك عدا ديووي ديل وأنها قالت له إنها لن تحكي لأحد. ولكن غيلسباي عرف به. ولكنه كان سيشك بالأمر إن عاجلاً أو آجلاً. كان بإمكانه معرفة ذلك في تلك الليلة من مراقبته لتصرفات دارل.

وهكذا قال بابا: «أعتقد أنه لا شيء هناك يمكننا فعله». وقال جوويل:

«هل تريد تثبيته الآن؟».

قال بابا: «تثبيته؟».

قال جوويل: «الإمساك به وتوثيقه. اللعنة، هل تريد أن تنتظر حتى يشعل النار في البغلين اللعينين والعربة اللعينة؟ ولكن لم تكن هناك فائدة من ذلك. قلت: «لا فائدة ترتجى من ذلك. نستطيع الانتظار حتى

ندفنها». إنّ على الشخص الذي سينفق بقية حياته حبيساً أن يُترك ليتمتع ببعض المسرات قبل أن يُحبس.

يقول بابا: «أعتقد أنه يجب أن يكون هناك. الله أعلم، هذا امتحان لي. يبدو أنه لا نهاية للحظ السيء ما أن ينطلق هذا».

أحياناً لا أكون واثقاً من له الحق في أن يقول إن شخصاً ما مجنون أو غير مجنون. أحياناً أظن أن لا أحد منا مجنون تماماً ولا عاقل تماماً إلا حين تتكلم بقيتنا عنه بتلك الطريقة. إن المسألة لا تتعلق بما يفعله الفرد منا ولكنها الطريقة التي تنظر فيها الغالبية إليه حين يفعل ما يفعله.

لأن جوويل قاس جداً عليه. طبعاً كان حصان جوويل هو الذي تمت المقايضة به حتى استطعنا إيصالها إلى هذا القرب من البلدة، ولكن دارل حاول حرق ثمن ذلك الحصان بطريقة ما. ولكني فكرت أكثر من مرة قبل أن نعبر النهر وبعده، كيف أنها كانت رحمة من الله أن يأخذها من بين أيدينا ويحررها بطريقة نظيفة من الغرق، وبدا لي أنه حين كان جوويل يبذل قصارى جهده لإخراجها من النهر، فإنه كان يعاند إرادة الله على نحو ما، وحين رأى دارل أن على أحدنا أن يفعل شيئاً، أستطيع أن أصدق ـ تقريباً ـ أنه فعل ما هو حق على نحو ما. ولكني لا أعتقد أن هناك ما يبرر إشعال النار في حظيرة رجل ووضع حيواناته في موضع الخطر وتدمير أملاكه. وهكذا أعتبر الرجل مجنوناً. إنه لا يستطيع أن يرى ما يراه الآخرون من خلال عيونهم هم. وأعتقد أنهم لا يستطيعون شيئاً حياله سوى ما يقول معظم الناس إنه حق.

ولكنه أمر معيب على نحو ما. يبدو أن الناس قد راحوا يبتعدون عن التعاليم القديمة التي تنادي بضرب المسامير حتى تنغرز إلى آخرها وإلى تشذيب الحواف جيداً وعلى الدوام كأنك تنجز الشيء

لاستخدامك الشخصي وراحتك. يبدو وكأن لدى بعض الأشخاص الألواح الناعمة الجميلة لبناء دار محكمة بها وأنه لا يوجد لدى الآخر سوى بعض الأخشاب الخشنة التي تلائم بناء قن دجاج. ولكن الأجدر بك أن تبني قن دجاج محكم على أن تبني دار محكمة متداعية، وحين يبنيان كلاهما بناء متداعياً أو بناء جيداً فلا الواحد منهما ولا حتى الآخر سيجعل المرء يشعر أن الأمور أفضل ولا حتى أسوأ.

وهكذا سرنا في الشارع نحو الساحة وقال هو: «الأجدر بنا أن نأخذ كاش إلى الطبيب أولاً. يمكننا أن نتركه هناك ثم نعود لأخذه». حسناً. هذه هي القضية. السبب أني وهو قد ولدنا في فترتين متقاربتين ثم مضت عشرة أعوام تقريباً قبل أن يبدأ كل من جوويل وديووي ديل وفاردامان بالقدوم إلى هذه الدنيا. أشعر أني قريبهم، حسناً، ولكني لا أعرف. أنا الأكبر فيهم، وطالما أني أفكر مسبقاً بالشيء الذي فعله: لا أعرف.

كان بابا ينظر إليّ، ثم إليه وهو يغمغم بفمه.

أقول: «تابع. سندفنها أوّلا».

يقول بابا: «كانت ستفضل وجودنا كلنا هناك».

قال دارل: «فلنأخذ كاش أولاً إلى الطبيب. ستنتظر هي. لقد سبق لها وانتظرت تسعة أيام».

يقول بابا: «كلكم لا تعرفون. لا تعرفون معنى أن تتعارفا وأنتما شابان معاً، وأن تتقدما في السن معاً وأن تروا الهرم قادماً وأنه كان الشخص الذي يمكنكم أن تسمعوه يقول إنه لا يهم وتعرفون أنها الحقيقة في هذا العالم القاسي وكل أحزان الرجل ومحنه. كلكم لا تعرفون».

أقول: «علينا أن نقوم بالحفر أيضاً».

قال دارل: «لقد طلب منكم آرمستيد وغيلسباي أن تبعثوا لهما لتخبروهما مقدماً. ألا تريد أن تذهب إلى بيبودي يا كاش؟».

أقول: «هيا تابعوا طريقكم. أحس أنها على ما يرام. الأفضل هو أن تنجزوا الأمور في مكانها الصحيح».

يقول بابا: «لو أنه كان محفوراً فحسب. لقد نسينا رفشنا».

قال دارل: «صحيح، سأذهب إلى مخزن الخردوات. علينا أن نشتري واحداً».

يقول بابا: «هذا سيكلف مالاً».

يقول دارل: «هل ستضن عليها به؟».

يقول جوويل: «هيا اذهب واجلب رفشاً. هيا أعطني النقود».

ولكن بابا لا يتوقف. يقول: «أعتقد أننا نستطيع الحصول على رفش. أعتقد بوجود مسيحيين هنا». وهكذا جلس دارل ساكناً واستأنفنا المسير. وجوويل جاثم على البوابة الخلفية وهو يراقب مؤخرة رأس دارل. كان يبدو كواحد من كلاب البولدوغ، تلك الكلاب التي لا تنبح أبداً، وتقعي أمام الحبل، منتظرة الشيء الذي كان ينتظر الانقضاض عليه.

جلس بتلك الطريقة طوال الوقت الذي قضيناه أمام منزل السيدة بندرن، يستمع إلى الموسيقى، ويراقب مؤخرة رأسه لرأس دارل بعينيه البيضاويتين القاسيتين.

كانت الموسيقى تعزف في المنزل. كان ذلك الفونوغراف. وكان صوته طبيعياً كأن هناك جوقة موسيقية آخذة بالعزف.

قال دارل: «ألا تريد الذهاب إلى منزل بيبودي؟ يمكنهم أن ينتظروا هنا ويقولوا لبابا، وأنا سأقودك إلى منزل بيبودي ثم أعود من أجلهم».

رفضت. قلت إنه حريّ بنا أن ندفنها أوّلاً، طالما كنا قريبين إلى ذلك الحد، ونحن ننتظر بابا حتى يستعير رفشاً. لقد راح يقود العربة على امتداد الشارع حتى سمعنا الموسيقى.

قال: «ربما لديهم رفش هنا». ثم أوقف العربة عند منزل السيدة بندرن. كأنما كان يدري. أحياناً أظن أن الرجل العامل يستطيع أن يرى العمل مسبقاً مثلما يرى الكسول الكسل. إذن، توقف هناك كأنما كان يدري، أمام ذلك المنزل الصغير حيث كانت الموسيقى تصدح. انتظرنا هناك ونحن نستمع إليها. أعتقد أني كنت أستطيع مساومة «سورات» وجعله يبيعني واحدة من آلاته تلك بخمسة دولارات. إنها شيء مريح، الموسيقى. يقول بابا: «ربما لديهم واحد هنا».

يقول دارل: «هل تريد من جوويل أن يذهب، أم هل تظن أنه من الأفضل أن أذهب أنا؟».

يقول بابا: «أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب أنا». ثم نزل وذهب إلى الممر ثم دار من حول المنزل إلى المؤخرة. توقفت الموسيقى، ثم انطلقت من جديد.

قال دارل: «سيحصل عليه».

قلت: «أجل». كأنما كان يدري، كأنّما كان قادراً على الرؤية خلال الجدران والدقائق العشر المقبلة.

ولكن الفترة دامت أكثر من عشر دقائق. توقفت الموسيقى ولم تبدأ من جديد لفترة طويلة، حيث كانت هي وبابا يتحدثان في الخلف. انتظرنا في العربة.

قال دارل: «دعني آخذك إلى بيت بيبودي».

قلت: «لا سندفنها».

قال جوويل: «هذا إذا عاد إطلاقاً». ثم بدأ يشتم. بدأ ينزل من العربة. قال: «أنا ذاهب».

ثم رأينا بابا عائداً. كان معه رفشان، وقد جاء وهو يدور من حول المنزل وضعهما في العربة وركب واستأنفا السير. لم تنطلق الموسيقى مرة أخرى إطلاقاً. كان بابا ينظر إلى الخلف باتجاه المنزل. وقد رفع يده قليلاً على نحو ما. ورأيت الظل يرتد نحو الخلف قليلاً عند النافذة ووجهها فيها.

ولكن ديووي ديل كانت أكثر الأمور مدعاة للفضول. لقد أدهشتني. أفهم طوال الوقت كيف أن الناس يقولون إنه كان غريب الأطوار، ولكن هذا هو السبب ذاته الذي لا يجعل أي شخص يعتبر المسألة شخصية. كأنما كان خارج هذه المسألة أيضاً، كما أنت تماماً، وأن تصاب بالجنون كما قد يحدث عندما تغضب من بركة من الطين لوثتك برشاشها حين دست فيها. وكنت أحسب على الدوام أنه هو وديووي ديل لهما أسرارهما المشتركة. ولو أني سئلت عمن هو الأثير لديها لقلت إنه دارل. ولكن حين ملأناه وغطيناه وخرجنا بالعربة من البوابة وأصبحنا في الشارع حيث كان ينتظرنا ذانك الشخصان حين خرجا وانقضّا عليه وانتفض هو متراجعاً، فإن ديووي ديل هي التي

انقضت عليه قبل أن يصل إليه جوويل حتى. وعندها اعتقدت أني عرفت كيف عرف غيلسباي بكيفية شبوب النار في حظيرته.

لم تقل هي كلمة واحدة، ولم تنظر إليه حتى، ولكن حين قال له ذانك الشخصان ما يريدان وإنهما قد جاءا ليصطحباه وقاومهما هو، قفزت هي عليه كالقطة البرية بحيث اضطر أحدهما إلى أن يتركه ويمسك بها وهي تخدشه وتخمشه كقطة برية، بينما رمى الرجل الآخر وبابا وجوويل بدارل أرضاً وأمسكوا به وهو متمدد على ظهره وينظر نحوي.

قال: ظننت أنك كنت ستخبرني. لم أتصور أبداً أنك ما كنت ستفعل ذلك».

قلت: «دارل». ولكن قاوم مرة أخرى وجوويل والشخص وذاك الآخر وقد أمسك بديووي ديل وفاردامان يصرخ وجوويل يقول: «اقتلوه. اقتلوا ابن العاهرة».

كان الأمر سيئاً على تلك الحال. كان سيئاً. لا يمكن للمرء أن يهرب من عمل رديء. لا يمكنه ذلك. حاولت أن أقول، ولكنه قال: «ظننت أنك كنت ستخبرني. لم أكن أنا...» ثم بدأ يضحك. جذب الرجل الآخر جوويل بعيداً عنه وجلس هو هناك على الأرض وهو يضحك.

حاولت أن أقول له. لو كنت أستطيع أن أتحرك فحسب، بل أجلس حتى. ولكني حاولت أن أقول له وتوقف هو عن الضحك وهو ينظر إلي.

قال: «هل تريدني أن أذهب؟».

قلت: «هذا أفضل لك. هناك سيكون كل شيء هادئاً دون أن يزعجك أحد أو ما شابه. سيكون أفضل يا دارل».

قال: «أفضل». بدأ يضحك من جديد. قال: «أفضل». ولشدة ضحكه ما كان يستطيع التلفظ بها إلاّ بالكاد. جلس هناك على الأرض ورحنا نراقبه، وراح يضحك ويضحك. كان الأمر سيئاً. كان سيئاً جداً. فلتحلّ علي اللعنة إن كنت أستطيع أن أرى ما يدعو إلى الضحك. لم يكن هناك ما يبرر التدمير المتعمّد لما بناه الانسان بعرقه، ووضع فيه ثمرة جهده.

ولكني لست واثقاً جداً إن كان يحق للمرء أن يحكم على ما هو مجنون أو ليس مجنوناً. يبدو وكأن هناك شخصاً في كل انسان تجاوز العقل أو اللاعقل، وهذا يراقب التصرفات العاقلة واللاعاقلة في ذلك الانسان بذلك الرعب نفسه والدهشة نفسها.

بيبودي

قلت: «أعتقد أن شخصاً ثملاً قد يسمح لـ «بيل فارنر» بأن يضع عليه لصاقة كما لو كان بغلاً لعيناً، ولكن فلتحلّ عليّ اللعنة إن كان الشخص الذي سمح لآنس بندرن أن يعالجه بالإسمنت الخام ليست لديه سيقان احتياطية أكثر مني».

قال: «كانوا يريدون أن يخففوا عني».

قلت: «بل أرادوا الجحيم. ما الذي عناه آرمستيد بحق الجحيم حين سمح لهم حتى بوضعك في تلك العربة مرة أخرى؟».

قال: «كانت أمي قد أصبحت لافتة للنظر. لم يكن لدينا وقت للانتظار». نظرت إليه فحسب. قال: «لم تكن تزعجني البتة».

«لا تحاول أن تكذب وتقول لي أنك كنت في تلك العربة التي ليس لها مخمّدات ستة أيام بساق مكسورة وأن ذلك لم يكن يزعجك».

قال: «لم تزعجني كثيراً».

قلت: «تعني أنها لم تكن تزعج آنس كثيراً أكثر مما أزعجه رمي ذلك

الشيطان المسكين في الشارع العام ووضع القيود في يديه كقاتل لعين. لا حاجة بك إلى أن تشرح لي. ولا تقل لي إنك لن تنزعج إذ ستخسر ستين بوصة مربعة من الجلد حتى ننزع ذلك الإسمنت عنك. ولا تقل لي أنك لن تنزعج من اضطرارك إلى أن تعرج على ساق أقصر من الأخرى ما تبقّى لك من حياتك. هذا إذا استطعت أن تمشي مرة أخرى. إسمنت. يا للرب العظيم! لماذا لم يحملك آنس إلى أقرب منتشرة ويدس بساقك في آلة النشر؟ كان من شأن ذلك أن يشفيها. عندها كان باستطاعتكم جميعاً أن تدسّوا له رأسه في آلة النشر وكان من شأن ذلك أن يشفي أسرة بكاملها... أين هو آنس على أية حال؟ ما الذي يسعى إليه الآن؟».

قال: «إنه يعيد الرفشين اللذين استعارهما».

قلت: «هذا صحيح. طبعاً كان عليه أن يستعير رفشاً ليدفن زوجته به. إلا إذا كان يستطيع أن يستعير حفرة في الأرض. لكم هو مؤسف أنكم لم تقوموا جميعاً بدفنه هو أيضاً... هل هذا مؤلم؟».

قال: «لا، ليس كثيراً». وكانت حبات العرق الكبيرة وكل واحدة بحجم البلية تتحدر على وجهه ووجهه بلون الورق النشاف.

قلت: «طبعاً لا. مع حلول الصيف القادم ستستطيع أن تعرج جيداً على هذه الساق. ثم لن تزعجك، ليس كثيراً... لو كان لديك أي شيء تستطيع تسميته بالحظ، فيمكنك أن تقول إنك كنت محظوظاً أنها هي الساق نفسها التي كسرتها سابقاً».

قال: «هذا ما يقوله بابا».

ماك غووان

حدث أن كنت خلف خزانة الوصفات وكنت أصب بعض الشوكولاته السائلة حين عاد «جودي» وقال: «يا «سكيت»، هناك امرأة في المقدمة تريد أن ترى الطبيب وحين سألتها أي طبيب تريد أن ترى قالت إنها تريد أن ترى الطبيب الذي يعمل هنا وحين قلت إنه ليس هناك من طبيب يعمل هنا، وقفت هناك وهي تنظر في هذا الاتجاه».

أقول: «أي نوع من النساء هي؟ قل لها أن تصعد إلى مكتب «ألفورد» في الطابق العلوي».

يقول: «إنها امرأة ريفية».

أقول: «أرسلها إلى دار المحكمة، قل لها إن كل الأطباء قد ذهبوا إلى «ممفيس» لحضور اجتماع الحلاقين».

يقول وهو يبتعد: «حسناً. تبدو أجمل من أن تكون فتاة ريفية».

أقول: «انتظر». انتظر هو ثم ذهبت واختلست النظر خلال الشق.

ولكني لم أستطع أن أرى جيداً باستثناء أن ساقها بدت جميلة وقد انعكس عليها النور. أقول: «أهي شابة في رأيك؟».

يقول: «إنها تبدو جميلة جداً بالنسبة إلى فتاة ريفية».

أقول: «خذ هذه» وأنا أعطيه الشوكولاته. أخلع مئزري وأصعد إلى هناك. بدت جميلة تماماً. إنها إحدى أولئك الفتيات ذوات العيون السوداء واللواتي يمكن أن يطعنّك بسكين بمجرد أن تخونهن. كانت تبدو جميلة تماماً. لم يكن في المخزن أحد آخر. كان ذاك هو وقت الغداء.

أقول: «ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك؟».

تقول: «هل أنت هو الطبيب؟».

أقول: «طبعاً». تتوقف عن النظر إليّ وتبدأ بالنظر فيما حولها.

تقول: «هل نستطيع الذهاب إلى المؤخرة هناك؟».

كانت الساعة هي الثانية عشرة والربع، ولكني ذهبت وقلت لجودي أن يراقب ويصفر لي إذا ما شاهد العجوز، لأنه لا يعود عادة قبل الواحدة.

يقول جودي: «الأفضل لك أن تتخلى عن الموضوع. سيطردك خارج هذا المكان وبأسرع من رمش العين».

أقول: «إنه لا يعود قط قبل الواحدة. يمكنك أن تراه وهو يدخل إلى مكتب البريد. ابق عينيك مفتوحتين ثم لا تنسى أن تصفر لي».

يقول: «ما الذي ستفعله؟».

أقول: «راقب الآن وسأحكي لك لاحقاً».

يقول: «ألن تسمح لي بالركوب من بعدك؟»

أقول: «وما تظن هذا المكان بحق الجحيم؟ مزرعة لخيل الاستيلاد؟ راقبه حتى يعود. سأذهب للمعاينة».

وهكذا أذهب إلى المؤخرة. أتوقف عند المرآة وأملّس شعري، ثم أذهب إلى ما خلف خزانة الوصفات إذ كانت تنتظرني هناك. إنها تنظر إلى خزانة الأدوية ثم تنظر إليّ.

أقول:«حسناً يا سيدتي، ما هي مشكلتك؟»).

تقول وهي تراقبني: «إنها المشكلة النسائية. لدي المال».

أقول: «آه. هل لديك مشاكل نسائية أم تريدين مشاكل نسائية؟ إن كان الأمر هكذا فقد جئت إلى الطبيب المناسب». يا لهم أولئك الريفيون إنهم لا يعرفون ما يريدون نصف الوقت وفي النصف الباقي منه لا يعرفون كيف يقولون لك ما يريدون. أصبحت الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة.

تقول. «لا».

أقول: «أية لا؟».

تقول. «ليست لدي. هذا هو الأمر». تنظر إليّ. «معي النقود».

عندها فهمت ما كانت تعنيه.

أقول: «أوه. لديك شيء في بطنك تودين لو لم يكن». تنظر إليّ. «تتمنين لو كان لديك أكثر قليلاً أو أقل قليلاً، أليس كذلك؟».

تقول: «معي النقود. قال لي أستطيع أن أحصل على شيء ما من الصيدلية لأجل ذلك».

أقول: «من قال ذلك؟».

تقول: «هو» وهي تنظر إليّ.

أقول. «لا تريدين ذكر اسمه، اسم من وضع البلوطة في بطنك؟ أهو الذي قال لك؟» لا تقول هي شيئاً. أقول: «لست متزوجة، أليس كذلك؟» لم أرَ أي خاتم في يدها. ولكن على أية حال لم أسمع أنهم يستعملون الخواتم هناك.

تقول: «معي النقود». تريني إياها مربوطة في منديلها: عشرة دولارات.

أقول: «أقسم أنها معك. هل هو الذي أعطاك إياها؟».

تقول: «نعم».

أقول: «أيهم؟» تنظر هي إليّ. «أيهم أعطاك النقود؟»

تقول: «إنه واحد فحسب». تنظر إليّ.

أقول: «هيّا»، ولكنها لا تقول شيئاً. مشكلة القبو أن له مخرجاً واحداً فحسب ويؤدي إلى الدرج الداخلي. الساعة تشير إلى الثانية عشرة وخمس وثلاثون دقيقة. أقول: «واحسرتاه، فتاة جميلة مثلك». تنظر إليّ. تبدأ بربط النقود بالمنديل أقول: «اعذريني دقيقة واحدة». أدور من حول خزانة الوصفات. أقول: «هل سمعت بذلك الشخص الذي لوى أذنه؟ بعد ذلك لم يعد يستطيع أن يسمع حتى صوت التجشؤ».

يقول جودي: «الأجدر بك أن تخرجها من هناك قبل أن يعود العجوز».

أقول: «لو أنك بقيت في المقدمة حيث يدفع لك لتبقى هناك، فإنه لن يمسك بأحد سواي».

يذهب ببطء نحو المقدمة. يقول: «ما الذي تفعله لها يا سكيت؟».

أقول: «لا أستطيع أن أقول لك. لن يكون ذلك عملاً أخلاقياً. اذهب إلى هناك وراقب الطريق».

يقول: «قل يا سكيت».

أقول: «هيا اذهب. كل ما أفعله هو تقديم وصفة لها»

«قد لا يفعل شيئاً حيال تلك المرأة التي هناك في الخلف، ولكنه لو اكتشف أنك تتاجر بخزانة الوصفات تلك فسوف يرفسك على مؤخرتك حتى تنزل إلى آخر درجات القبو ذاك».

أقول: «لقد رفس مؤخرتي من قبل أنغال أضخم منه. عد الآن وراقبه».

وهكذا عدت إليها. الساعة تشير إلى الواحدة إلا الربع. هي تربط النقود بالمنديل. تقول: «لست الطبيب».

أقول: «طبعاً أنا هو». تراقبني. «هل ظننت ذلك لأني أبدو صغير السن أو شديد الوسامة؟ لقد كانت لدينا عصبة من الأطباء العجائز ذوي المفاصل المرتخية هنا. كانت جيفرسون نوعاً من «مأوى الأطباء العجائز». ولكن العمل بدأ يتراجع وأصبح الناس في صحة جيدة حتى اكتشفوا في أحد الأيام أن النساء ما عدن يمرضن أبداً. وهكذا طردوا كل الأطباء العجائز وجلبونا نحن الأطباء الشبان الوسيمين الذين تحبهم النساء وعندها عاد المرض يصيب النساء من جديد وانتعش العمل مرة أخرى. إنهم يفعلون ذلك في كل أنحاء البلد.

ألم تسمعي بذلك؟ ربما لأنه لم يسبق لكِ أن احتجتِ إلى طبيب».

تقول: «أنا في حاجة إلى طبيب الآن».

أقول: «ولقد جئت إلى الطبيب المناسب. لقد سبق لي وقلت لك ذلك».

تقول: « هل لديك العلاج؟ معي النقود».

أقول: «حسناً، على الطبيب بالطبع أن يتعلم كل أنواع الأمور خلال تعلّمه لفّ «الكالوميل»[1]؛ إنه لا يستطيع سوى أن يفعل ذلك. ولكنني لا أعرف ما هي مشكلتك».

«لقد قال لي إني أستطيع الحصول على شيء ما. قال إني أستطيع الحصول عليه في الصيدلية».

أقول: «هل قال لك ما اسم ذلك الشيء. الأفضل أن تعودي وتسأليه».

تخلّت عن النظر إليّ، وراحت تعصر المنديل بيديها. قالت: «عليّ أن أفعل شيئاً ما».

أقول: «إلى أي حد تتوقين إلى فعل شيء ما؟» تنظر إليّ. «طبعاً الطبيب يعرف أشياء كثيرة لا يظن الناس أنه يعرفها، ولكن ليس من المفترض به أن يقول كل ما يعرفه. إنه يخالف القانون لو فعل».

يقول جودي من المقدمة: «يا سكيت».

أقول: «اعذريني لدقيقة». أذهب إلى المقدمة. أقول: «هل تراه؟».

يقول: «ألم تنته بعد؟ ربما كان حرياً بك أن تأتي إلى هنا وتراقب وتتركني أقوم بالمعاينة».

1 ـ الكالوميل: ذرور يستعمل كمسهل للمعدة. (المترجم).

أقول: «ربما ستبيض أنت بيضة». أعود. إنها تنظر إليّ.

«طبعاً تعرفين أنه يمكن لي أن أسجن لو فعلت ما تريدين. سأخسر رخصتي ثم سيكون علي أن أبحث عن عمل آخر. هل تدركين ذلك؟».

قالت: «كل ما معي هو عشرة دولارات. أستطيع أن أجلب لك الباقي في الشهر القادم ربما».

أقول: «أف، عشرة دولارات؟ تعرفين أني لا أضع سعراً معيناً لخبرتي ومهارتي. طبعاً ليس لقاء عشرة دولارات تافهة».

تنظر إلي. هي لا ترمش حتى: «ما الذي تريده إذن؟».

الساعة تشير إلى الواحدة إلا أربع دقائق. لذا قررت أنه من الأفضل إخراجها. أقول: «احزري ثلاث مرات وبعدها سأريك».

لا ترمش بعينيها حتى. تقول: «يجب أن أفعل شيئاً ما». تنظر إلى الخلف ثم من حولها ثم تنظر نحو المقدمة. تقول: «أعطني الدواء أولاً».

أقول: «هل تعنين أنك جاهزة الآن؟ هنا؟».

تقول: «أعطني الدواء أولاً».

لذا تناولت زجاجة مدرجة وأعطيتها ظهري وأخذت زجاجة بدت غير مؤذية لأن الشخص الذي يقي السم في زجاجة لا بطاقة لها يجب أن يوضع في السجن على أية حال، كانت رائحة محتوياتها أشبه بزيت التربنتينة. صببت بعضه في الزجاجة وأعطيتها إياها. شمتها وهي تنظر إليّ عبر الزجاجة.

تقول: «إن رائحتها أشبه بزيت التربنتينة».

أقول: «بكل تأكيد. هذه بداية العلاج. عودي في العاشرة ليلاً وسأعطيك بقيته وأقوم بالعملية».

تقول: «العملية؟».

«لن نؤذيك. لقد سبق لك وعرفت هذه العملية نفسها سابقاً. هل سبق لك وسمعت بشعرة الكلب؟».

تنظر إلي ثم تقول: «هل ستكون فعّالة؟».

«طبعاً، هذا إذا عدت لتجربتها».

وهكذا شربت ما صببته لها دون أن تطرف لها عين ثم خرجت. صعدت إلى المقدمة.

يقول جودي: «ألم تحصل على ما تريد؟».

أقول: «ماذا تعني؟».

يقول: «هيا، لن أحاول أن أضرب رقمك القياسي».

أقول: «تعني تلك الفتاة. لقد أرادت بعض الدواء. لديها حالة زحار شديدة وهي خجلة من أن تتحدث عنها إلى غريب».

كان دوري في المناوبة تلك الليلة على أية حال، لذا ساعدت النغل العجوز على التدقيق ثم ألبسته قبعته وأخرجته من الصيدلية عند الثامنة والنصف. خرجت معه وسرت بصحبته حتى الزاوية وراقبته حتى مرّ تحت مصباحين من مصابيح الشارع واختفى عن الأنظار. ثم عدت إلى الصيدلية وانتظرت حتى التاسعة والنصف وأطفأت الأنوار الأمامية وأقفلت الباب وتركت نوراً واحداً في المؤخرة، ثم عدت ووضعت

مسحوق التلك في ستة برشامات ثم نظفت القبو وأصبح كل شيء جاهزاً.

وصلت في العاشرة تماماً، قبل أن تبدأ الساعة بالدق. أدخلتها فدخلت وهي تسير بسرعة. نظرت من الباب إلى الخارج، فلم يكن هناك أحد سوى صبي يرتدي أوفرولاً يجلس على حاجز حجري عند حافة الطريق. أقول: «هل تريد شيئاً؟» لم يقل شيئاً بل نظر إليّ. أقفلت البابا وأطفأت النور وعدت إلى المؤخرة. كانت تنتظرني. لم تنظر إليّ هذه المرة.

قالت: «أين هو؟».

أعطيتها علبة البرشامات. أمسكت العلبة بيدها وهي تنظر إلى البرشامات.

تقول: «هل أنت واثق أنها ستكون فعّالة؟».

أقول: «طبعاً، ولكن حين تأخذين بقية العلاج».

تقول: «أين آخذها؟».

أقول: «هناك في القبو في الأسفل».

فاردامان

الآن المكان أوسع وأكثر إنارة، ولكن المخازن معتمة لأن أصحابها ذهبوا إلى بيوتهم. المخازن معتمة ولكن الأنوار تمرّ على الواجهات حين نمرّ بها. الأنوار في الأشجار حول دار المحكمة. إنها تبيت في الأشجار ولكن دار المحكمة معتمة. الساعة التي عليها تنظر في الاتجاهات الأربعة لأنها ليست معتمة. القمر ليس معتماً أيضاً. ليس معتماً جداً. **«ذاهب بالقطار إلى جاكسون هو أخي دارل»**. ولكنه ذهب في ذلك الذي يلتمع فوق السكة الحديدية.

أقول: «فلنذهب من هنا يا ديووي ديل».

تقول ديووي ديل: «لماذا؟» السكة تلتمع ملتفة من حول الواجهة، إنه أحمر فوق السكة ولكنها قالت إنه لن يبيعه إلى أولاد المدينة. تقول ديووي ديل: «ولكنه سيكون هناك في عيد الميلاد، سيكون عليك الانتظار حتى ذلك الوقت حين يعيده».

«ذهب دارل إلى جاكسون. الكثير من الناس لم يذهبوا إلى جاكسون. دارل أخي. أخي ذاهب إلى جاكسون».

بينما نمشي تدور الأنوار، تبيت في الأشجار. على كل الجوانب الأمر نفسه. إنها تدور حول دار المحكمة ثم لا تستطيع أن تراها. ولكنك تستطيع أن تراها في الواجهات السوداء هناك. لقد ذهبوا جميعاً إلى بيوتهم ليناموا باستثنائي أنا وديووي ديل.

«ذاهب بالقطار إلى جاكسون أخي».

هناك نور في المخزن، في المؤخرة. في الواجهة زجاجتان كبيرتان من ماء الصوداء، لونهما أحمر وأخضر. لا يستطيع حتى رجلان أن يشرباهما. بغلان لا يستطيعان شربهما. بقرتان لا تستطيعان.**«دارل»**.

يأتي رجل إلى الباب ينظر إلى ديووي ديل.

تقول ديووي ديل: «انتظر هنا في الخارج».

أقول: «لماذا لا أستطيع الدخول؟ أريد الدخول أنا أيضاً».

تقول: «انتظر هنا في الخارج».

أقول: «حسناً».

تدخل ديووي ديل،

«دارل أخي. دارل أصيب بالجنون».

المشي أصعب من الجلوس على الأرض. هو في الباب المفتوح. ينظر إليّ يقول: «هل تريد شيئاً؟» رأسه ملساء. رأس جوويل ملساء أحياناً. رأس كاش ليست ملساء. **«دارل ذهب إلى جاكسون أخي دارل». في الشارع أكل موزة. «ألا تحب أن تأكل موزة؛ قالت ديووي ديل. انتظر عيد الميلاد. سيكون هناك موزة آنئذ. ثم تستطيع رؤيته. إذن سيكون لدينا بعض الموز. سيكون لدينامنه ما يملأ سلة، أنا وديووي ديل».**

يقفل الباب. ديووي ديل في الداخل ثم ينطفىء النور.

«لقد ذهب إلى جاكسون. أصيب بالجنون وذهبا كلاهما إلى جاكسون. كثير من الناس لم يصابوا بالجنون. بابا وكاش وجوويل وديووي ديل وأنا لم نصب بالجنون. لم نصب بالجنون إطلاقاً. لم نذهب إلى جاكسون أيضاً. دارل».

أسمع صوت البقرة فترة طويلة، وهي تطقطق بقوائمها... على الشارع. ثم تأتي إلى الساحة. تعبر الساحة ورأسها مدلّى...تطقطق... تخور. لم يكن هناك أي شيء في الساحة قبل أن، ولكنها لم تكن فارغة. والآن الساحة فارغة بعد أن خارت. تستأنف السير، وهي... تطقطق هي تخور. **«أخي هو دارل. لقد ذهب إلى جاكسون بالقطار. لم يذهب بالقطار ليصاب بالجنون. لقد جن في عربتنا. دارل»** لقد كانت هنا منذ وقت طويل. والبقرة رحلت أيضاً. منذ وقت طويل. لقد كانت هناك فترة أطول من البقرة. ولكن ليست فارغة فترة طويلة **«دارل أخي. أخي دارل»**.

تخرج ديووي ديل. تنظر إليّ.

أقول: «فلنذهب من حول تلك الطريق الآن».

تنظر إليّ. تقول: «لن يجدي ذلك. ابن القحبة ذاك».

«ما الذي لن يجدي يا ديووي ديل؟».

تقول: «أعرف فحسب أنه لن يجدي». إنها لا تنظر إلى أي شيء. «أعرف ذلك فحسب».

1 ـ هكذا وردت في الأصل أي مع فراغ (المترجم)
2 ـ هكذا وردت في الأصل أي مع فراغ (المترجم)
3 ـ هكذا وردت في الأصل أي مع فراغ (المترجم)
4 ـ هكذا وردت في الأصل أي مع فراغ (المترجم)

أقول: «فلنذهب من تلك الطريق».

«علينا أن نعود إلى الفندق. الوقت متأخر. علينا أن نتسلل عائدين إلى هناك».

«ألا نستطيع أن نمر ونتفرج؟».

«ألا تفضل أن تأكل الموز؟ ألا تفضل ذلك؟».

«حسناً». **«أخي أصيب بالجنون وذهب إلى جاكسون أيضاً. جاكسون أكثر بعداً من الجنون».**

تقول ديووي ديل: «لن يجدي. أعرف أنه لن يجدي».

أقول: «ذلك لن يجدي؟» **وكان عليه أن يركب القطار ليذهب إلى جاكسون. لم أكن أنا على القطار، ولكن دارل كان على القطار. دارل. دارل أخي. دارل. دارل».**

دارل

لقد ذهب دارل إلى جاكسون. أركبوه القطار وهو يضحك، على امتداد العربة الطويلة كان يضحك، والرؤوس تلتفت إليه كأنها رؤوس البوم حين يمر. أقول: «على أي شيء تضحك؟».

«نعم نعم نعم نعم نعم».

أركبه رجلان القطار. كانا يرتديان معطفين غير متشابهين، جيوبهما الخلفية فوق الورك منتفخة. عنقاهما محلوقتان حتى حد الشعر في فروة الرأس، كأن الحلاقين الحديثين المتزامنين كان معهما مقياس طباشيري شبيه بما لدى كاش. قلت: «هل تضحك من المسدّسات؟».قلت: «لم تضحك؟» قلت «ذلك لأنك تكره صوت الضحك؟».

جذبا مقعدين معاً حتى يستطيع دارل الجلوس قرب النافذة ليضحك. جلس أحدهما إلى القرب منه وجلس الآخر على المقعد المواجه، أي ركبا بعكس اتجاه القطار. كان على أحدهما أن يركب هكذا لأن أموال الولاية وجه لكل مؤخرة ومؤخرة لكل وجه، وهما

يركبان على أموال الولاية وهذا غشيان محارم. للنيكل[1] امرأة على أحد وجهيه و «يافلو»[2] على الآخر. وجهان دون ظهر. لا أعرف ما هو ذلك. لدى دارل منظار تجسّس صغير حصل عليه في فرنسا خلال الحرب. كانت فيه امرأة وخنزير لهما ظهران دون وجه. أعرف ما كان ذلك «ألهذا تضحك يا دارل؟».

«نعم نعم نعم نعم نعم».

تقف العربة في الساحة، إنها متوقفة، البغلان دون حراك، الأعنة ملفوفة حول نابض المقعد، ومؤخرة العربة باتجاه دار المحكمة. لم تكن تبدو مختلفة عن مئة عربة أخرى هناك؛ جوويل واقف إلى القرب منها وينظر على امتداد الشارع كأي رجل آخر في البلدة ذلك اليوم، ولكن كان هناك شيء مختلف، متميز. هناك من حولها جوّ واضح من الرحيل المحدّد والوشيك الذي يكون عادة للقطارات، ربما بسبب أن ديووي ديل وفاردامان جالسان على المقعد وكاش فوق حشية من القش في حوض العربة وهم يأكلون الموز من كيس ورقي. «ألهذا تضحك يا دارل؟».

دارل أخونا، أخونا دارل. أخونا دارل في قفص في جاكسون حيث ينظر إلى الخارج ويزبد بينما يداه المتسختان تجثمان خفيفتين في الفرجة الهادئة.

«نعم نعم نعم نعم نعم نعم نعم».

1 ـ قطعة نقود من خمسة سنتات. (المترجم).
2 ـ بقر وحشي أمريكي. (المترجم).

ديووي ديل

حين رأى النقود قلت: «هذه ليست نقودي، إنها ليست ملكي».

«نقود من إذن؟».

«إنها نقود «كوراتل». إنها للسيدة تل. لقد بعت «الكيك » بها».

«عشرة دولارات لقاء كعكتين؟».

«لا تلمسها. إنها ليست لي».

«لم تجلبي الكعكات. إنها كذبة. كان معك في الصرة ملابس يوم الأحد».

«لا تلمسها! إذا أخذتها فأنت لص».

«ابنتي تتهمني باللصوصية. ابنتي أنا».

«بابا. بابا».

«لقد أطعمتك وآويتك. منحتك الحب والرعاية، ولكن ابنتي ابنة زوجتي المتوفاة، تسميني لصاً فوق قبر أمها».

«ليست لي. أوكد لك. ولو كانت لي فالله يعلم أني كنت سأعطيك إياها».

«من أين جئت بعشرة دولارات؟».

«بابا... بابا».

«لن تقولي لي. أكان حصولك عليها مخجلاً إلى حد أنك لا تستطيعين البوح به؟».

«ليست لي، أؤكد لك. ألا تستطيع أن تفهم أنها ليست لي؟».

«سأعيدها إليك. ولكنها تسمي أباها لصاً».

«لا أستطيع. أؤكد لك أنها ليست نقودي. الله يعلم أني كنت سأعطيك إياها لو كانت لي».

«لن آخذها. ابنتي التي أكلت طعامي مدة سبعة عشر عاماً تضن عليّ بدين قدره عشرة دولارات».

«ليست لي. لا أستطيع».

«لمن هي إذن؟».

«لقد أُعطيت لي. لأشتري بها شيئاً ما».

«لتشتري ماذا؟».

«بابا. بابا».

«إنه مجرد قرض. الله يعلم أني أكره أن يقرّعني أولادي ولكني أعطيهم ما هو لي دون حدود. أعطيهم ببشاشة ودون حدود. والآن ينكرون ذلك عليّ. يا «آدي». لقد كنت محظوظة إذْ متّ يا آدي».

«بابا. بابا».

«الله يعلم أن ذلك صحيح».

أخذ النقود وخرج.

كاش

إذن، حين توقفنا هناك لنستعير الرفشين سمعنا الفونوغراف يعزف في المنزل، ولذا حين انتهينا من الرفشين قال بابا: «أعتقد أنه من الأفضل أن أعيدها».

وهكذا عدنا إلى المنزل. قال جوويل: «الأفضل أن نأخذ كاش إلى منزل بيبودي».

قال بابا: «لن أغيب سوى دقيقة واحدة». نزل من العربة، الموسيقى لم تكن تصدح الآن.

قال جوويل: «إجعل فارداما يفعل ذلك. يستطيع أن يفعل ذلك بنصف المدة. أو دعني أنا...».

قال بابا: «الأفضل أن أفعلها أنا، طالما أنا هو من استعارهما».

وهكذا جلسنا في العربة، ولكن الموسيقى لم تكن تصدح الآن. أعتقد أنه لأمر جيد أنه ليس لدينا واحد منها في البيت. لو كان لديّ واحد منها لما كنت أنجزت أي عمل وأنا أصغي إليه. لا أعرف إن كان

القليل من الموسيقى هو أفضل ما يمكن للمرء أن يحوز عليه. يبدو أنه حين يعود الشخص متعباً في الليل، ليس هناك ما يمكن أن يريحه أكثر من الموسيقى خلال فترة راحته. لقد رأيتها تلك التي لها غطاء ولها يد لحملها بحيث يمكن للمرء أن يأخذها أنّى يريد.

قال جوويل: «ما تظن أنه يفعل؟ كنت سأعيد الرفشين جيئة وذهاباً عشر مرات حتى الآن».

قلت: «دعه ينفق من الوقت ما يريد. إنه ليس رشيقاً مثلك. تذكر».

«لم لم يتركني أعيدهما أنا إذن؟ يجب أن نعالج لك ساقك حتى تستطيع العودة إلى البيت بدءاً من الغد».

قلت «لدينا الكثير من الوقت. أتساءل كم هو سعر واحد من تلك الأجهزة بالتقسيط؟».

قال جوويل: «تقسيط أي شيء؟ ما الذي لديك لتشتري به؟».

قلت: «لا يمكنك أن تعرف. ربما كنت أستطيع شراء ذلك الجهاز من عند سورات لقاء خمسة دولارات».

وهكذا عاد بابا وذهبنا إلى منزل بيبودي. وبينما كنا هناك قال بابا إنه سيذهب إلى دكان الحلاق ليحلق له لحيته. ثم قال تلك الليلة إن لديه عملاً ينجزه، وقد أشاح بنظره بعيداً وهو يقول ذلك، وقد مشط شعره وملّسه بعد أن بلّله وكانت رائحة العطر تفوح منه، ولكني قلت لهم أن يتركوه لحاله. ما كنت لأمنع نفسي من سماع مثل تلك الموسيقى مرة أخرى.

وهكذا غادرنا مرة أخرى في الصباح التالي، ثم عاد وقال إن علينا أن نربط البغلين بالعربة وأن نستعد للإنطلاق وأنه سيقابلنا، وبعد أن

ابتعدوا قال: «لا أعتقد أنه لم يعد معك نقود».

قلت: «لقد أعطاني بيبودي ما يكفي لأدفع أجرة الفندق. لا نحتاج إلى شيء آخر، أليس كذلك؟».

قال بابا: «لا، لا، لا نحتاج إلى أي شيء آخر». كان يقف هنالك دون أن ينظر إلي.

قلت: «إن كان هناك ما هو ضروري فأعتقد أن بيبودي....».

قال: «لا، لا شيء آخر. إنتظروني جميعاً عند الزاوية». وهكذا جلب جوويل البغلين وجاء الآن لمساعدتي وقد ثبتوني على حشية من القش في العربة وسرنا عبر الساحة إلى الزاوية حيث قال بابا، وكنا ننتظر هناك في العربة، بينما ديووي ديل وفاردامان يأكلان الموز حين رأيناهما قادمين. كان بابا قادماً بتلك النظرة الجريئة المثيرة للشفقة في آن واحد وكأنه يفعل شيئاً يعرف أن ماما لن تحبّه، وكان يحمل حقيبة سفر في يده، وقال جوويل.

«من هذه؟».

ثم رأينا أنها لم تكن الحقيبة ما يجعله يبدو مختلفاً، بل وجهه ويقول جوويل: «لقد حصل على الأسنان».

كانت تلك حقيقة. لقد جعلته يبدو أطول بقدم كاملة، كأنما رفعت له رأسه إلى الأعلى، كان مثيراً للشفقة وفخوراً بنفسه أيضاً، ثم رأيناها خلفه، تحمل الحقيبة الأخرى: إنها نوع من النساء يشبه البطة في ملابس رسمية ولها عينان قاسيتان جاحظتان وكأنها تتحدى أي انسان أن يقول شيئاً. وقد جلسنا هناك نراقبهما، وفما ديووي ديل وفاردامان نصف مفتوحين وموزتان نصف مأكولتين في يديهما وهي

تسير خلف بابا، وتنظر إلينا بتحدٍ، ثم أرى أن الحقيبة التي كانت تحملها هي عبارة عن واحد من أجهزة الفونوغراف تلك. كانت تلك حقيقة إذن، فهو مغلق وجميل كلوحة، وفي كل مرة ستأتي اسطوانة جديد بالبريد ونجلس نحن في المنزل في الشتاء ونصغي إليه. يا للعار، لن يكون دارل معنا ليستمتع بذلك أيضاً. ولكن الأمر أفضل على هذه الحال. هذا العالم ليس عالمه ولا هذه الحياة حياته.

يقول بابا: «هؤلاء هم كاش وجوويل وفاردامان وديووي ديل» بلهجة مثيرة للشفقة وفخورة أيضاً، مع أسنانه وكل شيء، وحتى دون أن ينظر إلينا. يقول: «أقدم إليكم السيدة بندرن».

بينما أرقد محتضرة

رواية من الروايات التي يصعب على الإنسان قراءتها، دون الانغماس فيها ودون الإحساس مع أبطالها، ويصعب على الإنسان أيضاً أن يتساءل لماذا جُعلت واحدة من روائع الأدب الأميركي.

«ويليام فوكنر»، رابح جائزة نوبل للآداب، قالت النقاد فيه ما لم تقله بكاتب أميركي آخر.

خلال ستة أسابيع من صيف عام 1929، كتب المؤلف روايته هذه التي تهز المشاعر والأحاسيس. هي رواية جمعت بين البساطة والتألق، بحيث اعتبرها النقاد من روائع الأدب العالمي.

عبر «ويليام فوكنر» في روايته هذه عن أحاسيس المجتمع الأميركي وموقفه من الموت، فإذ بنا نرى أناساً يرهبونه وآخرين يقفون حيارى أمامه، إنما ما من أحدٍ وقف هازئاً ضاحكاً.

إنها رواية تُقرأ من الصفحة الأولى حتى نهايتها ولا يمل منها.

٣٥٠ ليرة

علي مولا

ISBN 995382130-5
9 789953 821306

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان - بلوك ب طابق3 - شارع الكويت - المنارة - بيروت 2036 6308
لبنان - تلفاكس: 009611-740110 E-Mail: alkhayal@inco.com.lb
www.darelkhayal.com